تاريخ الدولة العباسية

دكتورة
نبيلة حسن محمد
أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية المساعد
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

١٩٩٣

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - إسكندرية
ت : ٤٨٣٠١٦٣

تاريخ الدولة العباسية

دكتورة
نبيلة حسن
كلية الآداب جامعة الإسكندرية

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - اسكندرية
ت : ٤٨٣٠١٦٣

بسم الله الرحمن الرحيم

"لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب"

صدق الله العظيم

قرآن كريم: سورة يوسف آية «١١١»

مقدمـــــة

سمات الدولة العباسية

الدولة العباسيـــة

سمات الدولة

دالت الدولة الأموية، التي حكمت الدولة العربية الاسلامية من الحاضرة دمشق، وقامت علي انقاضها دولة جديدة تنتمي الي بيت الرسول صلي الله عليه وسلم وهي الدولة العباسية، وارتفعت بنود العباسيين السوداء .

ويعتبر قيام الأسرة الجديدة نقطة تحول خطيرة في دولة الاسلام وذلك أن صبغة الدولة أصبحت أسلامية عالمية بعد أن كانت عربية وأستمرت الدولة العباسية في الحكم حوالي خمسة قرون شهدت الدولة خلالها فترات من العظمة والسؤدد والابهة، وتمتع الخلفاء اثناءها بكل مظاهر الترف والحضارة كما شهدوا ايضا فترات من الضعف والشدة والبؤس ذاقوا خلالها مرارة الذل والهوان.

والعصر العباسي الأول يشغل فترة القرون الأولي من هذه الفترة وخلال هذا القرن كان الفرس يحتلون مركز الصدارة في الدولة ولهذا يطلق الكتاب علي هذه الفترة أسم العصر الفارسي أودولة الفرس. وأعقبت فترة الأزدهار والقوة هذه فترة انتاب فيها الخلفاء الضعف الشديد وتغلب عليهم قواد الجيش من الترك واصبح الأمر والنهي في الدولة لقائد الجيوش الذي عرف بلقب امير الأمراء. كذلك شهدت الدولة خلال هذه الفترة التفتت والأنقسام السياسي الذي بدأ أول

الأمر في المغرب والأندلس ثم أنتقل الي المشرق الذي بدأ ينفصل بدوره عن الدولة ·

هذه الفترة- أو المرحلة الثانية- يطلق عليها الكتاب اسم العصر التركي أودولة الترك· وهذه الفترة تنقسم بدورها الي فترات ساد المشرق فيها بعض العناصر التركية وغيرالتركية · ففي قبيل منتصف القرن الرابع الهجري فرضت اسرة البويهيين من الديلم وصايتها علي الخليفة في بغداد من سنة ٣٣٤هـ الي منتصف القرن الخامس الهجري تقريبا وبني بويه هؤلاء كانوا يدينون بالمذهب الشيعي ورغم ذلك لم يحاولوا أن يقضوا علي الخلافة السنية بل حافظوا عليها · ولكن قيام دولتهم ساعد علي انتشار الأفكار الشيعية في المشرق· وكان ذلك ايذانا بتحول كل المشرق الايراني الي المذهب الشيعي·

وتلي الديلم دولة السلاجقة هم من الاتراك واستمر العنصر التركي يسود الدولة حتي نهاية بغداد علي أيدي المغول· وكان لسقوط بغداد حاضرة الخلافة العباسية أثره الخطير بالنسبة للدولة الاسلامية من الناحيتين الاسلامية والحضارية · فمن الناحية السياسية أنتهت دولة الخلافة وتقسمت الدولة الي ذلك العدد الكبير من الدول المعروفة في المغرب وفي المشرق وحاول الاتراك العثمانيون أن يعيدوا هذه الوحدة وقد نجحوا الي حد ما·

اما من الناحيةالحضارية فكان سقوط بغداد يعني توقف العلوم والحضارة العربية والاسلامية وتلي هنا التوقف فترة من التدهور

والاضمحلال استمرت الي وقت قريب عندما بدأ العرب المسلمون يفيقون من سباتهم هذا في الوقت الذي كانت فيه أوربا تنهض من الناحيتين السياسية والحضارية لتبدأت الفترة الحديثة الحالية في تاريخ الاسلام التي نسميها فترة النهضة .

أما عن السمات التي تميزت بها الدولة العباسية ففي مقدمتها أن الدولة اتخذت سياسة شرقية علي عكس الدولة الأموية التي كانت تتجه في سياستها العامة إتجاها غربيا والمثل لذلك هو أن بلاد المغرب كانت أول البلاد التي خرجت علي سلطان الخلافة العباسية وبدأت حركة المد الأسلامي في بلاد المغرب تفقد بعض قوتها، كما بدأ ينكمش أمام ضغط اوربا المتزايد .

وفيما يتعلق بخلفاء الدولة العباسية فقد اعتبروا أنفسهم ورثة النبي صلي الله عليه وسلم الذين يسيرون بالجماعة الاسلامية في الطريق القويم المستقيم. وإذا ما تأملنا في كتب التاريخ نجد أن الكتاب يؤكدون حرمة وقداسة الخليفة العباسي سليل بيت النبوة بينما يظهرون خلفاء بني أمية بمظهر الزعماء غير المتدينين ويبالغون في وصف رذائلهم. ويمكن أن نفسر ذلك بأن معظم الكتاب الذين كتبوا عن تاريخ الدولة الاموية انما دونوا مصنفاتهم تلك علي أيام العباسيين ولهذا السبب لانتوقع منهم ان يسجلوا امجاد اسرة أنمحت واندثرت. وصورة الخليفة العباسي عند هؤلاء الكتاب أشبه ماتكون

بصورة كسرى فارس فهو يتمتع بكثير من الأبهة والفخامة والرونق والعظمة، كما تحيط به مظاهر الترف والتحضر. فقد زخر بلاط الخليفة بأهل العلم والفقه ممن يتصفون بالورع والتقوى، الي جانب الادباء والمغنين والشعراء والاطباء الاخيار، والقضاة، وكذلك المشعوذين والمنجمين. وشهدت كما يقول ديمومبين ليالي بغداد الساحرة محافل الخلفاء ومجالسهم، فبعد صلاة العشاء الورعة تنشد الاغاني وتدار كؤوس الراح خلال ذلك. ويعطر الجو بأنسام عبقة تتصاعد من المبخرات يختلج علي رنين قطرات الينابيع ويهتز الجو طربا للاصوات القوية المغردة المنبعثة عن افواه المغنيات والحان الاعواد. وقد يعترض هذه الحفلات اليومية حادثة غير متوقعة فتكسبها طرافة كاستجواب سجين لبق ذي فصاحة مفحمة او زيارة ناسك متسول ذي كبرياء وفظاظة وقد يحز رأس بينما تدور الاقداح وتقترب الليلة من نهايتها، فيثقل الخمر قلوب النشاوي وتنهل الدموع وقد ينشد شاعر قصيدة ينعي فيها العمر القصير. وفي الختام يبزغ الفجر بأضوائه والمتهيبة فيؤدي صلاة الصبح أولئك الذين فيهم بقية من وعي بخشوع وتقوي. أنها حياة ملأي بالاحاسيس عنيفة رقيقة. أنها حياة ملأى بالاحاسيس عنيفة رقيقة معا، تحفل بالفظاظة ورقة الطبع في آن واحد نجد مثيلا لها لكن بصورة أوضح واعنف، وذلك في عصر النهضة الاوربية. وقد ورد وصف هذه الحياة الحافلة في ألف ليلة وليلة والأغاني، ومروج الذهب، وفي روايات المؤرخين وقصائد الشعراء. ولكن وراء هذا الوجه

الرومنتيكي للحياة يعيش شعب بينهم من يفكر٠٠ وقد شهد القرن الثالث الهجري [التاسع الميلادي] قمة جهود المسلمين لفهم ذات الله والانسان والحياة، والتوفيق بين العقل والنقل٠ وكان عصر ازدهار الادب العربي كذلك، وبداية احياء أغر للفن الاسلامي بصورة فعالة٠ وفي هذا العصر كذلك نجد كل امكانيات الازدهار العقلي والمادي قد تحققت بوضوح٠ وفي السنوات الأخيرة من هذا العصر بالذات آذنت الساعة بزوال وتفسخ هذا المجد[١]٠

---

(١) انظر، جود فروادينوميين، النظم الاسلامية، ترجمة الدكتور فيصل السامر، الدكتور صالح الشماع، دار النشر للجامعيين، بيروت ١٩٦١، ص ٩٢-٣٠

الفصل الأول

التعريف ببعض المصادر

التعريف ببعض المصادر

ونتكلم الآن عن المصادر التي يرجع اليها لدراسة هذا العصر نبدأ بالاشارة الي أن المصادر التي يرجع اليها لدراسة تاريخ العرب والاسلام تنقسم الي قسمين كبيرين: الأول منهما هو المصادر التي تتصف بالاصالة أو التي لايتطرق اليها الشك وان تطرق فالي حد محدود وهذه المصادر الاصلية تنقسم الي أنواع فالأول منها هو الأوراق الرسمية او الأوراق الحكومية وهي التي تعرف باسم الوثائق او الأرشيف وهذه قليلة نادرة وماوصل الينا منها لايكفي لكتابة التاريخ الاسلامي، بشكل يمكن ان نرضي عنه وهذه هي نقطة الضعف بالنسبة لمؤرخ التاريخ الاسلامي بوجه عام وذلك انه يضطر الي الرجوع الي مصادر من الدرجة الثانية مثل: روايات المؤرخين من معاصرين ومحدثين ويمكن أن نفسر ندرة الوثائق التي وصلتنا من العصور الاسلامية ونرجعها الي عدة أسباب نشير منها الي قلة الورق وغلاء ثمنه. فالمعروف ان الورق الذي استخدم في العصور الاولي هو المصنوع من نبات البردي وكان يعرف باسم القرطاس او القراطيس وذلك قبل ان تعرف صناعة الورق الرخيص المعتاد الذي عرف باسم الكاغد والذي دخل بلاد الاسلام منذ منتصف القرن الثاني الهجري [القرن الثامن الميلادي].

ومن هذه الاسباب ايضا عدم انتشار الكتابة بالشكل الذي آلت اليه في العصور الحديثة حتي أن الكثير من الأوامر الحكومية وكذلك المعاملات بين الافراد كانت تتم شفاهة دون حاجة الي التسجيل. والي جانب هذا يمكن الاشارة الي الاضطرابات السياسية التي المت بالدولة الاسلامية والعداء المرير الذي كانت تكنه الاسر الحاكمة الجديدة للاسر السابقة عليها مما كان يدعوها الي العمل علي محو اثارها والقضاء علي مخلفاتها.

هذا كما يمكن الاشارة الي الظروف الاجتماعية في تلك العصور القديمة والتي لم تكن تعمل علي سلامة حفظ الاوراق الرسمية التي كانت تذهب ضحية للاهمال وعدم الرعاية، الي جانب الكوارث مثل الحريق وخاصة بسبب استخدام الشموع والمواقد الزيتية من اجل الاضاءة او القراءة ليلا.

النقــــود

بعد ذلك نشير الي النقود وهي تعتبر ايضا من الوثائق الاصلية وذلك بسبب النقوش التي تحملها والتي تتمثل في اسماء

الامراء والقابهم وكذلك في العبارات المنقوشة عليها سواء كانت سياسية او دينية الي جانب تاريخ شك العملة، واسم البلد الذي ضربت به. فهذه المعلومات لها أهمية تاريخية هنا الي جانب اهمية النقود من الناحية الاقتصادية والتي تتمثل في انواع المعادن الثمنية المستخدمة في ضربها ومدي نقاء السبيكة الذهبية او الفضة ومن هنا تصبح قوائم النقود الموجودة في المتاحف الخاصة في العالم من المراجع القيمة التي لايستغني المؤرخ المحدث عن الاستفادة منها.

النقـــوش

يأتي بعد ذلك النقوش الموجودة علي الاثار وعلي اللوحات التذكارية القديمة او الشواهد القبور وغيرها. وهذه تحتوي مثلها مثل النقود علي مادة اصيلة بل هي أغني من النقود طبيعة حجمها وتنوع مادتها.

الاثـــــار

وتأتي بعد ذلك الاثار وهي مثل النقود من حيث الاهمية الكبيرة بسبب اصالتها وذلك انها شواهد مادية للعصور التي اقيمت فيها وهي تنقسم الي معمارية وزخرفية.

وتتمثل الاهمية التاريخية لاثار من حيث انها تعطي فكرة صحيحة عن طبيعة العصر الحضارية من الناحية المادية مما يعجز الوصف عن التعبير عنه مهما بلغ من الدقة والامانة. ورغم التنقيب المستمر علي الوثائق والنقود والاثار. ورغم اهتمام الدارسين بذلك فان ماوجد من العصور الاسلامية منها بشكل عام ومن عصر صدر الاسلام بصفة خاصة لاتكفي لكتابة تاريخ مؤثق لهذه الفترة. وبناء علي هذا فلايبقي امامنا الا كتب المؤرخين القدماء من معاصرين ومتأخرين.

ثم نتناول بعد ذلك مصدر من أهم المصادر التي تناولت الدعوة العباسية وهو كتاب اخبار الدولة العباسية وفيه اخبار العباس وولده وهو المؤلف من القرن الثالث الهجري.

وهذا العنوان «اخبار الدولة العباسية» يرجحه الاستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري محقق المخطوط - وكلمه "دولة" هنا كما يقول الدوري، "لاتعني بالضرورة الكيان السياسي المفهوم. بل أن مؤلف "اخبار العباس وولده" استعملها بمعني "دعوة" اذ يقول : "أن ابراهيم الامام بن محمد اوصي ابا العباس عبد الله بن محمد بالقيام بالدولة، وأمره بالجد والحركة، وان لايكون له بالحميمة لبث ولاعرجة حتي يتوجه الي الكوفة" بناء علي الدراسة المقارنة

التي عقدها بين مخطوطه هنا، والقطعة المصورة من مخطوط بعنوان "نبذة من كتاب التاريخ للمؤلف المجهول من القرن الحادي عشر" التينشرها الاستاذ غريان نيويج مع ترجمة وتعليقات بالروسية ثم نشر المخطوط كله مصورا بعنوان "تاريخ الخلفاء" للمؤلف المجهول من القرن الحادي عش وهذا الكتاب مهم لصلته الوثيقة بمخطوط - الدكتور الدوري - وللضوء الذي يلقيه علي بعض مشكلاته.

وفقد الاوراق الاولي من المخطوط كما يقول المحقق حرمنا نم أسم المؤلف. ولكن دراسة اسلوب الكتاب ومصادره تدل علي أنه كتب في اواسط القرن الثالث الهجري فهو في الأساس كتاب اخبار يعني بايراد الأسانيد ويلتفت الي اختلاف الروايات. ومع انه يراعي تسلسل النسب في اطاره الا انه لم يحافظ بدقة علي خط كتب الانساب. اذ أنه لايعني الا بالابن الاكبر. كما ان الاهتمام الخاص بالاسناد يبين الاثر الواضح لمدرسة اهل الحديث في الاسلوب.

وتتنوع مصادر معلومات الكتاب حسب طبيعة الموضوع، وتدل علي جهد واسع في جمع الروايات. فقد اخذ المؤلف جل معلوماته عن الدعوة من روايات شفوية واخذ من مؤرخين سابقين، وانفرد بايراد وثائق ومعلومات هامة.

أخذ مؤلف "الاخبار" عن مؤلفين معروفين سبقوه من اخباريين، مثل ابي مخنف [توفي ١٥٧هـ /٧٧٤هـ] وعوانه بين الحكم [توفي ١٤٧هـ/٨١٩م]، والهيثم بن عدي [توفي ٢٠٦ - ٢٠٧هـ/٨٢١ - ٨٢٢م] والمدائني [توفي ٢٣٥هـ/ ٨٥٠م] وعن مؤرخين كالواقدي [توفي ٢٠٧هـ/ ٨٢٣م] ونسابين مثل هشام بن محمد بن السائب الكلبي [توفي ٢٠٤ - ٢٠٦هـ/ ٨١٩ - ٨٢١م] ومصعب الزبيري [توفي ٢٣٥هـ/٨٥٠م] وغيرهم مثل محمد بن سلام [توفي ٢٣١هـ/٨٤٠م] واتصل بمعاصريه واخذ عنهم مثل محمد بن شبه [توفي ٢٦٢هـ/٨٧٥م] والعباس بن محمد بن محمد الدوري [توفي ٢٧١هـ/٨٨١م] والمبرد [توفي ٢٨٥هـ/٨٩٨م] وقد اخذ روايات المعاصرين باسانيدها، وخير مثل لذلك مارواه عن البلاذري فهو يعطي روايات باسناد متصل، ولذلك تختلف سلسلة الأسناد احيانا عما جاء في كتاب انساب الأشراف للبلاذري، او يعطي اسنادا حين لايوجد اسناد في رواية انساب الاشراف، او يورد نصا يختلف لحد ما عن النص الوارد في انساب الاشراف مما يدل علي انه روي عنه مباشرة٠

وانفرد المؤلف بمعلومات عن بداية الدعوة [حتي سنة ١٠٠هـ] وعن بعض احداثها واسرارها، كما أورد قوائم مفصلة

باسماء النقباء والدعاة في خراسان ومراتبهم وتنظيماتهم ويبدو انه اخذها من الحلقات الداخلية لرجال الدعوة، اذ استقي الكثير منها من رؤساء الدعوة من الدعاة البارزين فيها. والظاهر ان اعتباره عن نشاط ابي مسلم في خراسان وعن نشاط المسودة العسكري بقيادة قحطبة وانتصاراتهم، تعتمد علي هذه المصادر وعلي اناس متصلين بالحلقة العباسية مثل ابي اسحق بن الفضل الهاشمي كما اخذ بعض معلوماته عن افراد من لاسرة العباسية مثل عيسي بن عبد الله وعيسي بن موسي وعيسي بن علي وابراهيم بن المهدي والرشيد.

وأعطي المؤلف صورة داخلية لطبيعة الدعوة واحاديثها، وكشف عن جذور الغلو فيها، مما لايناسب العباسيين بعد مجيئهم للحكم، وهذا يجعل بعض محتويات الكتاب اقرب الي الوثيقة السرية منها الي كتاب للجمهور.

وكل هذا يشير الي صلة خاصة للمؤلف بالعباسيين وباتباعهم، ومصادر الكتاب كما يقول الاستاذ الدكتور الدوري تجعلنا نحدد زمن تأليفه باواسط القرن الثالث الهجري. ويميل الي نسبة الكتاب الي محمد بن صالح بن مهران [ابن النطاح] توفي سنة ٢٥٢هـ/٨٦٨م ومع ان الاشارات الي ابن النطاح تجعله اول من صنف كتابا في اخبار الدولة.

ويقول الدكتور الدوري ويدلعنا الي هذا الافتراض عدة أمور: فابن النعمان مولي جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس، وهذا الولاء يجعله علي صلة وثيقة باخبار العباسيين وكان ابن النطاح، اخباريا ناسبا رواية للسنن، وهي عين للمؤهلات التي يكشف عنها اسلوب "اخبار العباس وولده" وكان من بين من روي عنهم ابن النطاح الواقدي والمدائني.

هذا ان الي عنوان كتابه هو "اخبار الدولة العباسية"

اما محتويات الكتاب فهي علي النسق التالي:

- يبدأ بالكلام عن موت العباس بن عبد المطلب
- ثم اخبار عبد الله بن العباس.
- اخبار علي بن عبد الله بن العباس.
- اخبار محمد بن علي بن عبد الله بن العباس.
- اخبار ابراهيم بن محمد بن علي الامام
- خبر ابي مسلم وابتداء امره
- مسير قحطبة بن شبيب بالجنود الي العراق
- ظهور ابي سلمة بالكوفة.

وينهي اخباره بوصول وصية ابراهيم الامام الي اخيه ابي العباس.

وقد قام بتحقيق الكتاب الدكتور عبد العزيز الدوري والدكتور عبد الجبار المطلبي وطبع في بيروت، سني ١٩٧١.

كتـب التاريـخ العـام

واول الكتب التي نشير اليها هو كتاب تاريخ خليفة بن خياط المتوفي في سنة ٢٤٠هـ/٨٥٤م وخليفة من قدامي المؤرخين الثقات، وصاحب اقدم رواية تاريخية وصلت الينا، وهو يسبق تاريخ الطبري باكثر من نصف قرن.

وهو خليفة بن خياط العصفري البصري، المعروف بشباب. تلقي العلم علي علماء بلدة البصرة، والبصرة كانت في القرن الثالث الهجري مركزا هاما من مراكز اشعاع الثقافة العربية الاسلامية الخاصة في علوم اللغة والحديث والسيرة والتاريخ.

في هذا البلد العثماني الهوي، شب خليفة ونشأ وتعلم وهو

ينتمي الي أسرة لها مكانتها العلمية نجده اسمه خليفة ايضا كان من ثقات رجال الحديث عند البخاري وابن ابي حاتم الرازي صاحب كتاب "الجرح والتعديل" وقد اخذ خليفة العلم عن عدد من الشيوخ في مقدمتهم يزيد بن زريع، ويزيد هذا من ثقات اهل البصرة مع ميول عثمانية كما وصفه ابن سعد في طبقاته. كما سمع ايضا من سفيان ب عينية وابن مهدي وهشام الكلبي وعلي بن محمد المدائني واخرين. ومات في سنة ٢٤٠هـ ٨٥٤ م عن عمر يناهز الثمانيين عاما.

مؤلفاتـــه

صنف خليفة حسبما ذكر ابن النديم في الفهرست اربعة كتب، كتاب التاريخ، وكتاب طبقات القراء "وكتاب" تاريخ الزمني والمرضي والعميان وكتاب اجزاء القرآن واعشاره واسباعه واياته.

ويكاد يجمع علماء الحديث علي ان خليفة كان من الثقات وقد وثقه البخاري في تاريخه الكبير عندما ترجم له وكذلك فعل الذهبي في "تذكر الحفاظ" و"ميزان الاعتدال في نقد الرجال "وسير اعلام النبلاء".

منهجــه في الكتابــة

وكتاب "تاريخ ابن خياط" يؤرخ لفترة من تاريخ الاسلام تمتد حتي سنة ٢٣٢هـ والكتاب مرتب علي طريقة السلويات وخليفة مؤرخ محدث فهو يعتني بسلسلة الاسناد أي الرواة الذين رووا الخبرپل يذهب في ذلك الي اللذين شهدوا الاحداث.

وقد بدأ تاريخه بالكلام عن بداية التاريخ: ثم ثني ذلك بالحديث عن مولد رسول الله صلي الله عليه وسلم، ثم اخذ يورد اخبار كل سنة علي حدة ابتداء من السنة الاولي للهجرة ذاكرا اهم ماجري فيها من احداث حتي اذا انتهي من ذلك ذكر من ادركتهم الوفاة في تلك السنة، ومن اقام الموسم. وبعد ان ينتهي من الكلام عن عهد خليفة من الخلفاء يتبع ذلك يذكر من ولوا كل اقليم من اقاليم الدولة علي عهده ثم من تقلد خطة القضاء في الامصار وخاصة في المدينة ومكة والبصرة والكوفة، وقد يورد احيانا من تقلدوه في الشام وبعد ذلك يذكر من تولوا حجابه الخليفة والشرط والكتابة وبيوت المال، والخاتم، والبريد، ثم يورد اسماء الرسل [أي السفراء] وهي معلومات ثمينة قيمة لدراسة تاريخ النظام الاداري والقضائي في تلك الفترة.

ويحتوي الكتاب علي احصاءات لاتوجد. عن غيره لان منهج خليفةانه بعد الحديث عن كل وقعةهامة مثل : بدر واحد، والحرة وغيرها، يورد اسماء من استشهدوا في تلك المواقع.

وقد روي خليفة عن ائمة الرواة الثقات كالوليد بن هشام، ويزيد بن زريع والمدائني.

ومن الجدير بالملاحظة ان خليفة قد اهتم اهتماما خاصا بالاحداث الخارجية في دولة الاسلام وفي تاريخه نجد تاريخ لوليات كثير من ائمة الحديث ورجال الفكر والادارة والحكم.

وبعد خليفة يأتي الطبري [ابو جعفر محمد بن جرير، ولد في اواخر سنة ٢٢٤هـ/٨٣٩ م في مدينة امل وهي في بلاد طبرستان ومن هنا نسبته الطبري وتوفي في ٢٦ شوال سنة ٣١٠ هـ: ١٦ فبراير ٩٢٣م] وللطبري عدد من المؤلفات يهمنا منها كتاب "تاريخ الرسل والملوك" او تاريخ الامم والملوك" ولما كان الطبري من كبار الفقهاء المشتغلين بالقران والسنة حتي ان اشهر مؤلفاته هو "تفسير الطبري" فاننا نلاحظ انه ينهج نهج المحدثين في كتابته للتاريخ فهو يورد الروايات التاريخية مسبوقة باسنادها الذي يرجع في بعض الأحيان الي شهود عيان هنا الي جانب

انه يعطي للحدث الواحد اكثر من رواية وهو نزيه يظهر بمظهر المحايد الذي لايرجح رواية علي غيرها. هذا ولقد سار الطبري بدوره في تاريخه علي طريقة الحوليات اي السنوات.

وبعد كتاب الطبري نذكر كتاب ابن الاثير المعروف باسم "الكامل في التاريخ" وابن الاثير متوفي سنة ٦٣٠هـ. يلاحظ ان ابن الاثير ينقل كتاب الطبري فيلخصه فيما يتعلق بالقرون الثلاثة الاولي ثم انه يضيف اليه ويكمله حتي سنة ٦٢٨هـ. ورغم انه يلخص الطبري الا انه يعتبر مرجعا اساسياً حتي بالنسبة للفترة القديمة من صدر الاسلام وذلك بفضل مايظهره ابن الاثير من المقدرة لعي النقد والتمحيص واكمال الموضوعات التي وجدها ناقصة عند الطبري ولذلك يعتبر كتاب ابن الاثير مهما ليس بالنسبة للتاريخ الاسلامي العام بل بالنسبة لتاريخ الاقطار الاسلامية المختلفة سواء كانت في اقصي الشرق او في اقصي الغرب.

بعد ذلك ننتقل الي الكلام عن كتاب "العبروديوان المبتدأ والخبر في اخبار ملوك العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر "لابن خلدون وابن خلدون ولد في تونس في سنة ٧٣٢هـ ودرس علي عدد من العلماء التونسيين والمغاربة وعمل في خدمة ملوك الحفصيين في تونس وكذلك بني عبد الواد

في تلمسان وبني مرين في فاس وبني الأحمر النصريين في غرناطة ثم رحل الي المشرق ووصل الي الاسكندرية ومنها الي مصر سنة ٧٨٤/١٧٨٣م [في سلطنة الظاهر] وجلس للتدريس في الجامع الأزهر وولي قضاء المالكية بمصر سنة ٧٨٦هـ ثم عزل عن القضاء وتوجه لقاء فريضة الحج سنة ٧٩٠ هـ وبعد ان قضي فرصة رجع الي القاهرة وقضي بقيه ايامه عاكفا علي قراءة العلم وتدريسه ومات في القاهرة في ٢٥ رمضان سنة ٨٠٨/١٧ مارس ١٤٠٦م.

ويعتبر كتاب ابن خلدون من أهم المصادر وذلك لسببين المعروفين اللذين يختص بهما ابن خلدون واولهما ملكة المؤرخ العبقري الموهوب التي جعلته يفهم التاريخ بمعناه الحقيقي الشامل الذي يتلخص في ان الحدث التاريخي اكبر من أن يكون حدثا سياسياً فقط بل هو نتيجة لتفاعل عدد من العوامل السياسية والجغرافيا والاقتصادية والاجتماعية وكذلك النفيسة ايضا وهذا مادعا ابن خلدون الي الكلام عن كل هذه الفنون في المقدمة حتي جعل مفهوم التاريخ اشبه مايكون بمفهوم الحضارة اي جعله تاريخا للامم والشعوب بدلا من سير الملوك والامراء او طبقات الاعيان وهذا ماسماه البعض "فلسفة التاريخ" وهو في الحقيقة ليس الا التاريخ كما ينبغي ان يكون.

كذلك لابن خلدون نظريات في التاريخ من هذه النظريات: نظرية ان الدولة مثل الفرد تمر بعدة مراحل: أولها مرحلة النشأة والطفولة ثم مرحلة الشباب والفتوة والقوة واخيرا تأتي مرحلة الشيوخة التي يعقبها انهيار الدولة . وهو ينص علي نظرية اخري في قيام الدولة هي نظرية العصبية فهو يري ان الدولة ترتكز علي عصبية والعصبية عند ابن خلدون هي تلك الروح التي تدفع الجماعة من الافراد او اعضاء القبيلة نحو الالتفاف حول زعيمهم لاخضاع الجماعات او القبائل الآخري لتكوين الدولة . وتظل الدولة قوية متماسكة طالما ظلت عصبيتها قوية متماسكة فاذا ماضعفت العصبية وانحلت الدولة لكي تقوم عصبية جديدة .بانشاء دولة جديدة .ويظهر نبوغ ابن خلدون في هذه النظريات التي قننها لقيام الدول الي جانب انه نص علي مسألة المنهج التاريخي الذي ينبني علي النقد فهو يطالب المؤرخ بان يعرض الروايات المختلفة للنقد ويقابل بينها وذلك علي اساس من العقل والمنطق وبناء علي هذا النقد فهو يرجح الرواية الصحيحة علي الرواية الموضوعة ولهذا السبب نجد انه يعطي نماذج لها يمكن ان يلحق بالتاريخ من الوضع والاصطناع ويعطي امثلة للروايات الاسطورية التي تحيط بتاريخ بني اسرائيل كما انه يحاول ان ينقض الروايات المختلفة التي نسجت حول الامويين مثل معاوية او عبد الملك بن مروان كذلك الروايات المشبوهة التي نسجب حول هارون الرشيد واخته العباسة -

ونلاحظ ان ابن خلدون لم يستطيع ان يطبق قواعد النقد هذه عندما بدأ يكتب تاريخه فخرج تاريخه اشبه مايكون بالتواريخ التقليدية السابقة، هذا ولو انه أظهر موهبة في النقد وترجيح الروايات في بعض الاحيان.

وبعد ذلك ننتقل الي الكلام عن المسعودي المتوفي سني ٣٤٦هـ في مدينة فسطاط مصر ويعرف كتابه باسم "مروج الذهب ومعادن الجوهر" ويعتبر هذا الكتاب من المصادر الهامة ليس للقدمه فحسب ولكثر اطلاع المسعودي وسعه معلوماته التي اتت الي جانب الدراسة والقراءة لتجوله في مختلف البلدان اذ طوف المسعودي خلال اربعين سنة بفارس والهند والصين وسواحل شرق افريقيا والشام وذلك قبل ان يقدم الي مصر حيث توفي بها. ويفضل اسفاره ودقة ملاحظاته جمع اخباراً عن البلدان والشعوب والمذاهب والعادات والتقاليد لانجدها في غيره من كتب المؤرخين. ولقد تنبه المسعودي الي اهمية عامل البيئة في مسيرة الاحداث السياسية وهو لهذا السبب يهتم بالجغرافية الطبيعية والبشرية في مقدمة الكتاب وهو بذلك يعتبر النموذج الذي حذا حذوه ابن خلدون ومع ان المسعودي يتبع في كتابه طريقة الحوليات الا انه يمزج بينها وبين الترتيب الموضوعي فهو يفرد بابا لكل دولة ويخصص فصلا لكل امير او حادثة فلا يفقد الموضوع وحدته. ويهتم بحياة الناس

وخاصة افراد الطبقة العليا في المجتمع: من الخلفاء وكبار رجال الدولة ومشاهير العلماء والشعراء كما لايهمل القصص الشعبي ولا الروايات الطريفة، وهو لكل ذلك يعطي نوعا من الحياة والطرافة لتاريخه وان كان المسعودي يخرج بمهجه هذا علي اصول البحث وتحري الحقيقة. ولهذا السبب فرغم مايحتويه الكتاب من معلومات تاريخية قيمة الا انه ينبغي ان تؤخذ هذه المعلومات بشئ من الحذر وان تعرض اللقواعد النقد.

ولكثرة المعلومات الجغرافية التي يحويها الكتاب نجد ان بعض الباحثين يضعونه بين كتب المكتبة الجغرافية العربية - هذا لوان للمسعودي كتابا خاصا في الجغرافيا عنوانه كتاب "التنبيه والاشراف" هذا كما يمكن الاشارة الي انه بسبب كثرة المعلومات الادبية واهتمام المسعودي بالشعر يمكن ان يوضع الكتاب بين المؤلفات الادبية والحقيقية ان الكتاب يعتبر موسوعة كبري تعالج الكثير من العلوم والفنون الي جانب التاريخ والجغرافيا.

هذا ويمكن ان نضيف الي قائمة كتب التاريخ العام هذه مؤلفات المؤرخين المصريين من امثال المقريزي المتوفي في سنة ٨٤٥هـ والذي كان تلميذا لابن خلدون. وابن تغري بردي صاحب النجوم الزاهري المتوفي ٨٧٣هـ والسيوطي المتوفي في اوائل القرن

العاشر الهجري صاحب كتاب [تاريخ الخلفاء] هذا الي جانب اصحاب الموسوعات التاريخية والجغرافية والأدبية مثل القلقشندي صاحب كتاب صبح الاعشي في صناعة الانشاء " والنويري صاحب كتاب " نهاية الارب في فنون الأدب" وكذلك كتاب العمري المعروف باسم مسالك الابصار في ممالك الامصار" .

كتب الجغرافيا العربية

وبعد هذا ننتقل الي لون جديد من الكتب هو مجموعة كتب الجغرافيا العربية وكتب الجغرافية مهمة بالنسبة لدراسة الموضوع وذلك للصلة الوثيقة بين التاريخ والجغرافية فالجغرافية العربية كانت وثيقة الصلة بالتاريخ وبمرور الوقت انفصلت عنه انفصالا غير تام علي كل حال فاحتفظت كتب الجغرافية بالكثير من المعلومات التاريخية كما ظل الجغرافيون العرب يكتبون في التاريخ والجغرافية جميعا والمثل لذلك اليعقوبي وابو الفدا .

والجغرافية العربية تنقسم الي نوعين· اولهما الجغرافيا الرياضية وتضم فرعين هما علم الأطوال والعروض، وعلم تقويم البلدان·

وثانيهما الجغرافية الادبية، اوالوصفية وتشتمل علي فرعين هما : علم المسالك والممالك وعلم عجائب البلدان.

وأهمية كتب الجغرافية في أنها تكمل كتب التاريخ التي اهتمت بالاحداث السياسية بشكل خاص - من حيث اهتمامها الي جانب وصف الاحوال الطبيعية والبيئية بامدادنا بمعلومات ذات طبيعة متنوعة منها الاقتصادية والاجتماعية ومايختص بعادات الشعوب وتقاليدها مما لايستغني عنه المؤرخ المحدث ولقد عرف الاوربيون ما للمكتبة الجغرافية من اهمية فاعتنوا بنشرها في اوروبا منذ اكثر من مائة عام تحت اسم "المكتبة الجغرافية العبية" وقد كان لمستشرق الهولندي دجويه مجهوده الذي لايغفل في نشر هذه المجموعة وتحتوي هذه المكتبة علي كتب ابن خرداذبة واليعقوبي وابن الفقيه والاصطخري والمسعودي والمقدسي.

ثم يأتي بعد ذلك كتب الطبقات وهي نوعين كتب طبقات عامة مثل كتاب ابن خلكان المتوفي في سنة ٦٨١ هـ المعروف باسم وفيات الاعيان وابناء ابناء الزمان وهو من كتب الطبقات العامة وهناك ايضا كتاب فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي وغيرها وكتب طبقات عامة اقليميا خاصة موضوعيا مثل : طبقات المالكية والشافعية وطبقات الصوفية وطبقات المحدثين وطبقات الاطباء

والحكماء واللغويين والنحويين والقضاء والفقهاء وكتب خاصة اقليميا .

وميزة هذه الكتب تتلخص في انها تهتم بالتاريخ الاجتماعي والحضاري اكبر من اهتمامها بالتاريخ السياسي.

ثم يأتي بعد ذلك مجموعة الكتب التي تعالج تاريخ الاديان. وهذا اللون من الكتب تتناول بصفة خاصة المذاهب الاسلامية . وفي مقدمة هذه الكتب كتاب ابن حزم الاندلسي القرطبي [بابو محمد علي ابن حزم المتوفي سنة ٤٥٦هـ] المعروف بكتاب "الفصل في الملل والاهواء والنحل" وكتاب "الملل والنحل" للشهر ستاني [ابو الفتح عبد الكريم الشهرستاني المتوفي سنة ٤٥٨ هـ] وكتاب الفرق بين الفرق "للبغدادي" .

هذه الكتب تتكلم عن الاسلام وعن فرقة المختلفة من: الشيعة والخوارج والمرجلة والقدرية والمعتزلة والسنة وطوائف كل فرقة منها. ولما كانت دولة الاسلام تحتوي علي جماعات غير اسلامية تعيش داخل الدولة مثل اليهود والنصاري والمجوس والصائبة وغيرهم وجبت معرفة اصول دينهم لتحدد الدولة موقفها منهم ولهذا، تكلم هؤلاء الكتاب عن نحلهم ومذاهبهم.

ننتقل بعد ذلك الي الكلام عن مجموعة الكتب التي تتناول تاريخ النظم والادارة، واصول الحكم. وأشهرها كتاب "الاحكام السلطانية والولايات الدينية" للماوردي [توفي ببغداد في سنة ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م. ولقد كتب الماوردي في تفسير القران والفقه والنحو الي جانب ماكتبه في اصول الحكم وكان من المجتهدين.

فمن بين ابواب الكتاب العشرين في :الامامة والوزارة والقضاء والجهاد وتنظيم الاموال وولاية الاقاليم الخ.، يعتبر الباب الخاص في عقد الامامة [او الخلافة] وهو اولها اهم الموضوعات التي عالجها الماوردي وهو يستند في معالجته للتقنين للخلافة [التي يراها عقد مراضاه واختيار] الي القرآن والسنة والاجماع الي جانب السوابق التاريخية المعتبرة.

الفصل الثانى

عظمة الدولة الأموية وبداية الأفوال

عظمة الدولة الأموية وبداية الأفول

بلغت الدولة الأموية ذروة مجدها وعظمتها في نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني للهجرة- وهو القرن الثامن الميلادي- ففي هذا القرن وضعت جميع النظم الاسلامية وبدأت كافة الاتجاهات الفكرية، حينما اخذت الافكار تتجاوز حدودها الاقليمية الي افاق أوسع. وهو عصر تفتح الروح الاسلامية وسط ثراء مادي غزير، وهي كذلك الفترة التي مهدت بعد سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م للدول العباسية أن تكون مركزا مهما للحياة[١].

وهناك خلفاء عظام مثل: الوليد وسليمان بن عبد الملك وعمر بن عبدالعزيز تسيدوا أكبر دولة اسلامية. وفي الحقيقة أن الفضل في اتساع الدولة انما يرجع الي كبار العمال من رجال الحرب والادارة الذين خدموا هؤلاء الخلفاء. وأغلب الظن أن السبب في عدم معرفتنا باعمال خلفاء الامويين الشخصية انما يرجع الي أن ماكتب عنهم أنما كتب في العصر العباسي. ولما كان العباسيون يكنون للامويين حقدا كبيرا كان من الطبيعي ان يصور الكتاب خلفاء الامويين تصويرا قاتما فهم يصفون الخليفة الوليد بأنه مستبد ظالم، وسليمان شره أكول[٢]. ولم يسلم من النقد من الخلفاء الامويين

---

(١) نفس المرجع السابق، ص ٢٦.

(٢) انظر، المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تنقيح وتصحيح شارل بلا (من طبعة بربية دي مينار وبافية دي كرتاي)، منشورات الجامعة اللبنانية قسم الدراسات التاريخية، بيروت ١٩٧٣، ج٤، ص ١٣٠.

سوي الخيفة الورع التقي عمر بن عبد العزيز الذي يعتبره الكتاب خامس الخلفاء الراشدين· ورغم الاعتراف بمكانة عمر بن عبد العزيز الذي يرجع اليه الفضل في منع سب الأمام علي رضي الله عنه من علي المنابر كما أنه أعترف له بفضله عندما نظر الي الاسلام نظرة تختلف عن نظرة سابقية فهو يري أن الدولة عندما أتسعت كانت تهدف الي نشر الاسلام قبل الحصول علي المكاسب المادية وأعلن رأيه هذا عندما تضاربت السياسة الدينية مع السياسة الادارية وطولب الداخلون الجدد في الاسلام بدفع الجزية مثلهم في ذلك مثل أهل الذمة [غير المسلمين من أهل الكتاب] فأمر عمر برفع الجزية عمن أسلم ولهذا يعتبر عمر نموذجا للورع والعدل والحكمة· ورغم ذلك نجد أن بعض كتاب العباسيين ينالون منه كما نالوا من أقاربه· وينسب الي المنصور العباسي انه قال عندما ذكر في مجلسه "انه أعور وسط عميان[١]·

وبناء علي ذلك نلاحظ أن الفضل في الأعمال السياسية والعسكرية التي حققها الأسلام علي عهد الدولة الاموية انما يرجع الي كبار رجال الدولة مثل الحجاج بن يوسف الثقفي الذي اشتهر بعنفه وشدته وبطشه حتي أنه غرس كراهية أهل الشام في قلوب أهل العراق ولكن يرجع الفضل الي قسوته في الحفاظ علي وحدة الدولة·

ونذكر أيضا من الرجال العظام قتيبة بن مسلم فاتح بلاد ماوراء

---

(١) نفس المصدر والصفحة.

النهر والذي وسع حدود الأسلام حتي مغارب السند، ثم موسي بن نصير فاتح الاندلس.

امتد سلطان الدولة في المشرق والمغرب ولكنها لم تستطع أن تفتح القسطنطينية ففشلت المحاولات التي بذلها معاوية بن ابي سفيان وخلفائه مثل الوليد وسليمان.

أما فيما يتعلق بالسياسة الداخلية فانه في هذه الفترة التي شهدت فيها الدولة اقصي أتساعها حدثت تغييرات مهمة في نظمها الداخلية وكذلك بدأ ظهور العمارات الأسلامية الفخمة التي نفخر ونعتز بها.

كذلك ينبغي الأشارة إلي المجهودات العظيمة التي قام بها الخليفة عبد الملك بن مروان من أجل تعريب الدواوين أي تعريب الادارة وعمل علي تغلغل هذا التعريب بين أهل الامصار. وعمل التعريب وانتشار الاسلام علي تكسير الحواجز التي كانت موجودة بين العرب وبين أهل البلاد وكان ذلك تمهيدا لقيام المجتمع العربي الاسلامي الموحد. واستمر في هذه السياسة التي بداها عبد الملك ابنة الوليد وكذلك عمر بن عبد العزيز ويرجع الفضل في انشاء المسجد الجامع في دمشق الي الوليد ابن عبد الملك الذي استجلب لبناء هذا الجامع الفنانين من بلاد الروم وكذلك من مصر وانفق عليه

بسخاء حتي اصبح مفخرة من مفاخر الاسلام ونموذجا من نماذج الفن الاسلامي.

وبعد أن بلغت الدولة من الناحية العسكرية اقصي اتساعها بدأ عصر التوقف العسكري والاقليمي وكان هذا يعني بداية عصر الافول والاضمحلال.

أما في الشرق فتحركت المسيحية ايضا فانتهي حصار القسطنطينية الاخير بالفشل، ثم ان الامبراطورية البيزنطية خرجت من فترة الضعف التي كانت تمر بها وأعتلي عرشها امبراطور قوي هوليو الثالث الايسوري الذي قام بحملات عسكرية في آسيا الصغري وكذلك في مناطق القوقاز. وفي سنة ١٢٢هـ تذكر الحوليات ان ابن الخليفة هشام بن عبد الملك الذي كان قد توغل في الأراضي البيزنطية لقي هزيمة مروعة إذ تشتتت مقدمة جيشه وقضت هذه الكارثة علي حلم الامويين في القضاء علي بيزنطة. هذا فيما يتعلق بتوقف الفتح العسكري.

أما فيما يتعلق بالأحوال الداخلية في الدولة فأنها لم تكن بأحسن حالا من التوسع العسكري. ففي كثير من الاقاليم ظهرت ميول واتجاهات انفصالية. أما في داخل الدولة فكان من أهم القلاقل التي اصابت الدولة ظهور الخصومات والنزاعات الدينية. فمنذ البداية

ظهرت الحركة الخارجية في مركز الدولة ولكن بفضل جهود الحجاج بن يوسف الثقفي استطاعت الدولة القضاء علي الخوارج ولكن هذا لم يكن يعني القضاء التام علي الحركة اذ انها ظهرت ونجحت في المشرق وفي المغرب.

وعلي اواخر أيام الأمويين بدأ الخوارج يثيرون الاضطراب من جديد في مركز الدولة منتهزين ضعف الحكومة. ففي سنة ١٢٧هـ/٧٤٥م، حشد الخوارج قواهم في منطقة الكوفة برياسة ضحاك بن قيس الشيباني وكذلك فعل الخوارج الاباضية في جزيرة العرب فجمعوا قواهم برياسة ابو حمزة الخارجي[١].

الي جانب المذهب الخارجي كان الشيعة مصدر قلاقل ايضا للدولة خاصة في العراق فقد استدعوا احد احفاد علي بن ابي طالب رضي الله عنه وهو زيد بن علي زين العابدين وذلك علي أيام خلافة هشام بن عبد الملك واعلنوا امامته. وباءت جهود الخلافة في دمشق بالفشل حوالي العام في القضاء علي ثورة العراق. ولكن أنتهي الأمر بالقضاء علي بعض المتآمرين، وعرف مكان زيد وتتبعته قوات الخلافة وتمكنوا من رمية بسهم فأصاب جانب جبهته اليسري فثبت في دماغه

(١) أنظر ابن الاثير، الكامل في التاريخ، تحقيق عبد الوهاب النجار، طبعة مصر، سنة ١٣٥٧هـ، ج٤، أحداث سنة ١٢٧، ص٢٨٩.
ذكر خروج الضحاك محكما أحداث سنة ١٢٨، ص ٢٩٥ - ٢٩٦. ذكر قتل الضحاك الخارجي ص ٢٩٧ ذكر خبر أبي حمزة الخارجي مع طالب الحق.

ومات زيد في صفر من سنة ١٢٢هـ / يناير ٧٤٠م.

وبذلك خضبت يدي بني امية من جديد بدم حفدة الرسول صلي الله عليه وسلم. بل ولم يحترموا جثمان زيد وكان اتباعه قد دفنوه في ساقية وأجروا عليه الماء خوفا من التمثيل به، ولكن القبر نبش واستخرج منه وقطع رأسه وصلب ثم امر به فحرق بالنار[1].

والي جانب النزاعات الدينية هذه كانت الخصومات والنزاعات بين القبائل العربية نقطة من نقاط الضعف التي أدت الي انهيار الدولة دولة الأمويين ومن النزاعات بين هذه القبائل العربية ذلك النزاع الذي حدث في سنة ٦٥هـ/٦٨٤م بين اليمنية والقيسية "المضرية" والذي انتهي بانتصار اليمنية في وقعة "مرج راهط". وعمل هذا النصر علي زيادة اشتعال نار الفرقة بين العصبيتين المتنافستين، وكان علي الخليفة الأموي أن يسوس كل من الفريقين او أن يقف الي جانب أحدهما حسب الحال.

وكان أعظم عمال الوليد بن عبد الملك هم: الحجاج بن يوسف الثقفي، وقتيبة بن مسلم الباهلي، فاتح ماوراء النهر وهما من العصبية القيسية. وكان هذا يعني ان الخليفة الوليد بن عبد الملك

---

(1) ابن الاثير، ج٤، ص ٢٤٠-٢٤٣ أحداث سنة ١٢١هـ (ذكر ظهور زين بن علي بن الحسين أحداث سنة ١٢٢ هـ، ص ٢٤٥-٢٤٨ (ذكر مقتل زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب).

كان يتبع سياسة موالاه القيسية، وعندما خلفه سليمان نهج سياسة مضادة لهذه السياسة فحابي اليمنية وعلي رأسهم يزيد بن المهلب بن ابي صفرة وعصبيته.

وعندما ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز حاول أن يقوم الموقف وان يتبع سياسة محايدة تهدف الي التوفيق بين العصبيين ولكن سياسته هذه لم تطل لأمد طويل اذ أنه سرعان ما اعتمد يزيد بن عبد الملك اعتمادا كليا علي القيسية ثم ان هشام بن عبد الملك ذهب الي عكس هذه السياسة ثم عاد اليها ونتج عن ذلك ان اليمنية ثأروا لأنفسهم من الخليفة الوليد الثاني فتآمروا علي خلعه وكانت هذه الثورة سببا في عزله بلاد الشام جميعا.

والي جانب العصبية القبلية نذكر حدثا له مغزاة وهذا الحدث يتمثل في هجرة خلفاء الامويين بعيدا عن دمشق وسكناهم الصحراء ويشبه بعض الكتاب هذا الحدث بالانفصال الروحي بين الامويين .وبين عصبيتهم من أهل الشام. فقد شعر اخر خلفاء الأمويين بعدم اطمئنانهم في بلاد الشام وفي حاضرتهم دمشق فخرجوا الي البادية وكان أول من فعل ذلك هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك الذي كان يقيم في بادية الاردن.

ومن أهم القصور الصحراوية التي بناها الامويين قصر "الرصافة" في بادية الشام.

وقد استمر الامويون في سكني الصحراء. ويعدد الاثريون بقايا خمسة وثلاثين قصرا من هذه القصور. وكان الخليفة يتمتع في قصوره الصحراوية هذه برياضة الصيد. كما يعتبر العصر الأموي عصر نهضة بالنسبة للشعر العربي، واشتهر كثير من امراء الامويين بقول الشعر كما أنهم احاطوا أنفسهم بالشعراء. وشاعر الامويين كما نعرف هو الشاعر النصراني الاخطل والي جانب ازدهار الادب والشعر لم تحظ العلوم والفلسفة الا بحظ ضئيل من عناية أمراء الامويين. ولكن ينبغي الاشارة الي أن بداية الجدل في الفلسفة الاسلامية ظهر في هذه الفترة وبدأ الكلام في مسألة القضاء والقدر وظهور الفرقة التي عرفت باسم القدرية والتي ستكون نواه لفرقة المتكلمين المعروفة باسم المعتزلة.

وحاول هشام بن عبد الملك أن يوقف تضخم هذه الفرقة، وسار علي نفس السياسة الوليد الثاني الذي راح ضحية معارضيه القدرية الذين ناصروا اعداءه من اليمنية واقاموا الخليفة يزيد الثالث. ولكن هذا الاختيار لم يرض جميع الناس فسرت الاضطرابات في كل ارجاء الشام، كما ظهر للخليفة الجديد منافسون في العراق وتوفي يزيد بعد فترة قصيرة لم تزد علي خمسة أشهر، وعجز اخوه ابراهيم عن تقويم الموقف، وتمكن منافس الخليفة في العراق، مروان بن محمد، من التقدم نحو الشام واستطاع أن يكسب القيسية إلي جانبه، وفي صفر عام ١٢٧هـ/٧٤٥م استطاع أن يستولي علي دمشق.

مروان بن محمد اخر خلفاء الأمويين

وهكذا تمكن مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بن ابي العاص بن أمية القرشي الأموي من انتزاع الخلافة من ابناء عمومته. وكان يلقب الحمار لصبره في الحروب.

والظاهر ان مروان كان يحن الي العراق وعلي ذلك فهو ينقل مقر الحكم الي حران[١] في أرض الجزيرة. وكان هذا يعني الانفصال النهائي بين الامويين وبين أهل الشام.

ونشبت الثورات في كل مكان واضطر مروان أن يهدم تحصينات بعض المدن الكبري في بلاد الشام وذلك لكي يخضعها، وسرت الثورات وليس في الشام فقط بل في العراق والحجاز ايضا.

واستطاع مروان أن يقضي علي الثورة التي قام بها سليمان بن هشام بن عبد الملك الذي فر الي حمص ثم الي الكوفة، واضطر مروان الي هدم أسوار حمص[٢] واتبع ذلك بالقضاء علي تحصينات دمشق وبيت المقدس وغيرها من مدن الشام.

---

(١) عن انتقال مروان إلي حران انظر ابن الاثير الكامل، ج٤ ص٢٨٦.

(٢) انظر، ابن الأثير ج٤، ص ٢٨٦ (ذكر انتقاض أهل حمص) ذكر خلاف أهل الغوطة، ص ٢٨١ (ذكر خلاف أهل فلسطين) ص ٢٨٧ ومابعدها (ذكر خلع سليمان بن هشام بن عبد الملك مروان بن محمد).

وكان على مروان بعد ذلك أن يقضي علي القلاقل والاضطرابات التي اثارها الخوارج في العراق وفي بلاد العرب. اذ يفهم من الروايات ان الضحاك ابن قيس الشيباني الخارجي اغتنم فرصة انقسام الامويين بعد مقتل الوليد بين يزيد، ثم بعد أن عزل مروان عبد الله بن عمر عبد العزيز عامل العراق وولي مكانه النضر بن سعيد الحرشي، فلم يسلم ابن عمراليه العمل واعتصم بالحيرة، عندئذ انتهز الضحاك ذلك واقبل الي الكوفة في سنة ١٢٧هـ/٧٤٥م. وزادت جموعه الحقوا الهزيمة بالامويين ثم تقدم الضحاك بعد ذلك الي الموصل واستولي عليها وكورها ومنها اتجه الي نصيبين وكان معه "مايزيد علي مائة الف" وهزم جيشا امويا بقيادة عبدالله بن مروان بن محمد. ثم أن مروان سار اليه وتمكن من الحاق الهزيمة به والقضاء عليه عند ماردين وذلك في سنة ١٢٨هـ[١].

وقام أبو حمزة الخارجي [المختار بن عوف الازدي السلمي البصري] في جزيرة العرب. وكان كما تقول الرواية من الخوارج الاباضية، وكان يفد في كل سنة الي مكة يدعو الناس الي خلاف مروان بن محمد. ثم تحالف مع عبد الله بن يحيي المعروف بطالب الحق في أواخر سنة ١٢٨هـ/٧٤٥م وخرج معه الي حضرموت حيث بايعه علي الخلافة. وفي السنة التالية ١٢٩هـ/٧٤٦م] خرج أبو حمزة الي مكة والمدينة وتمكن من الحاق الهزيمة بالحامية الأموية، ودخل المدينة وأقام بها ثلاثة اشهر ثم سار نحو الشام. ولكن مروان انتخب من عسكره جماعة جدوا المسير اليه وتمكنوا من الحاق

---

(١) انظر ابن الاثير، الكامل ج٤، احداث سنة ١٢٨هـ، ص ٢٩٥-٢٩٦ (ذكر قتل الضحاك الخارجي).

الهزيمة والقضاء عليه في وادي القري. ثم سار عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي، وقائد مروان، الي المدينة ومنها الي اليمن حيث قاتل عبد الله بن يحيي طالب الحق وقتله وحمل رأسه الي مروان بالشام[١].

وقبل هذا الوقت ثار الشيعة في الكوفة في سنة ١٢٧هـ وأقاموا عبدالله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر أماما لهم. ولكن والي العراق الأموي عبد الله بن عمر بن عبد العزيز تمكن من هزيمتهم. وسار المطالب بالخلافة الي فارس وتغلب عليها في سنة ١٢٩هـ/٧٤٦م، وكثرت جموعه، واقام باصفهان ثم اصطخر، ومد نفوذه علي ولايات خورستان وفارس وكرمان وهاجم والي العراق عبد الله بن معاوية لايوائه الخوارج الذين هزمهم مما اضطر ابن معاوية الي الهرب الي خراسان حيث قتله ابي مسلم لانه كان يشكل خطرا عليه[٢].

وهكذا ظهر مروان بن محمد بمظهر الرجل النشيط الكفؤ الجدير القادر علي تقويم الموقف واقرار الأمور وتهدئتها في الدولة. ولكن الخطر علي الدولة كان يكمن في الشرق في بلاد خراسان.

---

(١) ٩ انظر ابن الاثير، الكامل ج٤، ص٢٩٧، ٣٠٧، ٣٠٨، ص٣١٤-٣١٦.

(٢) ابن الاثير، الكامل، ج٤، ص٢٨٤-٢٨٥، ص٣٠٦-٣٠٧.

الفصل الثالث

الدعوة الشيعية العباسية

الدعوة الشيعية العباسية

أحوال خراسان فى أواخر العصر الأموى:

بدأت الولايات الايرانية، في الخروج علي سلطان الخلافة، في بلاد الشام منذ عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز، وذلك عندما ظهرت مشكلة الدخول في الاسلام ودفع الجزية . فكما يفهم من الروايات كان من سياسة عمر بن عبد العزيز رفع الجزية عمن أسلم، ونجح عماله في نشر الاسلام. ولكن نقص الموارد المالية دفع الدولة الي اتخاذ اجراءات شديدة كانت ترمي الي اثبات الدخول في الاسلام ثبوتا قاطعا، كما أنها لم تعف الكثيرين من الداخلين في الاسلام من دفع الجزية وبصفة خاصة علي عهد والي خراسان هشام بن عبد الملك اشرس بن عبد الله السلمي [١٠٩-١١١هـ/ ٧٢٧-٧٢٨م][١].

---

(١) انظر عن ولاية اشرس، ابن الاثير، الكامل، ج٤، ص٢٠٠، ص٢٠٢-٢٠٣، ص٢٠٦، ص٢١٨-٢١٩، حيث يقول النص (احداث سنة ١١٠هـ): في هذه السنة ارسل اشرس الي اهل سمرقند وماوراء النهر يدعوهم الي الاسلام علي أن توضع عنهم الجزية وارسل في ذلك ابا الصيداء صالح بن طريف مولي بني ضبة والربيع بن عمران التميمي . فقال ابو الصيداء: انما أخرج شريطة أن من أسلم لاتؤخذ منه الجزية وانما خراج خراسان علي رؤوس الرجال.

في ظل هذه الظروف كانت الفرصة مواتية للقيام حركة مناهضة للامويين رغم ان رواية الطبري تذكر ان الدعوة الشيعية العباسية بدأت في خراسان منذ ايام خلافة عمر بن عبد العزيز في سنة مائة للهجرة[١].

= فقال اشرس : نعم ..فشخص الي سمرقند وعليها الحسن بن العمر طه الكندي علي حربها واخراجها فدعا ابو الصيداء اهل سمرقند ومن حولها الي الاسلام علي ان توضع عنهم الجزية فسارع الناس فكتب الي اشرس ان الخراج قد انكسر، فكتب اشرس الي ابن العمر طه ان في الخراج قوة للمسلمين وقد بلغني ان اهل الصغد واشباههم لم يسلموا رغبة انما اسلموا تعوذا من الجزية فانظر من اختتن واقام الفرائض وحسن السلامة وقرا سورة من القرآن فارفع خراجه، ثم عزل اشرس ابن العمر طه عن الخراج وصيره الي هاني بن هاني فمنعهم ابو الصيدا من اخذ الجزية ممن اسلم فكتب هاني الي اشرس: ان الناس قد اسلموا وبنوا المساجد فكتب اشرس اليه والي العمال خذوا الخراج ممن كنتم تأخذونه منه فاعادوا الجزية علي من اسلم.

(١) انظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، طبعة دار المعارف بمصر(مجموعة ذخائر العرب) ج٧ احداث سنة ١٠٠هـ، ابن الاثير، الكامل، ج٤ ص ١٥٩ (ذكر ابتداء الدعوة العباسية).

ولكن هناك رواية اخري للطبري نعرف منها أن أول من لبس السواد في خراسان - ودعا الي كتاب الله وسنه نبيه والبيعة للرضا" في سنة ١١٦هـ/٧٣٤ هو الحارث بن سريج. وقبل الحرث عرض والي خراسان عاصم بن عبداله بن يزيد الهلالي أن يكتبا الي هشام يسألانه العمل بكتاب الله وسنه نبيه صلي الله عليه وسلم " فان ابي اجتمعا عليه " وكان رد الخليفة هو خلع عاصم الهلالي وتقليد ولاية خراسان الي اسد بن عبد الله القسري وضمها الي العراق ل"تكون موادها ومعونتها من قريب لتباعد امير المؤمنين وتباطئ غياثه".

وظل اسد في الولاية من سنة ١١٧هـ حتي سنة ١٢١هـ [٧٣٥-٧٣٨م][١] ويعودة اسد من جديد عادت سياسة الشدة والقمع فقبض أسد علي جماعة من دعاة بني العباس فقتل بعضهم، ومثل ببعضهم وحبس بعضهم، وواصل القتال ضد الحارث بن سريج. وبعد موت اسد ولي خراسان نصر بن سيار الكناني الذي كان يعرف "بشيخ مضر في خراسان" و"علي ايامه عمرت خراسان عمارة لم تعمر قبلها وأحسن الولاية والجباية"[٢] فقد عمل نصر علي رفع الجزية التي كان يدفعها المسلمون الي غير المسلمين[٣].

ولكن نصر لم ينجح في ايقاف العداء التقليدي بين العصبية

---

(١) ابن الأثير ، ج٤ ، ص٢٣٨.
(٢) ابن الأثير ، ج٤ ، ص٢٣٩.
(٣) ابن الأثير ، ج٤ ، ص٢٤٣.

المضرية والعصبية اليمنية . ولما كان نصر من العصبية المضرية علي عكس اسد الوالي السابق - فانه حابي المضرية في بداية امرته وقلدهم الأعمال فالنص يقول:

" فلم يستعمل أربع سنين الا مضريا" [١]

ولكنه عاد وحاول نهج سياسة متزنة حتي يتالف اليمنية . ولكن اليمانية ثاروا بزعامة الكرماني [جديع بن علي الازدي]" الذي اظهر الخلاف لنصر بن سيار" في سنة [١٢٦هـ/٧٤٤م] . وكان الكرماني كما تقول الرواية قد احسن الي نصر في ولاية أسد بن عبد الله، ولكن بعد ان تقلد نصر امرة خراسان " عزل الكرماني عن الرياسة وولاها وغيره" [٢] . ولذلك فقد حدثت جفوة بينهما . وقد اغتنم الكرماني الموقف الذي حدث بين نصر ابن سيار وبين خلافة دمشق بعد قتل الوليد الثاني ونستشف من الرواية ان الكرماني كان لايتورع عن سلوك اي السبل من اجل تحقيق أطماعه فالنص يقول: "لو لم يقدر علي السلطان والملك الا بالنصرانية واليهودية لتنصر تهود" [٣] وقد قام نصر باعتقال الكرماني وحبسه ولكن الكرماني تمكن من الهرب من الحبس بمساعدة انصاره والتفت حوله الازد .

اما عن العراق فقد عزل الخليفة يزيد بن الوليد بن عبد الملك

---

١) ابن الاثير، ج٤، ص٢٣٩ .
٢) ابن الاثير، ج٤، ص٢٧٥ .
٣) ابن الاثير، ج٤، ص٢٧٥ .

واليها منصور بن جمهور. وكان نصر بن سيار قد امتنع من تسليم عمله اليه من قبل واستعمل عليهم عبد الله بن عمر بن عبد العزيز. وقد أقر ابن عمر نصرا علي خراسان. فغضب الكرماني لابن جمهور- وكان نصر قد عرض به في خطبته واعلن خلافه لنصر[١].

وفي حاضره الخلافة مات يزيد بن الوليد بن عبد الملك [يزيد الثالث] وحدثت فتن وقلاقل في البلاد الي ان خلص الامر لمروان بن محمد [سنة ١٢٧هـ/٧٤٤م][٢]. فاقر نصر بن سيار علي خراسان وبذلك اضفي عليه صفة الشرعية واعلن نصر بيعته للخليفة مروان[٣]. ولكن الحارث بن سريج الذي كان قد سبق ان حصل له نصر علي الامان من الخليفة يزيد بن الوليد، وعاد من بلاد ماوراء النهر- وكان متحالفا مع الترك الي خراسان حيث استقر من اتباعه في منطقة مرو- رفض مبايعة مروان وخرج علي نصر الذي ارسل اليه "يدعوه الي الجماعة وينهاه عن الفرقة واطماع العدو"[٤]. وطلب الحارث من نصر ان يعمل بكتاب الله وسنة نبيه وان يعزل عماله ويقلد عمالا نزهاء[٥] وتمكن داعيته جهم بن صفوان [رأس الجهمية] من لم الجموع حوله.

---

(١) ابن الاثير، ج٤، ص٢٧٦.

(٢) انظر خليفة بن خياط تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق سهيل زكار منشورات وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي، دمشق ١٩٦٨، ج٢: ص٥٧٨.

(٣) انظر، تاريخ خليفة بن خياط، ج٢، ص٦١٧، ابن الاثير، ج٤، ص٢٩٢.

(٤) ابن [illegible] ج٤، ص٢٩٤.

(٥) ابن [illegible] ج٤، ص٢٩٦.

وفي نفس الوقت كان الكرماني يدعو الي عزل نصر وتعيين والي اخر عوضه، فالتقت مصالحهما واتفقا اي الحارث والكرماني- علي حرب نصر وقد حاقت الهزيمة بالحارث الا ان نصرا اضطر بعد تقدم انصار الكرماني الي الانسحاب الي نيسابور، ودخل الكرماني والحارث مدينة مرو. ولكن وقع الخلاف بينهما وقتل الكرماني الحارث في سنة ١٢٨هـ/٧٤٦م وصفت مرو لليمن[١]. الا أن الكرماني لم يهنأ طويلا بانتصاره، لقد بدأ نصر يجمع قواته لاعادة استخلاص مرو من منافسة الكرماني والقضاء عليه.

ولقد كانت كل هذه الظروف في صالح الدعوة الشيعية العباسية.

الدعوة العباسية:

المعروف ان الدعوة العباسية شيعية الاصل، وأن الدعوة الشيعية التي قامت بأسم ال البيت والتي نادت بأن العلويين هم الورثة الطبيعيون لخلافة النبي وجدت في خراسان ارضا صالحة لبذر بذورها[٢].

والحقيقة ان عرب الفتوح الاولي الذين توغلوا في خراسان التي

---

(١) ابن الاثير، ج٤، ص٢٧٦-٢٩٤.

(٢) د.سعد زغلول، تاريخ الدولة العربية، طبع بيروت سنة ١٩٧٧ ص١٦٥.

تمثل كل الهضبة الايرانية حتي بلاد ماوراء النهر، كانوا منعزلين في هذا المشرق البعيد، مما جعلهم يتميزون عن عرب الامصار الأخري بصفات خاصة. ولم يكن المتزوجين منهم قد عبروا الجبال التي تحد ايران بل كان غير المتزوجين منهم، هم الذين وصلوا الي هناك في جماعات وتزوجوا من نساء أهل البلاد. ويقدر فلهوزن ان الحد الاقصي لعدد هؤلاء كان لايتجاوز المائتي الف رجل أبان الثورة العباسية.

وكان الاندماج تاما بين سكان خراسان حتي يصعب التمييز في كتب التاريخ الا بصعوبة بين العرب الذين انصبغوا بالصبغة الايرانية وبين أهل البلاد الذين دخلوا في الاسلام والذين عرفوا بالموالي وكانوا يحتفظون بذكريات حضارتهم القديمة، وتراث الأسرة السابقة. وكا هؤلاء الموالي يشعرون بالمساواة مع العرب،وسنري انهم عملوا في القرن التالي علي أيام العباسيين علي اثبات تفوقهم الفكري في كل العلوم التي عرفها العرب.

وكان الخراسانية، منذ العصرالأموي، يحاربون في صفوف الجيش الاسلامي للدفاع عن البلاد ضد الترك، وكان جميع أهل الاقليم يعيشون في وئام: من العرب الفاتحين الي الموالي الذين دخلوا في الاسلام بل وأهل البلاد الذين بقوا علي ديانتهم المزدكية. وعلي أيام زياد بن ابيه بدأ تهجير اعداد كبيرة من شيعة العلويين من مدينتي

العراق الكبيرتين: الكوفة والبصرة، الي منطقة بلخ في اقصي خراسان، علي حدود ما وراء النهر. واستمرت سياسة نفي العناصر العلوية الي الشرق علي ايام الحجاج بن يوسف. وفي نفس الوقت اوقفت هجرة أهل الشام الي المشرق حيث لم يكونوا يشعرون بالا من هناك. ولاشك أن العلويين وشيعتهم وجدوالي الاقاليم الايرانية ارضا صالحة لنشر افكارهم عن الأمام المنتظر، وهو المهدي وذلك ان الموالي من الفرس كانوا لايزالون يشعرون بالحاجة الي حاكم مطلق يمتلك من الصفات ماهو فوق مستوي البشر بحيث يكون له التحكم في توزيع الارزاق فهو الذي ينشر السعادة بين الناس أوالتعاسة، وعن طريقه يكون انتشار الخصب في الأرض أوالقحط.

وكانت العلاقات الوثيقة بين خراسان من جهة وبين البصرة والكوفة وهما مركز الاضطراب العلوي من جهة اخري سببا في أن أعتنق كل أهل ايران الآراء المعادلة للدولة العربية التي كان الامويون يحاولون تنظيمها واقرار تراتيبها، والتي رغم تحولها الي ملكية وراثية فانها ظلت محافظة علي طابعها العربي او البدوي.

وهكذا شعر أهل ايران بأنهم اكثر تعلقا بالمذهب العلوي الذي يطالب بأن يكون الأمر في الدولة الاسلامية لال البيت من العلويين والذي خلع علي افراد الأسرة العلوية، شيئا فشيئا صفات فوق مستوي البشر.

كل هذا يفسر النجاح الذي صادفته الدعاية العلوية منذ بدء

تنظيمهافي العراق، وارسال دعاتها الي خراسان· ومنذ مطلع القرن الثاني الهجري كان دعاة الشيعة يظهرون في خراسان، مابين الحين والحين وبشكل منتظم حسب أوامر الكوفة، ودون أن يعرف لحساب من يعملون[١]·

---

(١) انظر: د.سعد زغلول، تاريخ الدولة العربية، طبع بيروت سنة ١٩٧٧ ص١٦٤ - ١٦٥·

عهد أبي هشام الى محمد بن علي:

تكاد تجمع المصادر التاريخية علي ان مطالبة العباسيين بالخلافة وادعائهم لها قد أنتقل اليهم من ابي هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية [احد ابناء علي رضي الله عنه][١]٠ فرواية صاحب "اخبار الدولة العباسية" تقول:" وكان تشيع العباسية أصله من قبل محمد

(١) لقد قالت فرقة الكيسانية من الشيعة بامامة محمد بن الحنفية،وزعمت انه لم يبق بعد الحسن والحسين احد أقرب إلي أمير المؤمنين علي عليه السلام من محمد بن الحنفية لانه كان صاحب راية أبية يوم البصرة فهو أولي الناس بالامامة، كما كان الحسين أولي بها بعد الحسن من ولد الحسن، فمحمد هو الامام بعد الحسين وقالوا ان محمد بن الحنفية هو الامام المهدي، ولما مات بالمدينة في المحرم سنة ٨١هـ قالوا أنه لم يمت وانه مقيم بجبال رضوي- بين مكة بالمدينة وأنه الامام المنتظر الذي بشر به النبي صلى الله عليه وسلم واله الذي سيملا الارض عدلا وقسطا، هذا ولو ان هناك فرقة أخري قالت أن محمد بن الحنفية مات وأن الامام بعده أبنه عبدالله وكان يكني أبا هاشم،
أنظر، النوبختي، فرق الشيعة، طبع المطبعة الحيدرية النجف سنة ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م، ص٢٣، ص٢٦، ٣٠٠

بن الحنفية والي ذلك دعا ابو مسلم.." [١] وتذكر أيضا أن محمدا بن علي أخذ العلم علي يدي ابي هاشم وكان محمد يبجله ويجله فكان اذا قام ابو هاشم يركب اخذ له الركاب " فلما مرض ابي هاشم مرضه الذي مات فيه وكان بارض الشراة من بلاد الشام وذلك عند قفوله من لقاء سليمان بدمشق عدل الي محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وكان بالحميمة، وعهد له بحقوقه في الامامة في سنة ٩٨هـ /٧١٧م[٢]. والقي اليه بأسراره وقال له: أوصيك بتقوي الله فانها خير ماتواصي بها العباد، ومن بعد ذلك فان هذا الأمر الذي نطلبه ونسعي فيه وطلبه اخرون وسعوا فيه فيك وفي ولدك[٣].

هذا ماتقوله الرواية العباسية، أما الشيعة فانهم قالوا: ان أبا هاشم أوصي الي عبدالله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن ابي طالب وهو الذي نادي به الشيعة في الكوفة اماما علي عهد مروان بن محمد، وبعد انهزامه امام المروانية اتجه الي فارس واصفهان واصطخر، وانتهي الأمر بمقتله علي يدي الداعية العباسي ابي مسلم الخراساني كماسبق القول.

---

(١) انظر مؤلف مجهول، أخبار الدولة العباسية، وفيه أخبار العباس وولده، تحقيق الدكتور عبد العزيز الدوري، الدكتور عبد الجبار المطلبي دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧١، ص١٦٥ (أخبار الامامة) حيث يقول النص: قالت الكيسانية بامامة محمد بن علي، وذكروا ان اباه اوصي اليه والكيسانية منسوبون الي المختار بن ابي عبيد، وكان يلقب كيسان، وهو أول من قال بامامة محمد بن علي، وبها كان يقول علي بن عبدالله وولده الي ايام المهدي.

(٢) مؤلف مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص١٨٥.

(٣) نفس المصدر السابق، ص١٨٦.

ج- أيسمح الدعـوة:

يعتبر محمد بن علي العباسي أول منظم الدعوة العباسية السرية أما ابنه ابراهيم الامام فكان المفجر لهذه الدعوة حيث نقلها من دعوة سرية الي علنية ولكنه لم يجن ثمار عمله حيث قتل قبل أن يحقق العباسيون الانتصار فكان ابو العباس عبد الله بن محمد العباسي أول خليفة لبني العباس.

ويمكن تقسيم الأدوار التي مرت بها الدعوة الي:

١- الدور السري التحضيري ويبدأ من سنة ٩٧هـ/ أو سنة ١٠٠هـ علي اختلاف الروايات التاريخية وكان مقر الدعوة الحميمة ونشاطها في الكوفة ثم مرو. ولم تكن تنظيماتها قد تبلورت في بادئ الأمر وجابهت انتكاسات قوية هزتها مثل حركة خداش والقبض علي بعض الدعاة العباسيين.

٢- الدور العلني الثوري ويبـدأ بارسال الامام ابراهيم ابا مسلم الخراساني الي مرو سنة ١٢٨هـ/٧٤٥-٧٤٦ حيث أعلن الثورة ضد الأمويين سنة ١٢٩هـ بعد أن اختمرت الحركة السرية العباسية. وينتهي هذا الدور باعلان ابا العباس عبد الله خليفة في مسجد الكوفة سنة ١٣٢هـ/٧٤٩ وعندما أعلنت

الحركة السرية عن صبغتها العباسية[١]٠

ويفهم من النصوص أنه عندما آلت مقاليد قيادة الحركة الهاشمية [نسبة الي ابي هاشم] الي محمد بن علي العباسي٠ الامام الجديد - بدأت مرحلة اكثر تنظيما من سابقتها فتعرف علي عامة ابي هاشم[٢]٠ عرفه عليهم سلمة بن بجير،وطلب منه أن يثبت اسماءهم، ليعرفهم ويستظهر بهم علي أمره[٣]، فكتب محمد بن علي العباسي فيهم سجلا٠ ومن هؤلاء كما تنص الرواية: سالم بن بجير- حفص بن سليمان وهو ابو سلمة الخلال حفص الاسير - ميسرة الرجال - موسي بن سريج السراج، زياد بن درهم الهمداني، معن بن يزيد الهمداني، المنذر بن سعيد الهمداني[٤]٠

وكما تذكر الرواية فأن الاتباع الأوائل كانوا ينتمون الي قبيلة بني مسلية ومواليها وكذلك من قبيلة همدان [أي من اليمنية] وقال لهم الامام امسكوا عن الجد في امركم حتي يهلك أشج بني امية [عمربن عبد العزيز] ولاتكثروا من أهل الكوفة، ولاتقبلوا منهم الا أهل النيات الصحيحة"[٥]٠

---

(١) انظر، د، فاروق عمر، طبيعة الدعوة العباسية ٩٨هـ/ ٧١٦م، ١٣٢هـ/ ٧٤٩م، دراسة تحليلية لواجهات الثورة العباسية وتفسيراتها طبع دار الأرشاد، بيروت، طبعة أولي سنة ١٩٧٠، ص١٥٣٠

(٢) انظر، أخبار الدولة العباسية، ص ١٨٨-١٩٠٠

(٣) نفس المصدر، ص١٩٠-١٩١٠

(٤) أخبار الدولة العباسية، ص١٩١- ٢٩٢٠

(٥) نفس المصدر السابق، ص١٩٣- ١٩٤٠

وكان لايعرف محمد بن علي بنسبة واسمه الا شيعة الكوفة وهم الي ثلاثين رجلا، فاذا سئلوا عن اسمه قالوا: أمرنا بكتمان اسمه حتي يظهر[١] وكانت دعوتهم الي الرضا من أل محمد[٢].

ثم قرر الامام عملا بنصيحة كبار ثقاتة نقل مركز النشاط للدعوة الي خراسان مع الاحتفاظ بالكوفة نقطة ارتباط بين مروخراسان والحميمة مقر الامام[٣].

وأرسل الامام ابا عكرمة زياد بن درهم السراج الي خراسان وطلب منه السير علي نهج بكير بن ماهان في تأليف الاتباع، واوصاه بقوله: وان دعوت احدا من العامة فلتكن دعوتك الي الرضا من آل محمد، فاذا وثقت الرجل في عقله وبصيرته فاشرح له امركم، وقل بحجتك التي لايعقلها الا اولو الالباب، وليكن اسمي مستورا عن كل احد الاعن رجل عدلك في نفسك في ثقتك به، وقد وكدت عليه وتوثقت منه واخذ بيعته وتقدم بمثل ذلك الي من توجه من رسلك، فان سئلتم عن أسمي فقولوا نحن في تقية وقد امرنا بكتمان اسم امامنا. واذا قدمت مرو فأحلل في أهل اليمن وتألف ربيعه، وتوق مضر، وخذ بنصيبك من ثقاتهم واستكثر من الاعاجم، فأنهم أهل دعوتنا وبهم يؤيدها الله[٤].

---

(١) اخبار الدولة العباسية، ص١٩٤.
(٢) نفس المصدر، ص ١٩٤.
(٣) انظر، د. فاروق عمر، طبيعة الدعوة العباسية، ص ١٩٧.
(٤) اخبار الدولة العباسية، ص ٢٠٤.

هذا ولقد كان اختيار محمد بن علي العباسي لخراسان كمقر للدعوة موفقا لانها تنفرد بموقف خاص، دون غيرها من امصار الدولة العربية الاسلامية. يتضح ذلك من وصيته لاتباعه من رجال حين تباينت الاراء حول المكان المناسب للدعوة.

"اما الكوفة وسوادها فهناك شيعة علي وولده، واما البصرة وسوادها فعثمانية تدين بالكف وتقول كن عبد الله المقتول ولاتكن عبدالله القاتل وأما الجزيرة فحرورية مارقة واعراب كاعلاج ومسلمون في اخلاق النصاري وأما أهل الشام فليس يعرفون الا ال ابي سفيان وطاعة بني مروان وعداوة لنا راسخة .. وأما أهل مكة والمدينة فقد غلب عليهم ابو بكر وعمر، ولكن عليكم بخراسان فان هناك العدد الكثير والجلد الظاهر، وهناك صدور سالمة وقلوب فارغة لم تقسمها الاهواء ولم تتوزعها النحل ولم تشغلها ديانة، ولم يقدح فيها فساد، وليست لهم اليوم همم العرب ولافيهم كتحارب الاتباع للسادات وكتحالف القبائل وعصبية العشائر وبعد فكاني اتفاءل الي المشرق والي مطلع سراج الدنيا ومصباح هذا الخلق"[1].

ونظم بكير بن ماهان - الذي قال عنه الأمام: اسمعوا منه واطيعوا وأفهموا هولساني اليكم وأميني فيكم فلا تخالفوه ولاتقضوا الأمور الا برأيه وقد أثرتكم به علي نفسي لثقتي به في النصيحة

---

(1) انظر د. ا. .. الدولة العباسية، ص ٢٠٦-٢٠٧.

لكم واجتهاده في اظهار نور الله فيكم[١] اتباعه السبعين فقسمهم الي اثنا عشر نقيبا يراسهم سليمان بن كثير الخزاعي وذلك سنة ١١٨هـ. وأكد علي وجوب مناصحته أمامهم في السر والعلانية، الا يطلعوا علي أمرهم احد فخافوا ناحيته ولم يثقوا به[٢].

والنقباء الاثنا عشر هم:

١- ابو نصر مالك بن الهيثم
٢- ابو محمد سليمان بن كثير الخزاعي ثم الاسلمي
٣- ابو منصور طلحة بن زريق مولي طلحة الطلحات
٤- زياد بن صالح (مولي خزاعة)
٥- موسي بن كعب (ابو عيينة)
٦- عيسي بن كعب
٧- لاهز بن قريظة
٨- ابو سهل بن مجاشع
من طيء ٩- ابو عبد الحميد قحطبة بن شبيب الطائي
من شيبان ١٠- ابو داود خالد بن ابراهيم الذهلي
من بجيلة ١١- اسلم بن سلام
ومولي بن ١٢- ابو علي شبل بن طهمان
اسد

وفكرة النقباء الاثني عشر- ونلاحظ ان اكثريتهم كانوا عربا - والدعاة السبعين فيها اقتداء بنقباء بني اسرائيل وبنقباء الرسول

---

(١) اخبار الدولة العباسية ص ٢١٣.
(٢) نفس المصدر، ص ٢٢٣.

صلي الله عليه وسلم بعد بيعة العقبة فالنص يقول "بسم الله الرحمنا الرحيم" ان السنة في الأولين والمثل في الاخرين، وان الله يقول "واختار موسي قومه سبعين رجلا لميقاتنا"، ثم قال في آية اخري: " وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا" وان رسول الله صلي الله عليه وسلم واتاه ليلة العقبة سبعون رجلا من الاوس والخزرج فبايعوه فجعل منهم اثني عشر نقيبا[١]٠

وهناك [نظراء النقباء][٢] وقد روي ان عددهم أحد وعشرون [٣] وهناك الدعاة ودعاة الدعاة[٤]٠

ويفهم من الرواية أن اهل الدعوة وشيعة الأمام كانوا يرسلون اليه الاموال والحلي حتي يتقوي بها في "احياء الحق واماتة الباطل"[٥]٠

موت محمد بن علي وولاية ابنه ابراهيم الامامة:

اعــــلان الثــــــورة:

مات محمد بن علي العباسي في سنة ١٢٥ هـ بالشراة من أرض الشام وكان قد أوصي لابنه ابراهيم بالامامة من بعده اذا قال لخاصته:

---

(١) اخبار الدولة العباسية ص ٢١٤-٢١٥٠
(٢) نفس المصدر، ص ٢١٩-٢٢٠٠
(٣) اخبار الدولة العباسية ص ٢٢٠٠
(٤) اخبار الدولة العباسية، ص ٢٢١-٢٢٣٠
(٥) انظر ، اخبار الدولة العباسية ص ٢٢٣-٢٢٤، ص ٢٣٧٠

فلكم فيه خلف صدق مني كما أوصي بكير بن ماهان بأن يعهد برياسة الدعوة في الكوفة الي ابي سلمة حفص بن سليمان الخلال.

وتنسب الرواية الي ابراهيم أنه قام باتخاذ السواد شعارا العباسيين وذلك لأن راية الرسول صلي الله عليه وسلم كانت سوداء كانت راية علي ابن ابي طالب سوداء وهو اختيار يتفق مع ما تورده الملاحم والتنبؤات علي ان لون الرايات المقبلة من الشرق للقضاء علي ظلم الامويين وانهاء دولتهم[١].

ومن هنا سميت الدولة العباسية بدولة المسودة.

وامر ابراهيم بكير ماهان بالمضي الي خراسان وان يأمر الشيعة بتسويد الثياب والرايات، وكتب معه كتابا الي الشيعة. نعي اليهم فيه أباه ووعظهم[٢]، فبايع الجميع الامام الجديد[٣]، ثم قفل بكير وبرفقته بعض الشيعة العباسية الذين التقوا بالامام ابراهيم وتعرفوا عليه وطلبوا منه التعجيل بالثورة وقالوا له: "حتي متي تأكل الطير لحم أهل بيتك وتسفك دماءهم تركنا زيدا مصلوبا بالكناسة وابنه

---

(١) اخبار الدولة العباسية ص ١٩٩.
(٢) اخبار الدولة العباسية ص ٢٤٠، ٢٤٥
(٣) اخبار الدولة العباسية، ص ٢٤٠.

وطردا في البلاد وقد شملكم الخوف وطالت عليكم مدة اهل بيت السوء. [١].

ظهور ابو مسلم في خراسان:

قرر الامام ابراهيم في سنة ١٢٨هـ[٢] اختيار مولاه ابا مسلم الخراساني وذلك بعد أن عرض الامر علي سليمان بن كثير وعلي تحطبة فرفضا ليمثله في خراسان. وكتب معه الي شيعته كتابا قال فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم صدق وعد الله لاوليائه وحقت كلمة الله علي اعدائه ولاتبديل لكلمات الله، ولن يخلف الله الميعاد. أن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح، فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين اما بعد فقد وجهت اليكم مجد الدهر عبد الرحمن بن مسلم مولاي فالقوا اليه ازمة اموركم، وحملوه أعباء الوزر لها والصدر في محاربة عدوكم وعاهدوا الله علي الطاعة وكونوا بحبله معتصمين. وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكن لهم دينهم الذي ارتضي لهم وليبدلهم من بعد خوفهم امنا، يعبدونني لايشركون بي شيئا، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون".

---

(١) اخبار الدولة العباسية، ص٢٢٠.

وكان تعرف ابي مسلم للمرة الأولي علي الدعوة العباسية حينما التقي ببعض النقباء العباسيين الذين زاروا بعض العجليين في سجن الكوفة وهم في طريقهم الي اداء فريضة الحج، وكان ابو مسلم يخدم هؤلاء العجليين [من بني معقل] في السجن، فتوسموا فيه نجابة وعقل وأدب فضموه الي دعوتهم واصطحبوه معهم الي ابراهيم الامام بعد ان استأذن مولاه عيس بن ابراهيم السراج[١] واعجب الامام اخلاقه ومنطقه ورأيه وعقله[٢] وغيراسمه الي عبد الرحمن وكناه بأبي مسلم وظل في خدمته يستعمله في حمل رسائله الي الكوفة وخراسان حتي سنة ١٢٨ هـ حين اشخصه الي خراسان.

وكان ابو مسلم علي معرفة بأحوال خراسان ـ التي كانت الفتنة قد طالت فيها بين نصر بن سيار وعلي بن الكرماني ومن كان بها من العرب حتي أضجر ذلك كثير من أصحابها وجعلت نفوسهم تطلع الي غير ما هم فيه والي امر يجمعهم فتحركت الدعوة يدعوا اليماني من الشيعة اليماني والربعي الربعي، والمضري المضري حتي كثر من استجار وكفوا بذلك عن القتال في العصبية[٣] حيث اختلف اليها قبل ذلك بأمر من الامام ابراهيم وكانت احداها مع ابي سلمة الخلال الذي التقي بالشيعة وقال لهم قد حضر امركم فأعدوا واستعدوا[٤]

(١) اخبار الدولة العباسية، ص٢٧١.

(٢) اخبار الدولة العباسية، ص٢٥٤-٢٥٥.

(٣) اخبار الدولة العباسية، ص٢٥٦.

(٤) اخبار الدولة العباسية، ص٢٤٨.

كما تقول رواية صاحب اخبار الدولة العباسية علي لسان ابي مسلم "امرني الامام أن انزل في أهل اليمن وأتألف ربيعه، ولا أدع نصيبي من صالحي مضر واحذر اكثرهم من اتباع بني امية واجمع الي العجم واختصهم" [١]٠

ووصية ابراهيم الامام لابي مسلم تتلخص في الاعتماد علي قبائل العرب من اليمنية في خراسان، وكان هؤلاء يمثلون علي أواخر أيام الامويين حزب المعارضة لعرب الدولة، وأن يتألف ربيعه ويحذر ويشك في العرب من المضرية وهم عصبية والي خراسان، نصر بن سيار - الا ما صلح منهم٠

والحقيقة أن انقسام العرب علي أنفسهم في خراسان كان السبب في نجاح ابي مسلم فأثناء الصراع بين نصر بن سيار المضري والكرماني اليمني انضم ابو مسلم الي الكرماني، وعندما حذر نصر زعيم اليمنية الكرماني من خطورة الداعية العباسي وطلب اليه الاتفاق ووافق الكرماني كان جزاوه ان قتله نصر[٢]٠

اعـــلان الثـــورة

لما فشا خبر ابي مسلم اقبلت الشيعة من كل ناحية وقدم

---

(١) نفس المصدر، ص ٢٦٧٠

(٢) نفس المصدر، ص ٢٨٥٠

الدعاة بمن والفهم من اخوانهم، وتكاثر عددهم يوما بعد يوم[١] وكان ابو مسلم قد نزل في منطقة مرو، لانها اصلح مكان لاعلان الثورة ومن هناك اخذ يرسل النقباء الي مختلف الاقاليم في طخارستان ومرو الروذ والطالقان وخوارزم، وحدد ابو مسلم شهر رمضان لاظهار الدعوة، ولكنه ترك للنقباء حرية التصرف فمن اعجله العدو منهم دون الوقت بالاذي والمكروه، فقد حل لهم ان يدفعوا عن انفسهم ويجردواالسيوف "وكذلك من شغله منهم عدوهم عن الوقت فلا حرج عليهم ان يظهروا بعد الوقت"[٢]٠

وترك ابو مسلم مكانه في فنين ونزل في قرية سفيذنج" وبث دعاية في الناس واظهر أمره"[٣] فسارعت الاعاجم ، وكثير من أهل اليمن وربيعه الي الدعوة من بين متدين بذلك او طالب بدخل [ثأره] اوموتور يرجو أن يدرك بها ثأر، واتاه عدة من ذوي البصائر من مضر[٤]٠

وتقول الرواية ان ابا مسلم بعث الي نصر وفدا ٠٠ وكتب معهم الي نصر كتابا يدعوه فيه الي الطاعة والدخول فيما دخل فيه اهل الدعوة ويعلمه ان هذه الرايات السود التي اظهرها هي التي لم يزل يسمع بها ويحذره من أن يكون من صرعاها[٥]٠

---

(١) انظر، تاريخ خليفة بن خياط، ج٢، ص ٥٩٠ (احداث سنة ١٣٠هـ ابن الاثير، الكامل ج٤، ص ٣٠٢ - ٣٠٣٠

(٢) اخبار الدولة العباسية، ص٢٧٧٠

(٣) انظر، ابن الاثير، الكامل ج ٤ ، ص ٣٠٠٠

(٤) نفس المصدر، ص ٣٠٠٠

(٥) اخبار الدولة العباسية، ص ٢٨٥٠

واستعمل نصر ضد شيعة العباسيين دعاية دينية قوية حيث قال هذه المسودة وهي تدعو الي غير ملتنا، وقد اظهروا غير سنتنا وليسوا من أهل قبلتنا، يعبدون السنانير، ويعبدون الرؤوس علوج واغنام وعبيد وسقاط العرب والموالي[١]٠

وأجابه الناس وظاهروه علي حرب ابي مسلم وكتب نصر الي ابن هبيرة والي العراق يستمده فلما استبطأ به الامور، كتب الي مروان الحمار يشكو له ابن هبيرة ويخبره بعظم الامر من قبل ابي مسلم، وكتب اليه٠

أري خلل الرماد وميض نار ... ويوشك أن يكون لها ضرام
فان النار بالعودين تذكى ... وان الحرب يبدؤها الكلام
فقلت من التعجب ليت شعري ... أأيقاظ أمية أم نيام[٢]
فان يك قومنا أضحوا نياما ... فقل قوموا فقد حان القيام
فصري من رحالك ثم قولي ... علي الاسلام والعرب السلام

وكتب يصف له أمر ابي مسلم، وكثرة الدعوة وميل اليمانية وربيعه اليه، ثم بعث للخليفة رسولا٠ وظل نصر ينتظر المدد أن يأتيه، وقد فسد عليه أهل خراسان الا من كان معه من مضر خاصة وكتب نصر الي أبن هبيرة يستمدد فلم يمده[٣] فكتب الي الخليفة

---

(١) اخبار الدولة العباسية، ص٢٩٠٠
(٢) نفس المصدر السابق، ص٣٠٢-٣٠٥-
(٣) السعودي: مروج الذهب، ج ٤، ص ٧٩٠

مروان ثانية يستنجد به بقوله "كتبت الي أمير المؤمنين لم يبق مني شئ أستعين به علي عدو أمير المؤمنين لافي رجالي ولا في مالي ولا في مكيدتي ولو كنت امددتني بألف فارس من أهل الشام لا كتفيت بهم، ولقطعت دابر القوم الظالمين إني حين كتبت إلي أمير المؤمنين قد أخرجته من جميع سلطاني، فأنا واقف علي باب داري، وان لم تأتني مواد أمير المؤمنين ووكلنا الي أبن هبيرة طردت عن باب داري، ثم لارجوع اليها الي ملتقي الحشر."[١]

ثم أن نصرا كما يقول صاحب اخبار الدولة العباسية "جمع وجوه أصحابه وأهل الرأي والمشورة منهم ولم يجتمعوا علي شئ وهنا أضطر نصر الي الاستنجاد بالخليفة مروان ثانية يستحثه علي إمداده ويستنفره بقوله "اما بعد فاني ومن معي من عشيرة أمير المؤمنين في موضع من مرو علي مجمع الطريق ومحجة الناس العظمي من مختلف القوافل والرسل والجنود من العراق في حائط قد خندقت فيه علي نفسي ومن معي، وعن يميني وشمالي قري بني تميم وسائر احياء مصر ليس يشوبهم غيرهم الا قري علي حدهم خاملة الذكر فيها خزاعة وفيها حل طاغيتهم ابو مسلم، فنحن حين كتبت إلي أمير المؤمنين في أمر هائل يتكفأ بنا تكفؤ السفينة عند هبوب العواصف ونحن من أخواتنا اليمنية واغنامهم ورعاعهم، فيما نتوقع من سفههم، ولما قد شملهم من ورائهم الخبيث.. وأنا معتصم بطاعة أمير المؤمنين. وقد أملنا غياث أمير المؤمنين وورود خيله

---

(١) نفس المصدر السابق ٤ ص ٣١١-٣١٢.

وفرسانه ليقمع الله بهم كل مصر علي غشه وساع في خلافه فلايكون مثلنا ياأمير المؤمنين قول الأول

لا ٴعرفنك بعد اليوم تندبني وفي حياتي مازودتني زادي

ثم قال نصر شعرا يحرض فيه العرب علي الهاشمية

ٴبلغ ربيعة في مرو واخوتهم ليغضبوا قبل الا ينفع الغضب
مابلكم تنصبون الحرب بينكم كأن ٴهل الحجي عن رٴيكم غيب
وتتركون عدوا قد اطاف بكم فاين غاب الحجي والرٴي والادب
ذروا التفرق والاحقاد واجتمعوا ليوصل الحبل والاصهار والنسب
ٴن تبعدوا الازدمنا لاتقربها ٴو تدن نحمدهم يوما اذا اقتربوا
اتخذلون اذا ٴحتجنا وننصرهم لبئس والله ماظنوا وماحسبوا(١)

وظهر ابو مسلم وأعلن اسم الامام من أعلي المنبر في صلاة الجمعة وأسفل المنبر علق علمان اسودان كان قد بعث بهما الامام من الكوفة واحدهما سمي الظل والاخر السحاب. وكان أبو مسلم وهو يعقد اللواءين يتلو "أذان للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله علي نصرهم لقدير وتأول الظل والسحاب قال: أن السحاب يطبق الارض وأن الارض كما لاتخلو منَ الظل كذلك لاتخلو من خليفة عباس الي أخر الدهر[٢].

وكذلك ليس أبو مسلم السواد هو واتباعه، كما أنه غير في

---

(١) اخبار الدولة العباسيةص ٣١١-٣١٢.

(٢) انظر، اخبار الدولة العباسية، ص ٣١١-٣١٢.

بعض الشعائر لما حضر عيد الفطر أمر ابو مسلم سليمان بن كثير أن يصلي بالشيعة وأمره أن يبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذن والا اقامه، وكان بنو أمية يبدأون بالخطبة قبل الصلاة، وبالاذان والاقامة .

وهكذا بدأ أبو مسلم نشاطه في منطقة قبائل خزاعة - كما تقول النصوص ولكنه عندما اصطدم باتحاد قبائل العرب ضده خرج الي قرية الماخوان وخندق بها. ثم عاد إلي نشاطه ورغم أنه أصبح من المشكوك في أمرهم من جانب العرب، الا أن هؤلاء كانوا مشغولين بنزاعاتهم، فلم يستمر اتحادهم طويلا بل أن عرب اليمنية تحالفوا معه عندما أرسل الي ابن الكرماني واستماله الي جانبه. أما عن انصار ابي مسلم فكانوا خاضعين له تماما، كما كان جنده مطيعين لقوادهم احسن الطاعة .

سقــوط مـــرو:

وبفضل انقسام العرب علي انفسهم وتماسك حزب ابي مسلم، نجح هذا الاخير في الاستيلاء علي مدينة مرو عاصمة الاقليم الواقعة علي نهر المرغاب وكان دخولها بفضل ممالاة اليمنية وعلي رأسهم ابن لكرماني[١]

---

(١) ابن الاثير، الكامل، ج ٤، ص٣٠٩.

ودخل ابو مسلم مرو من باب قنوشير فتلا هذه الآية: "ودخل المدينة علي حين غفلة من أهلها" الي اخر الاية، ثم سار الي دار الامارة فنزلها وعلي بن الكرماني معه ، ثم دعوا الناس للبعية فلم يتخلف عنها أحد من أهل مرو. ثم خرج علي بن الكرماني وأبو مسلم الي المسجد فصعد علي المنبر وجعل ابو مسلم يبايع الناس، وأقام ابو مسلم ثلاثة أيام يأخذ البيعة علي أهل مرو، وهرب نصر من المدينة يوم الجمعة ١٠ جمادي الأولي سنة ١٣٠هـ[١] وبصحبته أمراته المرزبانة، التي اضطر الي تركها في الطريق، واتجه الي مدينة سرخس ومنها الي طوس ثم الي نيسابور.

فتـــح طـــوس:

مقـتل تمـيم بـن نصـر:

ومن مرو اخذ ابو مسلم يدير الحرب ضد نصر. وكان يدير العمليات العسكرية في جانب المسودة عدد من كبار القادة العرب فأول من قام بمهاجمة القوات الأموية في خراسان كان قحطبة بن صالح، وهو من قبيلة طئ العربية. فلقد بدأ قحطبة بهزيمة تميم بن نصر بن سيار في طوس وكان اتباع الضحاك الشيباني، من الخوارج

---

(١) انظر: أخبار الدولة العباسية، ص٣١٦-٣١٨.

قد لحقوا بابن نصر هناك وانتهت المعركة بمقتل تميم بن نصر واستباحه عسكره[١].

ويذكر صاحب "اخبار الدولة العباسية" أن نصر بن سيار قال يرثي ابنه تميما لما بلغه نبأ مصرعه:

نفى عني العزاء وكنت جلدا   نكوب فجائع الحدث العظيم
وهم أورث الاحشاء وجـــدا   لاجلاء الفوارس عن تميـــم
ومصرعه علي قضب الاعــادي   يذب من الجماعة والحريـــم
وفاء للخليفة وابتـــــذالا   لنفس من أخي ثقة كريـــم
فإن يك دهرنا اودي مـــداه   بفارسنا المقاتل في الصميم
وان يشمت بنكبتنا عـــدو   فما انا بالضعيف ولا السئوم

فتــح نيــسابور

أما عن نصر فانه هرب من نيسابور الي جرجان، وتمكن بذلك ابو مسلم من دخول مدينة نيسابور في شوال سنة ١٣٠هـ/ يونية ٧٤٨ م. وبعد أن تحقق لابي مسلم هذا النجاح الكبير تخلص من

زعيمي اليمينة من العرب وهما: علي بن الكرماني وأخوه عثمان اذ قتلهما غدرا.

---

(١) نفس المصدر السابق، ص ٣٢٣-٣٢٦.

فتــح جرجــان [واخذ الرى]:

وعندما استغاث نصر بن سيار بوالي العراق، وابن هبيرة ، ارسل اليه هذا جيشا بجرجان، ولكن قحطبة خرج اليه وهزمه في ذي الحجة من نفس السنة، بعد ان فتح جرجان واوقع الهزيمة بأهلها الذين حاولوا الثورة حتي قيل انه قتل منهم مايزيد علي ثلاثين الفا وبسبب تردد والي العراق ابن هبيرة ساء موقف نصر الذي مات وهو يفر أمام قحطبة بالقرب من الري " وكان مريضا يحمل حملا" وبعد وفاة نصر اخذت مدينة الري وصادر ابو مسلم املاكهم لانهم كانوا سفيانية كما تقول النصوص واحاط الحسن بن قحطبة ببقية جيوش أهل الشام في نهاوند. وعندما خرج جيش شامي كبير لفك حصارهم بقيادة عامر المري والي كرمان وداود بن يزيد بن هبيرة، في أواخر سنة ١٣١هـ/٧٤٩ هزمه قحطبة وهو يتقدم قرب اصفهان. وتقول النصوص "امر قحطبة بمصحف فنصب علي رمح ونادي ياأهل الشام أنا ندعوكم الي مافي هذا المصحف. فشتموه وافحشوه في القول "وأنه هزم داود بن هبيرة، وأصابوا عسكره واخذوا منه مالا يعلم قدره من السلاح والمتاع والرقيق والخيل، وما رؤي عسكر قط كان فيه من أصناف الاشياء مافي هذا العسكر كأنه مدينة من البرابط والطنابير والمزامير والخمر مالايحصي "[١]

---

(١) انظر، ابن الاثير، الكامل، ج٤، ص ٣١٦-٣١٧، ٣١٨-٣١٩.

حصار نهاونـــد

واستراح قحطبة -بعض الوقت باصفهان ثم قدم علي ابنه الحسن بنهاوند وبعد عدة أشهر من القتال استسلم الشاميون بنها وند دون أن يفكروا في مصير أخوانهم بخراسان، هؤلاء قضي عليهم دون شفقة او رحمة وبذلك انفتح طريق العراق أمام الخراسانية .

مسير قحطبة إلـى ابن هبيرة بالعراق:

وخرج قحطبة من نهاوند وتوجه الي العراق واضطر في أول الأمر الي الانسحاب امام يزيد بن هبيرة والي الاقليم ، الذي خرج للقائه وراء دجلة ولكنه عاد واتجه نحو الكوفة . وتبعه ابن هبيرة وتمكن من مفاجأته في ذي الحجة سني ١٣٦ هـ/ اغسطس ٧٤٩ م في معسكره قرب الانبار، مما اضطر قحطبة الي الانسحاب الي واسط. واثناء القتال الذي كان يدور ليلا سقط قحطبة في النهر الفرات ومات غرقا[١]. في ليلة الاربعاء ٨ من محرم سنة ١٣٢ هـ[٢]. ولكن القوم اجتمعوا واجمعوا علي الرضا بحميد [الحسن] بن قحطبة في رواية ابن الاثير فبايعوه وسلموا له الأمر"[٣].

(١) ابن الاثير، ج ٤ ص ٣٢٠- ٣٢١.

(٢) اخبار الدولة العباسية ، ص ٣٧١

(٣) نفس المصدر، ص٣٧١ تاريخ خليفة، ج٢، ص ٥٨٢ احداث سنة ١٢٩.

فتـــح الكوفـــــة

تقدم الحسن بن قحطبة الي الكوفة في الجنود واستولي جيشه عليها بعد أن هزم ابن هبيرة ويفهم من النصوص أن الكوفة اخذت بسهولة، اذ كان محمد بن خالد القسري قد خرج فيها علي الامويين الذين انسحبوا و"سود" أي أعلن دخوله في دعوة العباسيين وكتب بذلك الي قحطبة[١].

ظهــور ابي سلمــة بالكوفــة

وأرسل أبو سلمة الي حميد بن قحطبة أن يدخل الكوفة بأحسن هيأة وان يظهروا زينتهم، ويشهروا سلاحهم واعلامهم وقوتهم، ففعل وظهر ابوسلمة واعلن أمره وكان ظهور ابي سلمة وتوليه للامور يوم الجمعة ١٠ من المحرم سنة ١٣٢ هـ وتولي ادارة مقاليد الأمور[٢].

مــوت ابراهــيم الأمـــام

وتقول النصوص أن الخليفة مروان بن محمد كان قبل ذلك بقليل فقد امر بالقبض علي الامام ابراهيم الذي اخذ وانفذ الي حران وحبس

---

(١) ابن الاثير، الكامل، ج٤، ص ٣٢١.

(٢) اخبار الدولة العباسية، ص ٣٧٤-٣٧٥.

الخلال، ومن ابي العباس، والتقي بهم علي الضفة اليسري لنهر الزاب، ودام القتال بين الطرفين تسعة ايام احرز مروان خلالها بعض الانتصارات، ولكن الأمر انتهي بوقوع الاضطراب في جيشة اذ كانت كل عصبية تريد ان تتقدم العصبية الاخري وأعقب ذلك هزيمة مروان نتيجة لخطأ استراتيجي، اذ عقد جسراً علي النهر عبره رغم معارضة وزرائه في ذلك وترتب علي هذا الخطأ ان انقطع الجسر عند الانهزام وكان من غرق يومئذ اكثر ممن قتل " وذلك في ١١ جمادي الثاني من سنة ١٣٢ - ٢٦ يناير ٧٥٠م.

وفر مروان الي الموصل بعد هزيمة الزاب، ولكنه استقبل استقبالا سيئا، فسار الي حران، واقام بها اكثر من عشرين يوما. عندما تبعه عبد الله بن علي الي هناك مضي الي حمص. ولكن مدن الشام كانت قد بدأت تخلع طاعتها بالنسبة للامويين وتسقط بين ايدي العباسيين، مدينة بعد أخري، مثل : قنسرين وحمص وبعلبك ولم تدافع الا دمشق بعض الوقت فدخلت عنوة في ٥رمضان سنة ١٣٢هـ/٧ نوفمبر سنة ٧٥٠م. بعد أن حوصرت وضيق عليها الخناق.

وتابع العباسيون مطاردة مروان، اذ سار في اثره صالح بن علي من ابي فطرس الي العريش الي النيل ثم واصل سيره الي صعيد مصر. وفي بلده بوصير من قري الفيوم حاول مروان الاختفاء في

احدي الكنائس[١]. ولكنهم بايتوه وهجموا علي عسكره وضربوا بالطبول وكبروا ونادوا يالثارات ابراهيم " فظن من بعسكر مروان ان قد احاط بهم سائر المسودة.

فقتل مروان في ١٧ من ذي الحجة سنة ١٣٢ هـ/١٧ اغسطس سنة ٧٥٠م .. واحتز رأس اخر خلفاء الامويين،وأرسل الي صالح بن علي الذي مثل به فقطع سلسانهوسيره الي ابي العباس الذي كان بالكوفة.

استسلام ابن هبيرة في واسط ومقتله:

بالقضاء علي مروان بن محمد لم يبق للامويين من قوة ولاحول الا قوات ابن هبيرة التي لجأت بعد انهزامها امام ابن قحطبة الي واسط، المدينة الاستراتيجية التي بناها الحجاج في مستنقعات ودافعت عن نفسها مايقرب من العام. بدأ بمناوشات خارج المدينة بين أهل الشام وجيوش الحسن بن قحطبة وانتهت بانهزام اهل الشام والتجائهم الي المدينة وتحصنهم بها وأصبح القتال رميا وتراشقا من بعيد.

ورغم الانقسامات بين اليمنية والقيسية، في صفوف ابن هبيرة، بعد ان كاتب ابو العباس السفاح اليمانية من اصحاب ابن هبيرة، فان هذا الاخير لم يدخل في مفاوضات مع العباسيين الاعندما علم

---

(١) انظر، ابن الاثير، الكامل، ج٤، ص ٣٣٠-٣٣١.

بموت مروان وفي هذه الاثناء كانت قيادة القوات العباسية المحاصرة بواسط قد انتقلت من يدي الحسن بن قحطبة الي ابي جعفر اخي الخليفة · وهذا يبين أن الخليفة · بدأ ينهج سياسة جديدة تهدف الي وضع مقاليد الامور وخاصة القيادات العسكرية بين يدي افراد اسرته· وكتب السفاح الي الحسن بن قحطبة "ان العسكر عسكرك والقواد قوادك ولكن احببت ان يكون اخي حاضرا فاسمع له واطع وأحسن مؤازرته"·وبعد ان علم المحاصرون بمقتل مروان طلبوا الصلح، وجرت السفراء بين ابي جعفر وابن هبيرة وطالت المفاوضات بين الطرفين وكتب ابو جعفر كتاب امان لابن هبيرة، لبث ابن هبيرة يشاور فيه العلماء اربعين يوما حتي ارتضاه وارسله الي ابي جعفر الذي انفذه الي اخيه السفاح فأمره بامضائه السفاح المعاهده ولكنه لم يحترمها، بعد ان اعترض أبو مسلم علي نصوصها وكتب الي السفاح " ان الطريق السهل اذا ألقيت فيه الحجارة نسد لا والله لايصلح طريق فيه ابن هبيرة·[١]

وانتهي الامر بمقتل الراد الحامية المستسلمة واغتيال ابن هبيرة باستسلام واسط ثم القضاء علي القوات الاموية النظامية ونهج العباسيون سياسة ترمي الي استئصال شأفة الامويين واستخدام العنف بقسوة ضد أفراد الأسرة التعسة، ولم يتورعوا في ذلك عن استعمال الغدر والخيانة [٢]

---

(١) نفس المصدر السابق، ص ٢٣٨·
(٢) نفس المصدر، ص٣٣٣·

مذبحـــة أبى فطــرس:

من أهم المذابح التي غدر فيها عبد الله بن علي عم الخليفة وقائد القوات العباسية في الشام، بعدد كبير من افراد الاسرة الاموية والتي تسمي بمذبحة ابي فطرس، وذلك بعد أن أمنهم ودعاهم الي الطعام ويقال أنه بعد قتلهم غيلة امر بالبسط ففرشت علي جثتهم ناكل عليها وهو يسمع انين بعضهم[١]٠

وطارد العباسيون الامويين في الشام وفي فلسطين والعراق وبعد مطاردة الاحياء انتهكوا حرمة الاموات فنبشت قبور الخلفاء في دمشق بأمر عبد الله بن علي ونثر تراب جثتهم في الهواء، ولم يستثن الا قبر عمر بن عبد العزيز، ولم ينج من الامويين الا حفيد الخليفة هشام وهو عبد الرحمن بن معاوية الذي هرب الي الاندلس حيث أنشا دولة أموية جديدة [٢] كما سنري فيما بعد "واستصفيت أموال الامويين وهدمت قصورهم، وضربت مصانع المياه التي كانوا قد اقاموها حتي لايبقي لذكرهم اثر٠

---

(١) ابن الاثير: الكامل: ج٤: ص ٣٣٣-

(٢)انظر: اخبار مجموعة في فتح الاندلس،

الفصل الرابع

إبتداء الدولة العباسية وبيعة أبى العباس

ابتداء الدولة العباسية وبيعه ابي العباس

١٣٢ - ١٣٦هـ

بويع ابو العباس عبد الله بن محمد علي بن عبد الله بن عباس بالخلافة في ١٣ ربيع الاول سنة ١٣٢ هـ[١] ، في الكوفة ٠

وكان ابراهيم الامام لما حبس بحران، وتوقع نهايته، قد عهد لاخيه أبي العباس "وأوصاه بالقيام بالدولة والجد والحركة، والا يكون له بعد بالحميمة لبث ولاعرجة حتي يتوجه الي الكوفة٠٠٠[٢]

وخرج ابو العباس ومعه اقاربه من العباسيين فيهم اخوه ابو جعفر [المنصور] وعبد الوهاب ومحمد ابن اخيه واعمامه: داود وعيسي وصالح واسماعيل وعبد الله وعبد الصمد بنو علي بن عبد الله بن عباس، وابن عمه داود وابن اخيه عيسي بن موسي حتي قدموا الكوفة في صفر٠

---

(١) انظر، مؤلف مجهول العيون والحدائق، ص ١٩٩، وقارن خليفة بن خياط، تاريخ خليفة ج٢، ص ٦٠٨ حيث يقول: وبويع ليلة الجمعة بالكوفة ثلاثة عشر بقيت من ربيع الاول سنة اثنين وثلاثين ومائة، بينما تقول رواية المسعودي في مروج الذهب، ج٤، ص٩٤ ٩انه "بويع يوم الاربعاء لاحدي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الاخر سنة اثنين وثلاثين مائة، وقيل في النصف من جمادي الاخر٠٠اما رواية ابن الاثير ج٤، ص ٣٣٢، فتقول انه بويع بالخلافة في شهر ربيع الاول لثلاث عشرة مضت منه وقيل في جمادي الاول٠

(٢) المسعودي، مروج الذهب، ج٤، ص٩٥٠

ونستشف من الروايات ان "وزير آل محمد" وهو ابو سلمة الخلال كانت له نوايا خاصة وانه كان يميل الي العلويين فأظهر انه لم يبايع شخصيا الا ابراهيم الامام وهذا يفسر كيف أنه أخفي وصول العباسيين الي الكوفة لمدة تزيد علي اربعين يوما. وحاول في هذه الفترة أن يتصل بالعلويين فارسل رسالتين من نسخة واحدة الي الامام ابي عبد الله جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب. وعبد الله بن الحسن بن علي بن ابي طالب يدعو كل احدهما الي القدوم اليه ليصرف الدعوة اليه ويأخذ بيعه أهل خراسان. ولقد كان جواب جعفر بن محمد احراق الرسالة وانكر معرفته بأبي سلمه. أما عبدالله فقد شاور جعفر الصادق فحذره الصادق من نتيجة الانقياد وراء الخلال قائلا له: "ومتي كان أهل خراسان شيعة لك أأنت بعثت ابا مسلم الي خراسان أأنت أمرته بلبس السواد؟ ولكن عبد الله استاء من كلام جعفر واعتبره حسدا منه [١] .

أما الدوافع التي دفعت الخلال للقيام بهذا العمل فمن ذلك خوفه بعد مقتل ابراهيم الامام من انتقاص الامر وفساده.

ولقد فشلت محاولات الخلال. واخيرا عرف احد كبار اتباع ابي مسلم بوجود الخليفة الجديد فذهب اليه ومعه عدد من زعماء الخراسانية والقواد وبايعوا ابا العباس، وسلموا عليه بالخلافة، وعزوه في ابراهيم الامام واضطر ابو سلمة الي الذهاب ومبايعة ابي العباس[٢].

---

(١) المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ٩٧-٩٨.

(٢) انظر الطبري تاريخ الرسل والملوك ج٧، ص ٤٢٣ - ٤٢٤ ابن الاثير ج٤، ص٣٢٣ -٣٢٤.

وتداولوها فجاوروا فيها وأستأثروا بها وظلموا أهلها بما ملا الله لهم حينا حتي اسفوا فلما اسفوه انتقم منهم بأيدينا ورد علينا حقنا وتدارك بنا امتنا وولي نصرنا والقيام بأمرنا، ليمن بنا علي الذين استضعفوا في الأرض وختم بنا كما افتتح بنا٠

يأهل الكوفة انتم محل محبتنا ومنزل مودتنا، انتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم حتي ادركتم زماننا واتاكم الله بدولتنا فانتم اسعد الناس بنا واكرمهم علينا وقد زدتكم في اعطياتكم مائة درهم فاستعدوا فانا السفاح المبيح والثائر المبير" [١]٠

وأثناء الخطبة تملكته الحمي فاضطر أن يقطع أول خطبة له فوق المنبر٠ ولكن عمه داود بن علي تكلم نيابة عنه، ومن بين ماقاله في خطبته "لقد كانت أموركم ترمضنا ونحن علي فرشنا وتشتد علينا سوء سيرة بني أمية فيكم واستنزالهم بكم واستئثارهم بفيئكم صدقاتكم ومغانمكم عليكم لكم ذمة الله تبارك وتعالي وذمة رسوله صلي الله عليه وسلم وذمة العباس رحمه الله علينا ان نحكم فيكم بما انزل الله ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير في العامة والخاصة بسيرة رسول الله صلي الله عليه وسلم، تباتبا لبني حرب بن أمية وبني مروان اثروا في مدتهم العاجلة علي الاجلة والدار الفانية علي الدار الباقية، فركبوا الاثام وظلموا الانام [٢]٠ ثم قال يأهل الكوفة انا والله مازلنا مظلومين مقهورين علي حقنا

---

(١) انظر الطبري تاريخ الرسل والملوك تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم طبع دار المعارف مصر ١٩٦٦، ج٧ ص ٤٢٥ - ٤٢٦٠

(٢) نفس المصدر السابق، ج٧، ص٤٢٧، ابن الاثير الكامل، ج ٤ ص ٣٢٥-٣٢٦٠

حتي اباح الله لنا شيعتنا اهل خراسان فاحيابهم حقنا٠٠ وأظهر بهم دولتنا واراكم الله ماكنتم تنتظرون فأظهرفيكم الخليفة من هاشم واداكم علي أهل الشام ونقل اليكم السلطان وأعز الاسلام٠٠ وان لكل أهل بيت مصرا وانتم مصرنا الا وانه ماصعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله صلي الله عليه وسلم الا أمير المؤمنين علي بن ابي طالب وامير المؤمنين عبدالله بن محمد وأشار بيده الي ابي العباس السفاح ثم قال" واعلمو ان هذا الامر فينا ليس بخارج منا حتي نسلمه الي عيسي بن مريم عليه السلام[ا]٠

يتضح من الخطبتان السمات المميزة للعصر الجديد ومنها:

أن الدعوة العباسية قامت من اجل احلال الاسلام الذي فشل بنو مروان في تطبيق مبادئه

- وان لبني العباس الحق في الخلافة لانهم اقرباء الرسول صلي الله عليه وسلم من جهة عمه العباس بن عبد المطلب الذي مات بعد موت الرسول ٠

- تحقيق العدالة للمظلومين والمستضعفين من الناس٠

- التأكيد علي نقل مركز الثقل السياسي من الشام الي العراق٠

- زيادة الاعطيات [اعطيات الجند] الي مائة درهم٠

(ا) نفس المصدر السابق، ج٧، ص٤٢٧؛ ابن الاثير الكامل، ج٤، ص٣٢٥ - ٣٢٦٠

- ولكن الخليفة حذرهم من أية حركة قائلا بانه الثائر المبير·

- أكد علي وضع آل العباس من الاسلام وأهله وانهم بنو هاشم واهل البيت·

- فند الخليفة رأي السبئية في قولهم بأن الخلافة من حق آل علي وبين أن العباسيين في احقاق الحق وازهاق الباطل·

- ندد ابو العباس بسياسة الامويين وظلمهم الناس وكيف ان العباسيين هم الذين ازالوا دولتهم واعلن حلول عهد العدل والاصلاح·

وهكذا قامت الأسرة الخلافية الجديدة وهي أسرة العباسيين بالكوفة وأول خلفائها هو ابو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس·

والظاهر ان الخليفة كان يشك في موقف وزيره ابي سلمه الخلال ولذلك نجد انه لايقيم في الكوفة· ولكن انتقل الي حيث يوجد العسكر العباسي الخراساني حمام اعين ثم بعد ذلك ينتقل الي الحيرة وينزل في الهاشمية العاصمة الجديدة ثم انه بعد ذلك تخلص من ابي سلمة الخلال علي يدي بعض اتباع ابي مسلم·[١]

---

(١) انظر، ابن الاثير، الكامل، ج٤، ص ٣٣٦·

وعلي أيام السفاح تم القضاء علي مروان بن محمد - كما سبق القول حدث كل هذا، وأهل الشام - الذين كانوا يكنون العداء لمروان يقفون موقف المتفرج علي نهاية الدولة التي كانوا يدينون لها بكل شئ. هذا ولو أنهم بعد ذلك حاولوا القيام برد فعل فانتقضوا وخلعوا في بعض المدن مثل: حران وقنسرين ودمشق.

واهم تلك الثورات ثورة قنسرين، اذ قامت القيسية بها ونادت بأبي محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية ودعوا اليه وقالوا: هذا السفياني المنتظر. ولكن عبد الله بن علي تمكن من تشتيت شمل الثوار في أواخر سنة ١٣٣ هـ. ووقع ابو محمد بين ايدي العباسيين وهو يفر الي الحجاز وذلك علي ايام المنصور[١].

وعصر ابو العباس لم يبلغ خمس سنوات، وعمل السفاح بمعاونة اخيه أبي جعفر علي ان يتقلد الهاشميون مقاليد الأمور في الدولة، فعهد الي اخوته وابنائه وابناء عمومته بالقيادات العسكرية وولايات الاقاليم كما بدأ سياسة غريبة تهدف الي التخلص من كبار الاتباع والعمال الذين يحس بخطورتهم.

الثورات علي عهد ابي العباس:

وعلي عهد ابي العباس قامت بعض الثورات في خراسان، وفي اقليم ماوراء النهر ولكن الجيوش العباسية الخرسانية استطاعت ان

---

(١) ابن الاثير، ج ٤، ص٣٣٢-٣٣٥.

تقضي عليها بسهولة وكذلك استطاعت جيوش الدولة ان تحرز انتصارات في المشرق وان تدفع بحدود الدولة نحو اواسط آسية ·

ثـــورة بخـــارى:

ثورة بخاري هذه خطيرة اذ تزعمها رجل اسمه شريك المهري من قبيلة مهرة· هذا الرجل كان يؤيد ال البيت في أول الامر، ولكنه نقم علي السياسة التي انتهجها ابو مسلم عندما توسع في استحلال سفك الدماء· والتف حوله اكثر من ٣٠ الف رجل من منطقة بخاري ومنطقة خوارزم وأرسل ابو مسلم جيشا لقتال هذا الثائر علي رأسه زياد بن صالح الخزاعي، وعاون ابن صالح ملك بخاري واخمدت الثورة بكثير من العنف والقسوة ويقال ان المدينة تركت طعمة للنيران لمدة ثلاثة ايام، كما صلب الاسري علي أبوابها·[١]

وظهر علي اطراف الدولة خطر جديد، ذلك ان الصين بدأت تتدخل في شئون ما وراء النهر· ولكن زياد بن صالح بعد ان قضي علي ثورة بخاري استطاع ان يحرز نصراً عظيما علي القوات الصينية في وقعة تسمي طراز وتبالغ الروايات العربية في ذلك النصر فتقول ان المسلمين قتلوا حوالي خمسين الفا واسروا نحو عشرين الفا، وهرب باقي الجيش الي الصين·

وأستمرت الصين في سياستها التي تهدف الي مساعدة الحكام

---

(١) انظر: النرشخي، تاريخ بخاري، ترجمة الدكتور امين عبدالمجيد بدوي، نصر الله مبشر الطرازي طبعة دار المعارف، مصر، ص ٩١-٩٣ ابن الاثير، ج٤، ص ٣٤١، ٣٤٢·

الوطنيين، علي الخروج علي الحكم العربي. ولكن عامل بلخ الذي عينه ابو مسلم هو ابا داود خالد بين ابراهيم نجح في قمع ثورة الختل التي فراميرها الي بلاد الصين، وكذلك قتل دهقان كش ونسف.

وهكذا استطاع ابو مسلم ان يحرز نجاحا كبيراً في سياسته الخارجية بتأمينه لحدود الدولة الخارجية كما نجح في سياسته الداخلية. وهذا النجاح الكبير زاد بطبيعة الحال من هيبة الداعي الهاشمي واثار الخوف في نفوس العباسيين.

خـروج زياد بن صالح:

ففي سنة ١٣٥ هـ قامت ثورة في أرض ماوراء النهر، بقيادة زياد بن صالح ومعه سباع بن النعمان الأزدي - وهو الذي كان قد أرسله السفاح الي زياد بن صالح وأمره ان رأي فرصه ان يثب علي ابي مسلم فيقتله. وكان ابو مسلم قد عينهما واليين لما وراء النهر. والظاهر انهما رفعا رايه العصيان بتحريض من السفاح، ولكنهما لم ينجحا في ثورتهما تلك فقتل سباع بمدينة امل. أما عن زياد بن صالح فقد انفض عنه جنده وهرب الي دهقان قرية باركث فقتله فبعث راسه الي ابي مسلم[١].

ولم يكن هذا يعني انتهاء محاولات الخليفة ضد عامله الكبير وذلك انه ربما قرر ابو العباس السفاح بالاتفاق مع اخيه ابيجعفر

---

(١) انظر ، الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٧، ص٤٦٦ - ٤٦٧، ابن الاثير ج ٤، ص ٣٤٤.

التخلص من ذلك المنافس الخطير. ولكن المنية وافت ابا العباس فتوفي في ١٣ من ذي الحجة سنة ١٣٦ هـ/يونية ٧٥٤ وهو في ريعان شبابه في الأنبار وقد راح ضحية الحمي التي المت به، اوفي وباء الجدري[١]

القضاء على ابي سلمة الخلال:

كان ابو مسلم شديد الحسد لتزايد نفوذ ابي سلمه في العراق وتذكر الروايات انه اقترح علي الخيفة التخلص منه وانه كتب اليه يقول له "قد احل الله لك يا أمير المؤمنين دمه لأنه قد نكث وغير وبدل" ولكن السفاح رد علي ذلك بأنه لايريد ان يبدأ عهده بقتل رجل من شيعته مثل ابي سلمة لجهوده في نشر الدعوة[٢]. كما كلمه ايضا ابو جعفر [المنصور] أخوه وداود بن علي عمه في ذلك. وكان ابو مسلم قد راسلهما وطلب منهما ان يشيرا علي السفاح بقتله.

ولكن ابو مسلم كما نستشف من الروايات ارسل جماعة من ثقاته لقتل ابي سلمه وانتهز فرصة انصرافه من عند السفاح من الأنبار وليس معه احد. "فوثب عليه اصحاب ابي مسلم فقتلوه" واشيع ان ابا سلمة قتله الخوارج، وكان مقتله في رجب سنة ١٣٢هـ

(١) خليفة تاريخ خليفة، ج٢، ص ٦٢٩، احداث سنة ١٣٦هـ وقارن المسعودي، مروج الذهب، ج٤، ص ٩٤ حيث يقول "ومات بالانبار في مدينته التي ابتناها، وذلك يوم الاحد لاثنتي عشرة ليلة خلت من ذي الحجة، ابن الاثير، ج٤، ٣٤٦.

(٢) انظر، المسعودي، ج ٤، ص ١١٥-١١٦.

الفصل الخامس

خلافة المنصور

خلافـــة المنصــور

١٣٦- ١٥٨ هـ

بعد ابي العباس تبوأ عرش الخلافة اخوه ابو جعفر عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس الملقب بالمنصور بالله.

ويعتبر ابو جعفر المؤسس الحقيقي للدولة العباسية .

وأول المشاكل التي واجهها المنصور هي أحقية ولايته لعهد ابي العباس اذ تذكر الرواية أنه في سنة ١٣٦ هـ أخذ ابو العباس البيعة بولاية عهد المسلمين وبالخلافة من بعده لاخيه ابي جعفر عبد الله بن محمد، ومن بعد ابي جعفر ولد أخيه عيسي بن موسي بن محمد بن علي وانه "جعل العهد في ثوب وختمه بخاتمه وخواتيم أهل بيته" .

رغم كل هذا فان اعتلاؤه العرش لم يتم دون نزاع فعندما توفي ابو العباس السفاح، كان اخوه ابو جعفر اميرا للحج، وبصحبته ابو مسلم وقام بأخذ البيعة لابي جعفر، عيسي بن موسي ولي العهد الثاني الذي كان واليا للكوفة . وكتب عيسي الي ابي جعفر يعلمه بموت السفاح والبيعة له، كما كتب الي الامصار يطلب البيعة

للخليفة الجديد[١]٠

ثورة عبد الله بن علي العباسي:

وفي ذلك الوقت كان عم الخليفة عبد الله بن علي، بطل وقعة الزاب والذي كان واليا علي بلاد الشام، وكان قد سار علي رأس قواده من الشاميين والخرسانية علي الصائفة وهو يقصد بيزنطة ٠ وعندما وصله خبر وفاة ابو العباس وولاية المنصور توقف عن المسير ودعا قواده ورجاله الي مبايعته، وكان لابد ان يبرر موقفه هذا ويظهر احقيته في المطالبة بالخلافة فقال: أن السفاح حين اراد ان يوجه الجنود إلي مروان بن محمد لم ينتدب غيري وعلي هذا خرجت من عنده وهذا يعني أنه كان يري أن قتال الخليفة الأموي حقا للخليفة الذي سيحل مكانه وان انتداب الخليفة له للقيام بهذا الأمر معناه نيابته عنه وانه لا يتنازل عن هذه النيابة ولا يعترف بما حدث بعد ذلك من التغيير والتبديل والعهد لغيره٠ ووقف الي جانب عبد الله عدد من القواد وبايعوه بالفعل٠ والذي لاشك فيه ان تشجيع أهل الشام عصبية الدولة الاموية - كان من الاسباب التي قوت عبد الله وجرأته علي الثورة٠

سار عبد الله بن علي ونزل حران٠ وقفل ابو جعفر من الحج ليجد نفسه امام ثورة عمه ولم يجد مفراً من الاستنجاد بأبي مسلم رغم ماكان يكنه له من الحقد، رغم ماكان يظهره الخراساني من تعال

(١) انظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٧، ص ٤٧١، انظر ابن الاثير الكامل، ج ٤، ص ٣٤٧، وقارن خليفة بن خياط تاريخ خليفة ص٦٢٩، المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص١٣٨٠

وماكان يشعر به في قرارة نفسه من الافضال والخدمات الكبيرة التي اداها للدولة حتي انه غلب علي ابي جعفر، الذي كان اميرا للحج، فكان ابو مسلم يكسو الاعراب ويصلح الابار، والطريق، وكان الذكر له" [١]٠

امر المنصور أبا مسلم بالمسير لحرب عبد الله بن علي٠ والظاهر ان عبد الله خشي غدر جنده من الخرسانية الذين كانوا يدينون بالطاعة والولاء لابي مسلم فتخلص منهم وقتل منهم الكثيرين ولم يبق له الا أهل الشام٠

سار ابو مسلم الي حران وانسحب عبد الله بن علي من حران الي نصيبين وتحصن هناك، ولم يرد المنصور ان ينفرد ابو مسلم بالقيادة فاستدعي القائد المشهور الحسن بن قحطبة من ارمينية ، وكان واليا عليها وأمره ان يوالي ابو مسلم فلحق به في الموصل٠ وتقدم ابو مسلم حتي نزل قريبا من عبد الله من ناحية نصيبين٠٠ والظاهر ان مراكز اهل الشام كانت حصينة منيعة فلجأ أبو مسلم الي خطة سليمة لزحزحتهم عن مراكزهم الاستراتيجية فكتب الي عبد الله بأنه لم يأت لقتاله وانما ولي الشام بأمر من الخليفة وانه متوجه لتقلد ولايته وعندئذ خشي أهل الشام من الخراسانيةأصحاب ابي مسلم علي ديارهم وطلبوا ان يسيروا الي بلادهم لحمايتها٠ وكان عبد الله يعلم ان ما اعلنه ابو مسلم لم يكن الاخدعة ٠ وأنه لابد ان يناصبه القتال ولكن أهل الشام لم يقتنعوا بذلك فقرر عبد الله الرحيل معهم نحو

---

(١) انظر، ابن الاثير، الكامل، ج٤، ص ٣٥٠٠

الشام وعندئذ تحول ابو مسلم فنزل في معسكر عبد الله بن علي في الموضع الحصين. "وغور ماحوله من المياه والقي فيها الجيف" وأضطر عبد الله والشاميون الي النزول في موضع عسكر ابي مسلم. واستمر الصراع بين الفريقين مدة طويلة زادت الي اكثر من خمسة أشهر. وكان اهل الشام اكثر فرسانا، ورغم حصانة المواقع التي احتلها ابو مسلم، فان الشاميين استطاعوا بعد شهر من المناوشات من توجيه هجمة قوية نحو المعسكر العباسي وتمكنوا من زحزحته عن مواضعه.

وتشير النصوص الي مهارة ابي مسلم في تسيير دفة القتال فقد اقام عريش كان يجلس عليه فينظر الي رجاله فاذا رأي خللا في بعض صفوفه أرسل الرسل الي مختلف القواد لاتخاذ الموقف المناسب.

ولم يستطع أهل الشام ان يستفيدوا من ذلك النجاح المحقق الذي احرزوه، وفي شهر جمادي الثاني سنة ١٣٧ هـ دارت المعركة الحاسمة يتخلص تكتيك هذه الموقعة في أن ابا مسلم امر الحسن بن قحطبة ان يعبئ الميمنة اكثرها الي الميسرة وان يترك في الميمنة جماعة اصحابه واشداءهم ولما رأي ذلك اهل الشام كشفوا ميسرتهم وانضموا الي ميمنتهم بازاء ميسرة ابي مسلم وهنا امر ابو مسلم اهل القلب والميمنة ان يهجموا علي ميسرة اهل الشام. ونجحت هذه الخطة وانهزم اصحاب عبد الله وتركوا عسكرهم.

أكتفي أبو مسلم بالانتصار فأعلن الامان في الناس وأمر بعدم الانتقام من المنهزمين ولما كتب الي المنصور يعلمه بالنصر وبالاستيلاء علي معسكر عبد الله أرسل المنصور مولاه ليحصي الغنائم. وكان ذلك من الأسباب التي اثارت غضب ابو مسلم، وعملت علي زيادة الجفوة بينه وبين الخليفة. تقول الرواية ان ابا مسلم قال: أنا أمين في الدماء خائن في الأموال[١].

أما عبد الله بن علي وأخوه عبد الصمد بن علي الذي كان معه فلجأ عبد الله الي اخيه سليمان الذي كان واليا علي البصرة وتواري عنده حتي سنة ١٣٩هـ وعندما عزل سليمان وطلب الية المنصور ان يبعث بعبد الله بعد ان امنه ولكنه سجن وانتهي الأمر بقتله فيما بعد[٢].

لجأ عبد الصمد الي موسي بن عيسي ولي العهد في الكوفة وطلب اليه الامان وانتهي هو الاخر نهاية شبيهة بعبد الله[٢].

وهكذا تغلب المنصور علي اولي الصعاب التي اعترضته بعد

---

(١) ابن الاثير، الكامل، ج٤، ص٣٥٠، وقارن المسعودي مروج الذهب ج٤ ص ١٣٩ حيث يقول" فبعث اليه المنصور بيقطين بن موسي لقبض الخزائن، فلما دخل يقطين علي ابن مسلم قال: السلام عليك ايها الامير، قال: لاسلم عليك ياابن اللخناء اوتمن علي الدماء ولااوتمن علي الاموال".

(٢) انظر ابن الاثير، ج٤، ص٣٥٠ ج٥ ص ٢٤ احداث سنة ١٤٧هـ المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ١٦٠-١٦١.

خلافته وهي ثورة أهل الشام بزعامة عمه عبد الله وذلك بفضل رجل الدولة ابي مسلم الخراساني الذي لم يلبث ان يلاقي مصرعه بدوره علي يدي الخليفة ·

مقتل ابي مسلم الخراساني:

مماسبق يتضح لنا أن سلطان ابي مسلم في خراسان كان قد توطد بعد تخلصه من العرب الذين كانوا يتوقون الي تقلد الأمور في ولاية خراسان وازدادت سلطة أبو مسلم·

والحقيقة ان النزاع بين أبي جعفر وأبو مسلم الي سنة ١٣٢هـ الي أوائل ايام السفاح وذلك بعد مقتل ابي سلمة الخلال وعندما أرسل السفاح أخاه ابا جعفر الي ابي مسلم بخراسان ومعه العهد لابي مسلم بولاية خراسان وبالبيعة للسفاح ولابي جعفر من بعده فلم يهتم الزعيم الخراساني بولي العهد اي بأبي جعفر الذي كان يقول لاخيه اطعني واقتل ابا مسلم فوالله ان في رأسه لغدرة[١]

وحاول ابو العباس التقليل من نفوذ ابي مسلم واغتياله عدة مرات من ذلك ماتقول الرواية من أنه أمره باسقاط من لم يكن من أهل خراسان من جنده ليقلل من نفوذه ولكن أبا مسلم ادرك الحيلة[٢] وتجلت قوة ابي مسلم في نفس الوقت عندما أرسل

---

(١) انظر: العيون والحدائق، ص ٢١٣-٢١٤، ابن الاثير الكامل ج٤، ص ٣٤٦ -٣٥٤·

(٢) انظر: الجهشياري، كتاب الوزراء والكتاب، ص ٩٤·

السفاح عمه عيسي بن علي واليا بفارس وتقول الرواية ان عمال ابي مسلم هناك تصدوا له بل وبلغ الأمر ان بعضهم اراد قتل عيسي بن علي، وعلي ذلك كان من الطبيعي أن يفكر السفاح وأبو جعفر في التخلص من " امين ال محمد" بعد ان تخلصوا من "وزير آل محمد" وذلك حسب السياسة التي رسمها والتي كانت ترمي الي تأكيد سلطان الهاشميين. ويظن أن السفاح وافق علي التخلص من أبي مسلم ولكنه عاد واجل ذلك لفرصة اخري. وأخيراً في نهاية سنة ١٣٦هـ طلب ابو مسلم من السفاح ان يوليه امرة الحج وان يكون نائبه يوم عرفة ولكن السفاح جعله تحت امره أخيه ابي جعفر الذي اخذ امرة الحج لنفسه وحضر من ولايته ارمينيةمن اجل ذلك وتاثر ابو مسلم وأسرها لأبي جعفر وعمد الي الظهور بجانبه. ثم انه عندما وصله نبأ موت السفاح وهم في طريق العودة لم يسارع أبا مسلم ببيعه المنصور الا بعد ان لفت الأخير نظرة الي ذلك في كتاب ارسله اليه. وأثناء قتال عبد الله بن علي لاحظ الحسن بن قحطبة ان أبا مسلم كان يهزأ ويستخف بالكتب التي كانت تصله من أمير المؤمنين فكتب بذلك الي الوزير ابو ايوب(١). واخيرا زاد التوتر عندما ارسل المنصور مولاه ليحصي الغنائم التي استولي عليها في معسكر أهل الشام.

وأحس المنصور خطورة الرجل وحاول ابعاده عن خراسان معقله وموطن سلطانه، فعرض عليه ان يوليه بلاد الشام ومصر، وطلب اليه

---

(١) ابن الاثير، الكامل، ج٤، ص ٣٥٠-٣٥١.

ان يسير الي ولايته الجديدة. وشعر ابو مسلم بما يضمره الخليفة فلم يقبل ما عرض عليه. وقرر العودة الي ولايته خراسان. ولكن المنصور رغبة ورهبه واتصل بنائب ابي مسلم في خراسان الذي هدد ابا مسلم وجعله يخضع لاوامر الخليفة .وبفضل اغراء بعض اصحابه سار ابو مسلم الي المنصور ليعتذر له عما بدر منه، وكان المنصور في ذلك الوقت قد سار من الانبار الي المدائن «لينتظر مكان العاصمة الجديدة» وقابل رجال المنصور ابا مسلم قبولا حسنا، واظهروا له آيات الاجلال وطمأنوه ثم دخل أبو مسلم علي المنصور، فاقبل عليه الخليفة يعاتبه ويعدد له هفواته وسقطاته. واعتذر ابو مسلم عن ذلك ببلائه وماكان منه، وماقام به فكان رد المنصور. "يابن الخبيثة والله لو كانت امه مكانك لاجزأت انما عملت في دولتنا وبريحنا فلو كان ذلك اليك ماقطعت فتيلا"[١]. وامر به فقتل تحت ناظرية في ٢٥ شعبان سنة ١٣٧هـ.

وتقول النصوص ان جعفر بن حنظلة لما نظر الي ابي مسلم مقتولا قال للمنصور يا أمير المؤمنين عد من هذا اليوم خلافتك"[٢]

وبعد مقتل المنصور لابي مسلم خطب الناس وحذرهم من الخروج من انس الطاعة الي وحشة المعصية وبرر موقفه من الرجل الذي ابلي في سبيلهم أحسن البلاد بقوله، ولم يمنعنا الحق له من امضاء الحق فيه"[٣]

---

(١) ابن الاثير، الكامل، ج٤، ص ٣٥٢-٣٥٤.
(٢) نفس المصدر السابق، ص ٣٥٥.
(٣) ابن الاثير، ج٤، ص ٣٥٦.

الموقف في خراسان عقب مقتل ابى مسلم

ثــورة سنــباذ:

لم يمر موت ابي مسلم بسلام وذلك انه قامت بخراسان ثورة تطالب بدم ابي مسلم هذه الحركة تزعمها رجل من احدي قري مدينة نيسابور اسمه "سنباذ" . واستجاب لدعوة هذا الرجل التي قالت بعودة ابي مسلم "وانه لم يمت ولن يموت حتي يظهر فيملاء الارض عدلا[١] كثير من الناس.

واستطاع سنباذ ان يستولي علي نيسابور وقومس والري. وأتي بالكثير من أعمال العنف والتخريب والنهب ولكن جيوش الخليفة تمكنت من هزيمته بين همذان والري وانتهي الامر بقتله[٢].

ولكن هذا لايعني خضوع خراسان اذ ستظل البلاد ارضا خصبة صالحة لقيام الحركات المعادية للدولة اذ تقول الرواية انه في سنة ١٤١ هـ قام الراوندية من أهل خراسان ممن يدينون بافكار ابي مسلم ويعتقدون بتناسخ الارواح، ونادوا بألوهية المنصور وساروا من خراسان الي الهاشمية وحاول الخليفة ان يستعمل معهم اللين والسياسة ولكنه لم يوفق في ذلك مما اضطره الي التشدد معهم واستعمال العنف والقوة لحبس زعماءهم ولكن الأمر تطور الي ان قاموا بثورة هددت المنصور نفسه اذ كسروا السجن واخرجوا

---

(١) المسعودي، مروج الذهب، ج٤، ص ١٤٤.
(٢) انظر، ابن الاثير، ج٤، ص ٣٥٧.

اصحابهم واتجهوا نحو الخليفة الذي اظهر شجاعة نادرة في قتلهم والتنكيل بهم.

وسيظل حزب ابي مسلم هذا قائما وسيضم اليه كثير من أهل البلاد واتخذ هذا الحزب المناوئ للدولة شعارا مضادا شعارا الدولة الا وهو اللون الابيض وعلي ذلك اصبحوا يسمون بالمبيضة.[١]

هذا عن ثورات المشرق ذات الافكار الخارجة.

كذلك عرفت الدولة بعض الثورات مثل: ثورة الخوارج في الجزيرة تلك الثورة التي اخمدتها الدولة[٢].

والثورة التي قام بها القائد الذي هزم سنباذ في سنة ١٣٨ هـ وهو جمهور بن مرار العجلي. هذا الرجل بعد أن هزم سنباذ واستولي علي خزائنه، رفع راية العصيان، ولكن انتهي الأمر بهزيمة جمهور، ومقتل الكثير من أصحابه. وهرب جمهور الي اذربيجان ولكن اصحابه قتلوه وحملوا رأسه الي المنصور.

ثورة عبد الجبار بخراسان

في سنة ١٤١ هـ قام والي خراسان عبد الجبار بن عبد الرحمن الازدي بثورة وسير اليه الخليفة ابنه ولي عهده المهدي الذي تمكن

---

(١) ابن الاثير، ج٤ ص٣٦٥-٣٦٦.
(٢) ابن الاثير، ج٤ ص ٣٥٨-٣٥٩.

من القضاء علي الثورة بسهولة· ولكن المنصور حرص علي الا يضيع نفقات الحملة التي كان قد جهد في تجهيزها فوجهها الي بلاد طبرستان·

وفي سنة ١٤٢ هـ قام والي السند عينيه بن موسي بن كعب، الذي كان بعيداً في أقصي المشرق بالثورة ولكن الدولة استطاعت أن تقضي عليه، كما أنها اقرت الأمور وقضت علي الثورة التي قامت في بلاد الديلم وهذه الحملات حمت حدود الدولة وصانتها[١]·

موقف العلويين:

أن العباسيين كما نعرف ـ عندما قاموا بثورتهم انما قاموا بها باسم آل البيت وانتقاما وثارا لمقتل العلويين واستغلوا عطف الناس علي العلويين خاصة في بلاد الحجاز· وحين بدأ محمد بن علي بن عبد الله بن العباس دعوته السرية كان حذرا واستند في ادعائه بالخلافة الي وصية ابي هاشم عبد الله، كما كان شعار الدعوة الي "الرضا من آل محمد" واستطاع ابنه ابراهيم الأمام الذي خلفه في زعامة الدعوة ان يوجه جهوده الي خراسان حيث توجد القبائل العربية المتذمرة من الادارة الاموية· وكللت جهوده بالنجاح الا انه قتل قبل وصول الشيعة العباسيّة الي العراق واحتلالها الكوفة·

وقد بايع زعماء الدعوة ابا العباس عبد الله بن محمد خليفة

(١) انظر، ابن الاثير، الكامل، ج٤، ص ٣٦٨·

للدولة العباسية وما ان تسلم العباسيون مقاليد السلطة حتي نظروا الي العلويين نظرة ريبة باعتبارهم المنافسين لهم علي الخلافة ويشكلون مصدر خطر علي الدولة الجديدة. أما الشيعة العلويون فقد نظروا الي العباسيين كمغتصبين للسلطة من اصحابها الشرعيين،وهكذا دخل النزاع حول الخلافة مرحلة جديدة حيث أصبح نزاعا بين الهاشميين انفسهم. بين العباسيين والعلويين[١].

علي أن العلويين لم يكونوا متحدين او متفقين علي زعامة واحدة تنظم كفاحهم المسلح وغير المسلح تجاه العباسيين. ثم ان كثرة القيادات العلوية يعني بالتالي ان ولاء الشيعة في تلك الفترة لم يكن باتجاه واحد واضح نحو فرع علوي معين.

قامت حركة العلويين ضد أسرة بني العباس في المدينة، وكانت المدينة مركز الأسرة العلوية الكبيرة، وكان المنصور، يعتقد أن للعلويين سلطانا كبيرا هناك ولذلك فهو شديد الحرص علي قمع حركتهم وعلي بسط سلطانه علي الحرمين بصفته الامام. واجتهد المنصور في طلب مدبري الثورة وهما: محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن الذي يلقب " بالنفس الزكية" [وكان يدعي بالنفس الزكية لزهده ونسكه كما يقول المسعودي] واخوه ابراهيم. وكانت الدعوة للنفس الزكية والسبب في مطالبة محمد بن عبد الله بن الحسن

---

(١) انظر: د. فاروق عمر: بحوث في التاريخ العباسي، الطبعة الاولي بيروت، لبنان ١٩٧٧، ص ٩٣ (موقف العلويين السياسي من العباسيين اولا: الموقف كما تعكسه الرسائل المتبادلة بين المنصور ومحمد النفس الزكية).

بالخلافة انه كان يري احقيته في الملك وذلك من قبل ان يلي المنصور وربما قبل أخيه ابي العباس. وتقول الروايات ان ابا مسلمة كان قد راسل عبد الله بن الحسن ابو محمد هذا وانه عرض عليه الخلافة وان عبد الله قبلها. وكان يراسل جعفر الصادق ولم يقبلها ولولا تأخر الرسول في العودة لربما انتقلت الامامة فعلا الي الفرع العلوي.

وتقول الرواية ان عبد الله عندما عرض عليه هذا الأمر قال: انما يريد القوم ابني محمد لانه مهدي هذه الامة[١].

وكان محمد النفس الزكية واخوه ابراهيم قد تخلفا عن الحضور مع من حضر عنده من بني هاشم مع من حج علي ايام السفاح. والظاهر ان محمد ادعي ان المنصور كان قد بايعه في مكة في اواخر ايام مروان بن محمد وعلي هذا الأساس قام هو بالدعوة لنفسه. وهناك تفصيلات عن مطالبة المنصور لمحمد ولاخيه ابراهيم منذ سنة ١٤٠ هـ الي سنة ١٣٦هـ حينما اعلن الثورة.

في هذه الفترة تجشم العلويات الكثير من المشاق واضطر الي التنقل بين البصرة والمدينة والسند والكوفة كما ارسل محمد اخوته

---

(١) نفس المرجع ، ص ٩٣.

وابناءه في سائر الأمصار والبلدان للدعوة له، فأرسل ابنه عليا الي مصر يدعو اليه ولكنه قتل بها[١]٠

وحاول العلويون ان يدبروا مؤامرة لقتل المنصور في موسم الحج في سنة ١٤٠هـ ولكن هذه المؤامرة فشلت وراح ضحيتها بعض اصحاب محمد الذي كان قد عاد الي المدينة وتمكن بفضل تساهل واليها من الخروج عنها٠ وعزل المنصور هذا الوالي وعين مكانه محمد بن خالد بن عبد الله القسري وامده بالاموال وفوض اليــه سلطــات واسعة في كشف «تفتيش» المدينة ولكنه لم ينجح في مهمته٠ فعين المنصور عاملا اخر مكانه اسمه رياح بن عثمان بن حيان المري[٢] وذلك في سنة ١٤٤هـ وجد الوالي الجديد في طلب محمد ولكنه لم ينجح فلجأ الي سجن كل العلويين من أبناء الحسن من الفرع الحسني وليس من الفرع الحسيني فقيدوا بالحديد والسلاسل وعذب بعضهم بقسوة في حضرة المنصور، بل قتل البعض٠ ويسير بعدد منهم الي الكوفة حيث حبسوا٠ وازاء هذه الاجراءات التعسفيه اضطر محمد ان يضع حدا لهذه المأساة وذلك بأن اعلن الثورة في سنة ١٤٥هـ وعلم الوالي بما يدبره محمد فحاول تلافي الثورة وحمل اهل المدينة المسئولية الجماعية٠ وكان يساند الحركة العلوية من الناحية الشرعية القانونية الفقية مالك بن انس صاحب المذهب المالكي٠ من ذلك ان مالك بن انس حلل الناس من البيعة ومن يمين

(١) ابن الاثير، ج٤، ص ٣٧٤٠
(٢) نفس المصدر السابق، ص٣٧٣٠

الولاء للمنصور فقال لهم " انما بايعتهم مكرهين وليس علي مكره يمين[١] ولذلك لم يفلح التهديد وتشاور العلويون وكسروا السجن وحرروا اقاربهم ممن كانوا قد سجنوا وتوجهوا الي دار الامارة واستولوا عليها وأسروا الوالي.

وبعد أن استولي محمد علي المدينة بدأ في تنظيمها الاداري فاستعمل واليا وقاضيا وصاحب بيت السلاح وصاحب الشرط، وكذلك انشا ديونا للعطاء وسجل في الديوان اسماء اعوانه واتباعه.

وبدأ محمد يرسل الولاة الي الاقاليم المختلفة لدولته الناشئة، فأرسل واليا الي مكة هزم واليها العباسي وبعث باخر الي اليمن، وبثالث الي بلاد الشام. ولكن هذا الاخير لم يستطع ان ينجح في مهمته.

ويمكننا ان ننظر الي اختيار محمد للمدينة كمركز لثورته علي أنه عمل لا يدل علي بعد النظر السياسي، والظاهر أن محمد نفسه كان يعرف ذلك اذ تقول الرواية أنه قال في خطبته في المسجد: "أن أحق الناس بالقيام في هذا الدين ابناء المهاجرين والانصار" وقال: اني والله بين أظهركم وانتم عندي أهل قوة ولاشدة ولكني اخترتكم لنفسي[٢] هذا يعني ان المسألة في نظرة كانت مسألة تقليد وسنة لاتقوم علي اعتبارات اقتصادية أوبشرية وهنا لايكفي

---

(١) نفس المصدر السابق، ص٣٧٣.

(٢) نفس المصدرالسابق ص ٣.

وهذا لايكفي بطبيعة الحال لأن الظروف كانت قد تغيرت عما كانت عليه في الفترة الاولي في بداية الاسلام.

وعندما بلغ المنصور خبر الثورة جزع وطلب النصح من كل مايمكنه نصحه رغم علمه بعدم خطورة ثورة محمد في المدينة فانه لجأ الي استعمال السياسة والمدارة وكتب الي محمد ويطلب اليه العودة الي الطاعة ويعطيه الامان المطلق له ولاهله ولكل من بايعه مع الوعد بالزرق والعطاء الجزيل كما انه سوغه ما أصاب من دم أو مال. ورد محمد بالرفض بطبيعة الحال.

وهذه المراسلات التي دارت بين المنصور وبين محمد النفس الزكية تبين الاسانيد الشرعية والجدل الفقهي الذي كان يستند اليه كل من الفريقين فمحمد يقول: "فان الحق حقنا وانما أدعيتم هذا الامر بنا وخرجتم له بشيعتنا"، كما يقول "أن ابانا عليا كان الوصي وكان الامام فكيف ورثتم ولايته وولده احياء؟ ثم يقول: "وانا بنوام رسول الله صلي الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو في الجاهلية وبنو بنته فاطمة في الاسلام".

ثم هو بعد ذلك يؤمن المنصور ان دخل في طاعته واجاب دعوته علي نفسه وماله وعلي كل امر احدثت الا حدا من حدود الله أوحقا لمسلم أو معاهد فقد علمت مايلزمني من ذلك[١].

---

(١) ابن الاثير، الكامل، ج٥، ص٥

وهذا الشرط الاخير يدل علي صلابة في الرأي فيما يتعلق بالأمور الدينية وهو يدل في نفس الوقت علي عدم بعد النظر السياسي. كما أنه يلاحظ ان امان المنصور لايعتد به ويذكر بالامان الذي اعطاه لابن هبيرة ولعمه عبد الله بن علي والامان الذي اعطي لابي مسلم.

ولم يكن من العسير علي الخليفة العباسي ان يفند ادعاءات العلوي فهو يلفت نظره الي انه فخر بقرابة النساء لتضل به الجفاة والغوغاء ولم يجعل النساء كالعمومة لان الله جعل العم ابا. يحتج ان العباس من اعمام النبي صلي الله عليه وسلم اسلم تبعا لما تقوله الاية : وانذر عشيرتك الاقربين" بينما لم يسلم ابو طالب ثم هو يفند حقوق علي بن ابي طالب في الخلافة ويدفع بعدم كفاءته فانه رغم سابقته في الاسلام دعا النبي عندما مرض غيره للصلاة بالناس ثم انه لم ينتخب يوم السقيفة. ولما كان في الستة الذين عينهم عمر تركوه كلهم دفعا ولم يروا حقا له فيها.

وبعد أن يروي له قصة جهاد العلويين وفشلهم علي أيام علي الذي اجتمع الحكمان علي خلعه وحسن الذي باعها من معاوية وحسين الذي قتل ثم تقتيل الامويين لهم. ويقول ان العباسيين هم الذين طلبوا ثأرهم وادركوا بدمائهم وانه لايجوز له أن يأخذ ذلك حجة عليهم[١].

هذا عن دفع العلويين وتفنيد حججهم ثم هو بعد ذلك يبين

---

(١) ابن الاثير ، ج ٥ ، ص٦٥.

ادعاءات العباسيين في مطالبتهم بوراثة خلافة النبي فيقول ان العباس كانت له سقاية الحج، وولاية زمزم في الجاهلية والاسلام ثم يذكر حقوق العباس التي لاتنازع في هذا الميراث وهو انه لم يبق من بني عبد المطلب بعد النبي غيره بمعني انه يريد ان يجعل الخلافة تركة يرثها اقرب الناس الي النبي وهذه هي وجهة نظر أقارب النبي والشيعة . وهي في الحقيقة بعيدة عن السنة وعن روح الاسلام.

تلك كانت حجج كل من الفريقين . وكان علي القوة ان تقرر لمن تكون الخلافة. وندب المنصور عيسي بن موسي ولي العهد لمحاربة العلوي وارسل معه ابنه محمد واقترب عيسي من المدينة، واستشار محمد النفس الزكية اتباعه فاشار عليه البعض بالخروج من المدينة ولكنه اخذ برأي القائلين بالمقام ثم انهم بتفكيرهم المثالي التقليدي الساذج فكروا كما فعل النبي في حفر خندق يحميهم من المهاجمين. هذا مع أن بعضهم لم يغب عنه.. ضعف هذا الموقف من الناحية العسكرية الاستراتيجية .

ولم يكن تأييد اهل المدينة لمحمد قويا، كما خرج اناس من اهل المدينة بذراريهم واهليهم الي الاعراض والجبال وبقي محمد في شرذمة يسيره وامر المنصور نائبه الايقاتل اهل المدينة الافيما ندرو ان يتسامح معهم، ولكنه الح عليه في القبض علي محمد وعدم تمكينه من الهرب وان يعلن مسئولية جميع القبائل اذا تمكن النفس الزكية

من الفرار· وعرف محمد خنوع المدنيين واتخذ معهم بعض الاجراءات العنيفة ولكنه سمح في اخر الامر لمن يريد الخروج منهم ان يخرج· وحاصر عيسي المدينة وسد منافذها وتمكن جنده من الوصول الي الخندق فردموه وتفرق معظم اتباع محمد النفس الزكية الذي سقط قتيلا بعد قتال سريع مجيد وذلك في منتصف رمضان سنة ١٤٥هـ كانون أول «ديسمبر» ٧٦٢م[١]

ولم يكن للثورة العلوية من رد فعل في المدينة الا اضطراب السودان في البلد الذين استولوا علي بعض امتعةالوالي الجديد ولكن أمرهم انتهي الي الهدو[٢]

وهكذا يقضي المنصور علي محمد النفس الذكية ولكن بقي اخوه ابراهيم الذي خرج في البصرة والتي كانت ثورته اشد خطرا علي المنصور·

ثورة ابراهيم بن عبد الله بن الحسن اخى محمد بالبصرة:

كان ابراهيم يدعو - كما سبق القول - لاخيه محمد، واغلب الظن ان الاخوين كانا قد اتفقا علي أن يعملا منفصلين، وذلك حتي تتم المباغتة للدولة وحتي اذا ما انهزم احدهما نجا الآخر ولو عرف ابراهيم كيف يستغل الظروف ويسير بجيوشه ضد المنصور وقت ان

---

(١) ابن الاثير، الكامل، ج٥، ص ٨-١١·
(٢) ابن الاثير، ج٥، ص ١٣-١٤·

كان المنصور في ضعف نتيجة لانتشار قواته في اطراف الدولة لربما انتهت ثورته في البصرة بالنجاح.

وكما تقول الروايات اتخذ ابراهيم المشرق مجالا لنشاطه وذلك في فارس وكرمان والاهواز وذلك قبل قدومه البصرة واستقراره بها.

وبدأ ابراهيم حركته في البصرة في شهر رمضان سنة ١٤٥ هـ[١] بداية طيبة وكانت الظروف مواتية له اذ تقول رواية خليفة بن خياط، التي ترجع الي شهود عيان للاحداث ان الوالي سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب سلم دار الامارة الي ابراهيم من غير قتال[٢] ثم قوي امره بما استولي عليه من دواب الجند وما أخذه من الأموال بعد الاستيلاء علي دار الامارة. واستطاعت طلائع قواته وان تحرز بعض النصر علي القوات العباسية فاستولت علي الاهواز بعد ان الحقت الهزيمة بواليها، كما نجحت في دخول فارس وتمكنت من تملك مدينة واسط، وهي المركز الاستراتيجي الممتاز في ذلك الوقت.

ولم يكن لدي المنصور، إلا قلة من العسكر، اذ كانت جيوش الدولة موزعة في الحجاز وفي خراسان وفي افريقية التي كانت مضطربة ايضا، واحس المنصور بحرج موقفه فأظهر الزهد والتنسك والتقشف. ولكن سرعان ما استعاد رباطة جأشه فاستدعي عيسي بن موسي من المدينة وطلب بعض جيوشه التي كانت بالري وكتب الي

---

(١) ابن الاثير، الكامل، ج٥، ص ١٦.

(٢) ابن الاثير، تاريخ خليفة بن خياط، ج٢، ص٦٤٩.

المهدي ابنه يامره بارسال القوات لاستعادة الاهواز ووجه عيسي بن موسي الي قتال ابراهيم وطلب اهل الكوفة من ابراهيم المسير ليستعين بهم ولكن النصوص تقول انه كان مثاليا فخشي ان خرج أهل الكوفة اليه ان تفتك خيل المنصور بنسائهم واطفالهم[١]·

وأخيرا خرج ابراهيم من البصرة للقاء عيسي ونزل في موضع يعرف باسم باخمرا "علي بعد ١٦ فرسخ من الكوفة" وحسب تقاليد هؤلاء الثوار المثاليين، وكما حدث في المدينة رفضوا ان يقاتلوا فرقا حتي اذا ما انهزمت فرقة خرجت فرقة غيرها للقتال وامروا علي ان يقاتلوا صفا مثل أهل الاسلام رغم ماقيل لهم من ان الصف اذا انهزم تداعي سائره واقتتل الناس قتالا شديدا، وانتصر اصحاب ابراهيم في البداية ولكن الامر انتهي بهزيمتهم وبمقتل ابراهيم في ٢٥ من ذي القعدة سنة ١٤٥ هـ

وبذلك اندحرت الثورة العلوية وخلص الأمر للعباسيين·

بنـاء مدينـة بغـداد:

انصرف اهتمام المنصور، الي تشييد حاضره جديدة للدولة · وكان قد شرع في ذلك، عقب توليه الخلافة مباشرة· فتقول النصوص انه كان يبحث عن موضع مناسب لتلك العاصمة · وكان السفاح قد استقر في الانبار في الهاشمية وهي التي استقر فيها المنصور في اول

---

(١) ابن الاثير، الكامل، ج٥-ص١٨٠·

عهده - ولما كانت الهاشمية علي الضفة اليسري للفرات فانها كانت قريبة من الكوفة. والكوفة كانت مركز العلويين وهي التي سببت الكثير من القلاقل للدولة الاموية ربما كان هذا هو السبب في عدم اختيار ذلك الموضع لبناء العاصمة الكبري.

وتجمع الروايات علي أن المنصور لم يبن مدينته الجديدة في مكان قفر خال من السكان بل ان الكتاب يذكرون عددا من الاماكن العامرة بالقرب منها ويذكرون من بين هذه الاماكن بغداد علي الضفة الغربية لنهر دجلة وربما كانت هذه القرية نواة عاصمة المنصور المستديرة.

واسم بغداد يعني "عطية الله" وتقول النصوص ايضا ان المنصور عندما بناها سماها "مدينة السلام" وكان يطلق علي المدينة ايضا اسم المنصورية وذلك نسبة الي بانيها وكذلك عرفت باسم الزوراء.

وكان اختيار المنصور لذلك الموضع موفقا وذلك ان ازدهار المنطقة يرجع الي مركزها الممتاز من نواحي كثيرة. فالارض في هذا المكان خصبة جيدة بسبب وقوعها بين دجلة والفرات في ذلك الموضع الذي تضيق به المسافة بين النهرين، فكان يمكن تهيئة وسائل الري فيها بسهولة عن طريق القنوات التي تصل بين النهرين والتي كانت صالحة للملاحة. ووجود هذه القنوات كان يجعل المدينة في

موضع استراتيجي حصين فتقول الرواية انه قيل للمنصور عندما اختار هذا الموضع: "انت بين انهار لايصل اليك عدوك الا علي جسر أو قنطرة فاذا قطعت الجسر واخربت القنطرة لم يصل اليك. ودجلة والفرات والصراة خنادق هذه المدينة، وانت متوسط للبصرة والكوفة وواسط الموصل والسواد وانت قريب من البر والبحر والجبل[١].

ووضع المنصور بيده اول لبنة في بناء المدينة في سنة ١٤٥ هـ وقال "بسم الله والحمد لله والارض لله يورثها من يشاء من عبادة والعاقبة للمتقين ثم قال ابنوا علي بركة الله"[٢]

وبعد تخطيط المدينة، وبلوغ السور مقدار قامة، قامت الثورة العلوية في المدينة والبصرة فصرف المنصور كل همه اليها وترك البناء حتي تم له القضاء علي النفس الزكية واخيه ابراهيم.

واستلزم البناء جمع عدد كبير من الصناع والفعلة من مختلف الجهات وهناك تفصيلات عن العمال ومراتبهم من: الاستاذ الي الروزكاري. وأشرف علي البناء وحساب النفقات قوم من ذوي الفضل والعدالة والفقه وذوي الأمانة والمعرفة بالهندسة من هؤلاء الفقيه الشهير ابو حنيفة النعمان صاحب المذهب الحنفي[٣].

وقسمت المدينة الي أربعة مناطق تسمي ارباع وذلك تحت

---

(١) ابن الاثير، الكامل، ج٥، ص ١٤

(٢) نفس المصدر السابق، ص١٥.

(٣) ابن الاثير، الكامل، ج٥، ص١٥.

اشراف اربعة من القواد يسهرون علي العمل الذي استمر طوال اربع سنوات. وخططت المدينة ورسمت حسب خطة جعلتها تتسع في شكل دائري. فالنص يقول "وجعل المدينة مدورة لئلا يكون بعض الناس اقرب الي السلطان من بعض وبدئ ببناء قصر الخليفة في وسطها، والي جانب القصر بني المسجد الجامع. ويفهم من النصوص ان مدينة المدائن القديمة امدت بغداد بكثير من مواد البناء الكبيرة التي قامت عليها. وحول نواه المدينة اي حول القصر والجامع تجمعت بغداد في شكل دائري وقسمت الي احياء منفصلة تخترق هذه الاحياء طرق عريضة مستقيمة كان يبلغ عرض الطريق منها ٤٠ ذراعا واتسعت المدينة وعملت فيها مجاري المياه، وأقيمت فوقها القناطر وانشئت المهاريج، وحصنت المدينة تحصينا قويا حتي تكون الاقامة فيها مأمونة ثم احيطت بسورين أحدهما من الداخل والاخر خارجي، وكان السور الداخلي اعلي من السور الخارجي. وكانت المنطقة بين السورين تسمي الفصيل. وجعل للمدينة أربعة ابواب المسافة بين كل من باب من ابوابها والباب الذي يليه تقدر بميل. ومن هذه الابواب باب خراسان وكان يسمي باب الدولة لاقبال الدولة العباسية من خراسان وهو في الشرق وباب الكوفة الذي يسمي ايضا باب الكوخ في اتجاه الكوفة وفي اتجاه الحجاز وفي الغرب باب الشام، وفي اتجاه الجنوب باب البصرة، وهو يوصل الي منطقة الاهواز وفارس وخورستان. ويقال ان المنصور لم يصنع للمدينة ابوابا جديدة ولكنه استجلب لها الابواب من مدينة واسط باستثناء باب الشام الذي صنعه المنصور. وشعر المنصور بضيق قصره وسط المدينة التي تموج بالسكان، وبني بعد الانتهاء من المدينة المدورة وخارج اسوارها

الشرقية قصرا ثانيا هو قصر الخلد. وحدث شغب بين أهل السوق فاضطر الخليفة ان يخرج اهل الاسواق من المدينة وان يسكنهم في منطقة الكرخ في الجنوب. وبني ايضا المنصور الجزء الشرقي من بغداد وأنشا في هذا المكان الجديد وشمال القصر الذي خصص ليكون معسكرا لولي العهد المهدي قصر "الرصافة"[١] ووزعت الاراضي المحيطة بالمدينة كاقطاعات لاقارب المنصور ولمواليه ولكبار رجال الحاشية.

ومن هذا الوصف يمكن ان نرجح ان المنصور عندما بني مدينته كان يهدف الي بناء معسكر لجنده الخراسانية بعيدا عن مدينة الكوفة بمعني أن نشأة بغداد كانت اشبه ماتكون بنشاة المدن التي بنيت في صدر الاسلام مثل: البصرة والفسطاط والقيروان التي أسست لتكون قواعد عسكرية للجند العربي في تلك الاقاليم.

بعض مظاهر نظم الدولة:

وظهرت المدينة الجديدة بمظهر يختلف عن مدينة دمشق حاضرة الامويين فالخليفة العباسي ظهر بمظهر الامام أولا وقبل كل شئ وكلمة الامام هنا لها معني دينيا اكثر من كلمة الخليفة او كلمة امير المؤمنين فالامام هنا مشتقة من امامة الصلاة.

وعمل العباسيون علي تاكيد صفتهم الدينية هذه فكانوا يرتدون

---

(١) ابن الاثير، الكامل، ج٥، ص٣٣-٣٤.

البردة التي كان يلبسها الرسول «صلي الله عليه وسلم» هذا في الوقت الذي عهدوا اليه بجزء كبير من سلطانهم الزمني الي الوزير. ووظيفة الوزير تعتبر تجديدا عباسيا فيما يتعلق بادارة الدولة وذلك ان اللقب لم يعرف عند الامويين قبل ذلك. كان اللقب عند الامويين هو لقب الكاتب[1].

واحاط الخليفة العباسي نفسه بمظاهر الابهة والعظمة.

أما عن البلاط العباسي، فكان يظهر فيه الي جانب أفراد الاسرة وآل النبي صلي الله عليه وسلم، وهؤلاء كانوا يكونوا طبقة الاعيان، الي جانبهم كان يظهر كبار رجال الدولة والموالي، كما كان هناك القراء والفقهاء والاطباء وعلماء الفلك والشعراء والموسيقيون والمضحكون والخصيان. كل هذا يعني ان خليفة بغداد لم يعد شيخ قبيلة بل اصبح وريث ملوك فارس.

ولم تعد الوظائف الكبيرة في الدولة وقفا علي النبلاء بل أصبحت تمنح وكذلك اصبحت الملابس الرسمية التي تعرف بالخلع هي السمة المميزة لاصحاب الرتب الكبيرة، وكذلك القلانس الطويلة التي أمر المنصور كبار موظفيه بلبسها.

واذا كان الامويون قد عرفوا وظيفة الحاجب وهو الرجل الذي

---

(1) انظر، الجهشياري، كتاب الوزراء، ص ٣٩٤ ص ٨٤-٨٥.

ينظم مقابلات الخليفة فان الخليفة العباسي اصبح بعيدا كل البعد عن العامة بفضل عدد كبير من الحجاب والموظفين ورجال الدولة الذين كانوا يزدادون عددا من مرور الوقت.

والي المنصور يرجع الفضل في وضع نظم الدولة العباسية فقد حافظ علي النظام الساساني البيزنطي الذي كان معمولا به علي أيام الامويين كما أنه جدد بناء هذا التنظيم فأصبح علي كل ولاية عامل او وال وكان لافراد الأسرة نصيب كبير في هذه الولايات.

البريـــــد

وبفضل نظام البريد الذي عرفه الامويون والذي توسع فيه المنصور استطاع الخليفة ان يفرض رقابة شديدة علي ادارة الولايات المختلفة.

وكان علي أصحاب البريد ان يقوموا بكل الاستعلامات رغم ان عملهم كان يتركز في امداد الخليفة بالمعلومات المتعلقة بقيام الولاة باداء مهام وظائفهم في أعمالهم. وكانت تقارير اصحاب البريد لها أهمية خاصة فعن طريق هذه التقارير كان تعرف حالة المحاصيل لتتخذ الاجراءات المناسبة في الوقت المناسب عندما يكون الوقت وقت جدب. وكانت احصاءات البريد هذه المصدر الذي استقي منه الجيل التالي علم الجغرافية الذي ازدهر عند العرب.

وتقول النصوص ان المنصور قال: "ما احوجني ان يكون علي بابي اربعة نفر لايكون علي بابي أعف منهم هم اركان الدولة ولايصح الملك الابهم. اما احدهم فقاض لاتأخذه في الله لومة لائم، والاخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي وصاحب خراج يستقصي ولايظلم الرعية فاني عن ظلمها غني ثم عض علي اصبعة السبابة ثلاثة مرات يقول في كل مرة اه اه قيل: ماهو ياامير المؤمنين؟ قال: صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء علي الصحة[١].

الفقـــــه:

وضم المنصور الي بلاطه كبار الفقهاء وأصحاب المعرفة بعلم الحديث والفقه. وكان تقريب الفقهاء يعني ان الدولة المثالية التي تعتني بنشر العدل والشرع اصبحت حقيقة واقعة.

وفي ذلـك الوقت كان مؤسسا المذهبين الكبيرين الا وهما: المذهب الحنفي والمذهب المالكي علي قيد الحياة كانا يميلان الي العلويين يقال ان ابا حنيفة كان يميل الي ابراهيم بن عبد الله عندما قام بثورته في البصرة.

وأبو حنيفة النعمان بن ثابت كان من الموالي هذا ولوان اصحابه وتلاميذه سيضعون له نسبا يرجع الي ملوك آل ساسان.

---

(١) ابن الاثير، الكامل، ج٥، ص٤٦

وعاش ابو حنيفة في الكوفة وكان يشتغل بتجارة الحرير، وتوفي ابو حنيفة في سنة ١٥٠هـ/٧ في بغداد. وكان قد قام بالقاء الدروس في الكوفة وكانت له اراؤه الفقهية وفتاويه. وتتميز مدرسة ابوحنيفة في التوسع في استعمال "الرأي" وكذلك القياس.

اما عن مالك بن انس مؤسس المذهب المالكي بالمدينة فقد عرف بميله للعلويين ايضا، والظاهر أنه عوقب وضرب بالسياط لهذا السبب وذلك بعد ان فشلت ثورة النفس الزكية. ولكن الخلفاء سيقدرون مالك فيما بعد وسيزوره هارون الرشيد عند ادائه فريضة الحج وذلك قبل موته بقليل. وبينما كان اتباع مالك ينشرون مذهبهم في بلاد العرب خاصة وفي الاندلس، دخل الحنفيون في خدمة الدولة وعملوا علي نشر مذهبهم وخاصة بعد أن شغل أبو يوسف (احد تلاميذ ابو حنيفة) منصب قاضي القضاة، فأصبح المذهب الحنفي هو المذهب الرسمي.

ومدرسة مالك بن انس مبينة علي الاحاديث وذلك بسبب وجوده في مدينة الرسول صلي الله عليه وسلم وهو يهتم بالمتن اكثر من اهتمامه بالاسناد وهو علاوة علي اتخاذه القران والسنة كأصلين للتشريع يضيف اليهما ما تعارف عليه اهل المدينة .أي انه يري ان الاجماع هو اجماع اهل المدينة .

فتنـة الموصل سنـة ١٥٨هـ:

وبتأسيس العاصمة الجديدة بغداد اصبحت سياسة الدولة شرقية ورغم أن المنصور اهتم اهتماماً كبيرا بتأمين وصيانة حدود دولته فعمل علي تعقب الخارجين والقضاء عليهم فان هذه السياسة الحازمة لم تمنع قيام الثورات في كثير من الجهات من ذلك ثورة الخوارج بالموصل سنة ١٥٨ هـ والقلاقل التي أثارها الاكراد بهذه الجهات مما جعل المنصور يستعمل خالد بن برمك علي الموصل فقهر خالد المفسدين وكانت له هيبة في نفوس الناس[١]٠

ثـورة استـاذ سيس:

قامت بخراسان ثورة بقيادة رجل يعرف باسم استاذ سيس وذلك في سنة ١٥٠هـ، وكانت هذه الثورة خطيرة مثلها في ذلك مثل الثورات المذهبية التي قامت بايران٠ فيقال ان هذا الرجل ادعي النبوة وان اصحابه اظهروا الفسق وقطع السبيل، وانضم الي جانب هذا الرجل كثير من الاتباع "وغلب علي عامة خراسان"٠ واستطاع أن يوقع الهزيمة بعدد من الجيوش العباسية، ولكن امره انتهي بالهزيمة بعد ان سبب للدولة متاعب شديدة[٢]٠

---

(١) ابن الاثير، الكامل، ج٥، ص٤٦-٤٧٠
(٢) ابن الاثير، الكامل، ج٥، ص٢٨-٢٩٠

السياسة الخارجية:

الحرب ضد بيزنطة:

أما عن السياسة الخارجية فانها كانت تتلخص في الصراع الذي اصبح تقليديا بين الاسلام وبين الدولة البيزنطية، ولقد طال الصراع ضد بيزنطة لمدة زادت علي أربع قرون هي التي بدات بالتوسع الاسلامي وإنتهت سنة ١١٩٥هـ بالحروب الصليبية. ورغم طول هذه الفترة كانت هذه الحرب سقيمة لم يستطع احد طرفيها ان يحرز اثناءها انتصارا حاسما وخلال هذه الفترة عرفت بيزنطة عصرا من القوة علي ايام الاباطرة الايسوريين وكان هذا من اسباب رجحان كفة بيزنطة ولكن اتت مسألة النزاع الداخلي في بيزنطة من اجل عبادة الصور ثم الاضطرابات التي دلتها فاضعفت من قوة بيزنطة وهكذا كانت الفرصة مواتية، للمنصور في سنة١٤٩هـ ولكي يوجه هجوما ضد البيزنطيين.

والحقيقة ان الامبراطورية البيزنطية لم تكن مهددة تماما من جانب الخلافة كما ان الخلافة كانت أقل عرضة للخطر من جانب البيزنطيين ولهذا السبب يطلق بعض الكتاب الافرنج علي هذه الحرب اسم "حرب العظمة" فهو يري ان هذه الحرب لم تكن ضرورية ولكن الاسلام كان عليه ان يشعر دولة الكفار بسطوته وهيبته ولهذا كانت تقوم القوات الاسلامية بتلك الحملات التي تعرف باسم "الصوائف

والشواتي" وهو يري ان المصالح الاقتصادية بين بيزنطة وبين الاسلام كانت توجب قيام اتفاق ودي بين الطرفين

وعلي أية حال كان مجال العمليات العسكرية ضد بيزنطة هي المنطقة المحاذية لجبال طوروس في الشرق وهي المنطقة التي عرفت عند الكتاب باسم "العواصم" أو "الثغور" ومعناها الحد الذي يفصل بين دولة الاسلام وبين دولة الكفر خلف هذه المنطقة كانت توجد الممرات والمنافذ في الجبال وكانت هذه الممرات محمية بالقواعد والقلاع، وهذه القواعد كانت مدنا اغريقية قديمة جددها العرب واعادوا بناءها وحولوها الي حصون وأهم هذه الحصون ادنه وطرطوس والمصيصة وسميساط وملطية، ومرج دابق، وخلف هذه القلاع كانت تمتد اقاليم اسية الصغري وهي ارض الروم وهذه الارض كانت هدف القوات الاسلامية خلال الصوائف والشواتي ترهب بها الاعداء وترجع بالسبي والمغانم اما عن الهدف الحقيقي للجيوش الاسلامية فكان هو عاصمة الدولة البيزنطية. ولكن قوات الاسلام لم تستطع تحقيق الاستيلاء علي القسطنطية.

والذي يلاحظ هو ان الصوائف لم تكن تذهب علي ايام المنصور الي بيزنطة الا اذا كان العسكر غير منشغلين في اخماد ثورة... تقول الرواية في سنة ١٣٧هـ "لم يكن للناس في هذه السنة صائفة لشغل السلطان بحرب سنباذ"(١)

---

(١) ابن الاثير، الكامل، ج٤، ص٣٥٨.

ولهذا السبب نجد انه في السنة التالية يتمكن الامبراطور قسطنطين من اخذ ملطية وبهدم اسوارها ولكن المسلمين استطاعوا ان يستعيدوها واعادوا بناءها وعمروها .

وبعد ذلك عقدت معاهدة في سنة ١٣٩ هـ بين المنصور وبين الامبراطور قسطنطين وعلي ذلك فلم تعد الغارات الا في سنة ١٤٦هـ بعد ان أنتهي المنصور من حرب العلويين[١] .

خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد والبيعة للمهدي:

اضطر عيسي في سنة ١٤٧ هـ ان يحل الناس من البيعة له وذلك بعد ضغط شديد من المنصور استعمل فيه الكثير من الاساليب العنيفة واخذ المنصور البيعة لابنه المهدي بدلا من عيسي الذي اصبح يلي المهدي في ولاية العهد - وتقول الرواية ان عيسي قال "انا ذا أشهد ان نسائي طوالق ومماليكي احرار وما املك في سبيل الله تصرف ذلك فيمن رأيت ياأميرالمؤمنين" .

ويقال ان الناس تندروا بعد ذلك بقولهم: "هذا الذي كان غدا فصار بعد غد"[٢]

---

(١) نفس المصدر السابق، ج ٤، ص٣٥٩ - ٣٦٠ .

(٢) نفس المصدر، ج٥، ص ٢٢-٢٣ .

وفـاة المنصـور:

وفي شهر ذي الحجة من سنة ١٥٨ هـ توفي المنصور وكان في طريقه الي الحج بالقرب من مكة ·

وكان المنصور كما تصفه الروايات من الحزم وصواب التدبير وحسن السياسة علي ماتجاوز كل وصف[١] فقد كان يشغل صدر نهاره بالامر والنهي والولايات والعزل وشحن الثغور والاطراف وامن السبل، والنظر في الخراج والنفقات، ومصلحة معاش الرعية ·· فاذا صلي العصر جلس لاهل بيته فاذا صلي العشاء الاخيرة جلس ينظر فيما ورد من كتب الثغور والاطراف·· وشاور سماره فاذا مضي ثلث الليل قام الي فراشه وانصرف سماره، واذا مضي الثلث الثاني قام فتوضا وصلي حتي يطلع الفجر ثم يخرج فيصلي بالناس، ثم يدخل فيجلس في ايوانه[٢]·

---

(١) المسعودي، مروج الذهب، ج ٤،ص ١٦٣،
(٢) ابن الاثير، الكامل، ج٥، ص٤٧،

الفصل السادس

خلافة المهدي

خلافـــــة المهـــــدي

١٥٨ - ١٦٩هـ

مات المنصور - كما سبق القول - بالقرب من مكة وهو في طريقه لأداء فريضة الحج، واحتفل بتأبينه وأخذ البيعة لابنه المهدي.

ويفهم من النصوص أن الذي اخذ البيعة للمهدي هو ابنه موسي «الهادي» وكان من بين الحاضرين عدد من كبار رجال الدولة، وبعض عمومه الهادي بل وتذكر الرواية ان عيسي بن موسي، ولي العهد الثاني، كـان حاضـرا بـدوره كـان مترددا، والنص يقول: "ابي من البيعة". ولكنه بايع [١]

ووصل نبأ وفاة المنصور الي المهدي الذي كان ببغداد في منتصف شهر ذي الحجة وارسلت اليه اشارات الملك وهي: بردة النبي صلي الله عليه وسلم، والقضيب وخاتم الخلافة.

وفي بغداد تمت البيعة الثانية للخليفة الجديد وهي "بيعة العامة وأولي" المشاكل التي اعترضت المهدي هي ولاية العهد، فقد كان عيسي بن موسي هو ولي العهد الثاني. ومر عيسي بن موسي بنفس المحنة التي عرفها في عهد المنصور، فقد التعرض للاضطهاد

---

(١) ابن الاثير، الكامل، ج٥، ص٥٠.

والتهديد والترغيب ومحاولة اقناعه عن طريق الفقهاء والقضاة خلع نفسه في أوائل سنة ١٦٠هـ، وبايع للمهدي، كما بايع ابنه موسي الهادي بولاية العهد. ثم جلس المهدي في الغد، وأحضر أهل بيته وأخذ بيعتهم، وخرج الي الجامع ومعه عيسي بن موسي لخطب الناس واخبرهم بخلع عيسي والبيعة للهادي فاسرع الناس لمبايعته.

أما عن العلويين فلا تذكر الروايات انه قام باعمال عنيفة ضدهم وكان المهدي كما تقول الرواية محببا الي الخاص والعام. لأنه افتتح امره برد المظالم وكف عن القتل وأمن الخائف وانصف المظلوم. الا ان المهدي كما يفهم من النصوص استثني بعض العلويين من التمتع بالعفو، وهو الحسن بن ابراهيم بن عبد الله بن الحسن بن علي مما اضطره الي الهرب من سجنة واقلق ذلك الخليفة ولكن الامر انتهي بطلب العلوي الامان من الخليفة فأمنه المهدي ووصله

واطلق المهدي كما تقول الرواية ابني داود بن طهمان، الذي كان يناصر ابراهيم في البصرة وقرب ابنه يعقوب - بن داود - تقريبا شديدا واستوزره وقرب داود بدوره الزيدية من العلويين "فجمعهم وولاهم أمور الخلافة في الشرق والمغرب "وكان ذلك من الأسباب التي دفعت الشاعر بشار بن برد الي أن يقول بيتية المشهورين:

بنـــي امـــية هبوا طال نومكـــــم ان الخليفة يعقوب بـــن داود
ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا خليفة الله بين الناي والعود

والظاهر ان الخليفة ادرك خطورة امر ترك مقاليد أمور الدولة الي وزيرة فتخلص منه، سجنه، وذهب بصره في السجن، وبقي محبوسا حتي عهد هاروق الرشيد، اذ شفع اليه فيه يحيي بن خالد بن برمك، فأمر الرشيد باخراجه من سجنه، واحسن اليه ورد اليه ماله، وأختار يعقوب الاقامة في مكة فاقام بها حتي مات في سنة ١٨٧هـ[١]٠

موقـــف الخـــــوارج:

كان الخوارج يلجأون كعادتهم الي القيام بأعمال العنف والشدة من ذلك ما تذكره النصوص من قيام ثورة خارجية بخراسان في سنة ١٦٠ هـ تزعمها رجل يعرب باسم يوسف بن ابرهيم ويلقب "بالبرم" وقد قيل أنه كان حروريا واستطاع التغلب علي بوشنج ومرو الروذ والجوزجان، ولكن جيوش الخليفة استطاعت القضاء علي الثوار والقبض علي يوسف هذا الذي سبق الي الرصافة حيث قطعت يداه بها ورجلاه وقتل هو اصحابه وصلبوا علي الجسر٠

وفي اواخر هذه السنة قامت ثورة خارجية أخري بنواحي الموصل، ينفرد بذكر تفصيلات دقيقة عنها خليفة بن خياط في تاريخه، كما ينفرد بايراد نص الرسائل المتبادلة بين الثائر الخارجي

(١) ابن الاثير، الكامل، ج٥، ص٦٦٠

عبد السلام اليشكوي والخليفة المهدي وقد سببت حركة اليشكري - الذي استولي علي معظم ديار ربيعه - الكثير من المتاعب للدولة، وذلك قبل ان يقضي عليها ويقتل زعيمها ·

الحركـات المذهبـــية:

حركـة المقـنع:

أما عن الحركات المذهبية التي اشتهرت بها خراسان منذ مقتل ابي مسلم فانها انتجت علي أيام المهدي ثورة كبيرة قام بها رجل يعرفه الكتاب بلقب "المقنع" وهذا الرجل كان يؤمن بالتناسخ، واسم هذا الرجل هاشم وهو من مرو الروذ، واعتنق هاشم فكرة التناسخ والحلول فقال: "أن الله خلق آدم فتحول في صورته، ثم في صورة نوح وهلم جرا الي ابي مسلم الخراساني ثم تحول الي هاشم· وكان هذا يعني ان روح الله قد تقمصته وعلي ذلك يقول بعض الكتاب أنه ادعي الالوهية · وبدأت الدعوة التي قام بها المقنع في منطقة كش ونسف - من أرض ما رواء النهر - والتف حوله جمع كثير وأيده أعداء الدولة من أتباع مذهب ابي مسلم الذين عرفوا بالمبيضة ببخاري والصغد، وساعد هذه الثورة قيام الثورة الخارجية في خراسان «ثورة البرم» وكذلك اعانة الترك الذين استنجد بهم فتمكن المقنع من السيطرة علي الاقليم في وقت قليل، كما استطاع ان يحقق عددا من الانتصارات علي قوات الخلافة التي سارت ضده· وكان الرجل يظهر

امام الناس مرتديا قناعا، هذا القناع منسوج بخيوط الذهب حتي يبهر الابصار عن طريق اشراق الانوار الالهية كما كان يدعي. وتقول النصوص ان اتباعه كانوا يسجدون له، ولهذا السبب عرف بالمقنع وربما كان السبب في ارتدائه ذلك القناع هو محاولته اخفاء تشويه وجهه. اذ تقول الرواية "انه كان أعور" [١].

وبعد عدة حملات كللت بالظفر استطاعت الجيوش العباسية هزيمة الثوار في منطقة بخاري بعد ان ضيقوا عليهم الخناق وحاصروهم حوالي اربعة اشهر ولكن المنهزمين لم يستسلموا اذ لحقوا بالقوات الرئيسية للمقنع وطالت المناوشات طوال سنة ١٦٠هـ دون جدوي في السنة التالية وهي سنة ١٦١ هـ تجمعت قوات الخلافة وتقدمت نحو التأثر، وشددت عليه الحصار حتي اضطر كثير من أتباعه الي الاستسلام وذلك بعد أخذ الامان سرا منه وبقي المقنع في قلة من أصحابه زهاء الفين، وعندما أيقن بالهلاك اضطر الي القاء نفسه هو وأهله ونسائه وخواصه في النار وذلك بعد ان احرق كل مافي قلعته. ومن دابة وثوب غير ذلك، وتقول الرواية انه قال: من أحب أن يرتفع معي الي السماء فليلق نفسه معي في هذه النار. [٢]

ورغم القضاء علي الفتنة، وقتل امير بخاري، فان ذلك المذهب

---

(١) ابن الاثير، الكامل، ج٥، ص٥٢.

(٢) نفس المصدر، ص٥٨.

ظل باقيا في كش وبعض قري بخاري ونهاية هاشم الغريبة هذه كانت سببا في افتتان من بقي من اصحاب كما تقول النصوص.[١].

وتقول النصوص ان المهدي "جد في طلب الزنادقة والبحث عنهم في الافاق وقتلهم" [٢] كما تقول الرواية انه قال لولي عهده الهادي وقد قدم اليه زنديقا فقتله وامر بصلبه يابني اذا صار الامر اليك فتجرد لهذه العصابة يعني اصحاب ماني - فانها تدعو الناس الي ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا، والعمل للاخرة ثم تخرجها من هذا الي تحريم اللحوم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تحرجا، ثم تخرجها الي عبادة اثنين، احدهما النور والاخر الظلمة، ثم تبيح بعد هذا نكاح الاخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الاطفال من المهد لينقذوهم من ضلال الظلمة الي هداية النور. فارفع فيها الخشب وجرد السيف فيها وتقرب بأمرها الي الله[٣]

وحوالي ذلك الوقت عهد المهدي بالتفتيش علي الزنادقة الي موظف خاص يعرف باسم المتولي لامر الزنادقة اوصاحب الزنادقة. وتذكر الرواية أن اول من تقلد هذا المنصب الجديد هو عمر الكلواذاني[٤] الذي توفي سنة ١٦٨، فولي مكانه محمد بن عيسي بن حمدوية الذي كان عنيفا "فقتل من الزنادقة خلقا كثيرا"[٥].

---

(١) ابن الاثير، الكامل، ج٥، ص٥٨.
(٢) انظر، ابن الاثير، الكامل، ج٥، ص٦٩.
(٣) نفس المصدر، ص٨١.
(٤) ابن الاثير، ج٥، ص٦٩.
(٥) ابن الاثير، ج٥، ص٦٣.

ولاشك في أن تهمة الزندقة هذه كانت تحقق للخليفة ولعماله هدفين في وقت واحد اول هذه الهدفين هو التخلص من الأعداء السياسيين والثاني كسب حب الشعب. وهناك نصوص نستشف منها ذلك فعندما يود الخليفة التخلص من وزيره برميه بالزندقة وتذكر الرواية ان المهدي عندما تجهز لغزو الروم في سنة ١٦٣هـ أرسل وهو بحلب - لجمع من بتلك الناحية من الزنادقة فجمعوا فقتلهم وقطع كتبهم بالسكاكين[١].

ونهج خلفاء المهدي نفس السياسة فوجهوا تهمة الزندقة الي كل من ارادوا التخلص منه بل والي كل اصحاب الاراء التي لاترضي الخليفة.

اما عهد المهدي فهو عهد ازدهار ورخاء. وقد قصد بابه الشعراء فاكرمهم واغدق عليهم. ويرجع الفضل الي المهدي في انشاء شبكة من الطرق وكذلك تحسين نظام البريد. وعلي ايام المهدي غدت مدينة بغداد المحطة الرئيسية لتجارة الهند، وبفضل اهتمام الخليفة ازدهرت الصناعة واهتم المهدي اهتماما خاصة كماتقول النصوص بالحرمين، فأمر ببناء المحطات للقوافل علي طول الطريق الي مكة، وأمر ببناء المصانع «الصهاريج» لخزن المياه، وحفر الابار، وقلد هذا العمل لموظف خاص اطلق عليه "صاحب المصانع"[٢]. كما أمر المهدي كما تقول الرواية في سنة ١٦٧هـ باقامة البريد بين مكة

---

(١) ابن الاثير، الكامل، ج٥، ص٦٣.

(٢) انظر، ابن الاثير، ج٥، ص٦٠، ص ٦٤ حيث تقول الرواية ان المهدي سار للحج، فلما بلغ العقبة ورأي قلة الماء خاف" ولحق الناس عطش شديد حتي كادوا يهلكون، وغضب المهدي علي يقطين لانه صاحب المصانع.

والمدينة وكذلك بينهما وبين اليمن "ولم يكن هناك بريد قبل ذلك"[١] وعلي ايامه جددت كسوة الكعبة، كما أمر بالزيادة في المسجد الحرام ومسجد النبي صلي الله عليه وسلم [سنة ١٦٧هـ] فدخلت فيه دور كثيرة.

وعلي عهده ايضا تم بناء مسجد الرصافة وسورها وخندقها، كما زاد في مسجدي البصرة والموصل.[٢]

وتنسب اليه النصوص انه وضع في سنة ١٦٢هـ ديوان الازمة كما "اجري علي المجذمين وأهل السجون الازراق في جميع الافاق"[٣].

السياسة نحو بيزنطة:

وكانت سياسة المهدي ازاء بيزنطة، نفس السياسية التقليدية للدولة العربية الاسلامية، وينسب للمهدي تجهيز حملات قوية ضد بيزنطة ولكنها لم تحرز انتصارات حاسمة.

ففي سنة ١٦٣هـ تذكر الرواية أن المهدي تجهز بنفسه وأعد عدة عظيمة وجمع الاجناد من خراسان وغيرها، وخرج علي رأس قوات كبيرة، وكان بصحبته ابنه هرون ((الرشيد)) بينما استخلف علي بغداد

---

(١) انظر، ابن الاثير، ص٦٨.
(٢) ابن الاثير، ج٥، ص٥٧، ص ٦٩.
(٣) ابن الاثير، ج٥، ص ٦٩.

ابنه موسي «الهادي»، وسار الي الموصل الجزيرة ومن هناك عبر الفرات الي حلب، ثم رافق ابنه هرون حتي جاز الدرب «أي الممر] المؤدي الي ارض الروم، وهناك ودعه وعاد ادراجه ليزوربيت المقدس[١].

وسار الرشيد بأرض العدو وكان بصحبته عدد من كبار القواد منهم عيسي بن موسي والحسن بن قحطبة، كما كانت امانة الحملة من امور العساكر والنفقات والكتابة موكولة الي يحيي بن خالد الذي كان كاتب الرشيد واغلب الظن ان هذه الحملة لم تأت بنتائج كبيرة وذلك انها تمكنت من فتح احد الحصون فقط بعد حصار استمر أكثر من شهر، وفي سنة ١٦٤ هـ أي السنة التالية ردت بيزنطة بأن تقدم البطريق ميخائيل وتحدي الصائفة الاسلامية التي اضطرت الي الانسحاب وعادت مما اثار سخط المهدي علي قائد الصائفة حتي انه رغب في قتله.[٢]

وترتب علي ذلك انه في سنة ١٦٥ هرسير المهدي ابنه هرون «الرشيد» علي رأس حملة عظيمة بلغت حوالي «٩٥ الف رجل كما تقول الرواية»[٣] والظاهر انها لاقت نجاحا اذ أن القائد البيزنطي اضطر الي الانسحاب امام هرون الذي توغل هو والخرسانية في أرض

---

(١) نفس المصدر، ص٦٣.
(٢) ابن الاثير، الكامل، ج٥، ص٦٤.
(٣) نفس المصدر السابق، ص٦٥.

الروم الي أن وصلوا الي خليج البوسفور. وخافت ايرين «أمراة اليون كما يقول بن الاثير» الوصية علي ابنها قسطنطين السادس واضطرت الي عقد الصلح او الهدنة لمدة ثلاث سنوات علي ان تدفع الجزية السنوية، وسينقض البيزنطيون هذه الهدنة قبل حلول اجلها وذلك في أواخر سنة ١٦٨هـ أي قبل وفاة المهدي[١].

أما عن موقف المهدي ازاء المغرب والاندلس فسنراه بتفصيل فيما بعد اما من جهة المشرق فتقول النصوص أن المهدي أهتم بالمشرق حتي بلاد الهند وذلك انه ارسل حملة بحرية الي هذه البلاد ١٦٩هـ وكانت هذه الحملة تحوي كثيرا من الجند النظامي والمتطوعة، وهاجمت هذه الحملة احدي المدن الساحلية الهندية، وخربت معبد المدينة آلبوذي "البد" واخذت المدينة، وعاد المسلمون محملين بالاسري والمغانم ولكن الحملة انتهت نهاية اليمه قرب ساحل فارس اذ عصفت بها الرياح فتكسرت معظم المراكب.[٢].

مـــوت المهـــدي:

وفي سنة ١٦٩ هـ مات المهدي، بعد خلافه دامت عشر سنين، وترك الخلافة لابنه موسي الذي تلقب بالهادي.[٣]

---

(١) انظر: ابن الاثير: الكامل: ج٥، ص٦٥.
(٢) نفس المصدر السابق: ص٥٥.
(٣) نفس المصدر السابق: ص٧١.

الفصل السابع

خلافة الهادى

خلافـــة الهـــادى
١٦٩ - ١٧٠هـ

بويع لموسي «الهادي» بالخلافة، في بغداد في نفس اليوم الذي مات فيه المهدي وكان مقيما بجرجان، يحارب اهل طبرستان وكتب الرشيد الي الافاق بوفاة المهدي واخذ البيعة للهادي[١] ونستشف من الروايات قيام نزاع خفي بين ابني المهدي وهما: موسي «الهادي» الذي تنازل له عيسي بن موسي «الذي مات سنة ١٦٧هـ»[٢] عن ولاية العهد، وهارون الرشيد، الذي أخذت له البيعة كولي ثان للعهد في سنة ١٦٦هـ[٣] والذي كانت أمه الخيزران تهتم بشئون الحكم منذ عهد زوجها المهدي وأغلب الظن انه مما ساعد علي دقة الموقف ان المهدي اشرك الاخوين في الحكم علي أيامه فعهد بمشرق الدولة إلي ولي العهد موسي كماعهد بمغربها الي ولي العهد الثاني هارون وكان لكل منهما ديوانه الخاص. ففي سنة ١٦٣ هـ ولي المهدي هارون الرشيد المغرب كله من الانبار حتي افريقية، وأضاف الي ذلك اذربيجان وأرمينية وجعل لهارون كاتب علي الخراج هو ثابت بن موسي، وعلي ديوان رسائله يحيي بن خالد بن برمك. وزاد في حرج الموقف أن المهدي كما تقول الروايات مال في اخر اخر ايامه الي عزل ابنه موسي الهادي والبيعة للرشيد بولاية العهد وتقديمه عليه، ويقال ان المهدي مات وهو خارج للهادي وهو بمنطقة جرجان ليخلعه بعد ان بعث اليه في القدوم عليه لهذا الغرض وامتنع الهادي ولهذا تحاول بعض الروايات ان تفسر موت المهدي فتقول انه لم يمت

(١) ابن الاثير، ج٥، ص٧٣-٧٤.
(٢) ابن الاثير، ج٥، ص٦٩.
(٣) نفس المصدر السابق، ص٦٦.

ميتة طبيعية وانه مات في حالة صيد اومات مسموما[١]٠

ولن تطول خلافة الهادي اكثر من سنة وثلاثة أشهر أرقته «شغلته» فيها مسألي ةلاية العهد، وذلك أن الهادي شعر بخطر أخيه هاروق الذي كانت تؤيده أمه «الخيزران» وكانت تتدخل في شئون الحكم، فعمل علي الحد من سلطانها كما حاول أن يحمل الرشيد علي التنازل عن ولاية العهد وبدأ يتخذ اجراءات مشددة ضد اخيه، وسلبه امتيازاته كولي للعهد فالنص يقول: "امر الهادي - ان لايسار بين يدي هرون بالحربة فاجتنبه الناس وتركوا السلام عليه[٢]٠

ونستبين من النصوص أن الرشيد كان مستعدا للتنازل عن ولاية العهد لابن اخيه جعفر وربما تم ذلك لولا صغر سن ابن الهادي ونصح يحيي بن خالد بن برمك للرشيد بعدم الاستجابة لطلب اخيه الخليفة، وعرف الهادي تاثير يحيي علي الرشيد، فبعث اليه وتهدده ورماه بالكفر" ولكن ابن برمك تمكن من اقناع الخليفة بترك هذه المسألة بعض الوقت، ونصحه بالا يحمل الناس علي نكث الايمان اي حنث الايمان أي تحللهم من البيعة وبين له ان ابنه جعفر لم يزل صغيرا وسأله "أتظن الناس يسلمون الخلافة لجعفر - وهو لم يبلغ الحنث - أو يرضون به لصلاتهم وحجهم وغزو" ثم رغبة في أن يكون ابنه ولي العهد الثاني٠

---

(١) ابن الاثير، ج٥، ص١٧٠

(٢) انظر، ابن الاثير، الكامل ج٦، ص٧٩ (في الحد من نفوذ امه،) ص٧٧٠

ثـورة الحسين بن علي بالمدينة

اما عن العلويين، فأنهم قاموا بالثورة في المدينة ومكة وستفشل هذه الثورة في الحجاز كمافشلت سابقتها من قبل، ولكنها ستنجح في بلاد المغرب الاقصي وتزعم هذه الثورة الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي ابي طالب المعروف بقتيل فخ عند مكة .

أما عن سبب اشتعال الثورة فهو ان والي المدينة وهو حفيد عمر بن الخطاب اسمه عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب - اقام الحد علي احد العلويين الذي يعرف باسم الزفت وذلك لشربه النبيذ . واحتج العلوي وهو الحسين بن علي علي عقاب المتهمين وقال للوالي ان اهل العراق لايرون به بأسا، وكفل الحسين بن علي الثائر ابا الزفت «أي ضمنه» ولكن ابا الزفت تغيب عن العرض الذي كان يجب عليه ان يحضره وكان في هذا حرج للضامن، الذي لم يجد سوي الثورة ردا علي رهانات الوالي وجاء العلويون صباحا الي المسجد فبايعوا الحسين علي كتاب الله وسنه نبيه للمرتضي من آل محمد" وتمكن الثوار من هزيمة الوالي ونهبوا بيت المال، الا ان اهل المدينة لم يجيبوهم فخرجوا بعد احد عشر يوما . وذهب الحسين الي مكة وتمكن من ضم كثير من العبيد حوله وذلك بعد ان اعلن تحريرهم . وكان في مكة كثير العباسيين، وكان معهم الموالي والسلاح فاجتمع العباسيون "بذي طوي" وقادهم محمد بن سليمان بن علي والي البصرة وقاتلوا العلويين وتمكنوا من الحاق

الهزيمة بهم، وقتل المطالب بالخلافة وتمكن كثير من الثوار من النجاة باختلاطهم بالحجاج. وتمكن أحد العلويين وهو ادريس بن عبدالله من الهرب الي مصر وهناك حملة صاحب البريد الذي كان يتشيع الي بلاد المغرب حيث وصل الي مدينة "وليلي" في منطقة طنجة وهناك أستجاب له بربر اورية وكون دولة الادراسة وبني مدينة فاس التي ستصبح عاصمة المغرب الاقصي[١].

الخـــــوارج

أما عن الخوارج فانهم ثاروا بالجزيرة وهزموا الوالي قرب الموصل ولم يقض عليهم الا بعد ان قتل زعيمهم غيله[٢].

الزنادقــــة:

اما عن الزنادقة فتقول الرواية ان المهدي اوصي الهادي بمحاربتهم دون شفقة وانه كان قد أمر باعداد الف جذع لصلبهم ولكن الموت لم يمهله[٣]- اذ خرج الي الموصل وعاد منها شديد المرض، والظاهر انه لم يمت ميتة طبيعية بسبب معاودته التفكير في خلع اخيه هرون من ولاية العهد. وهناك روايات يستشف منها أن الخيزران هي التي دبرت موته[٤].

---

(١) انظر، ابن الاثير، الكامل ج٥، ص٧٤-٧٦.
(٢) ابن الاثير، ج٥، ص٧٧.
(٣) ابن الاثير، الكامل، ج٥، ص٨١.
(٤) نفس المصدر الاسبق، ص ٧٨-٧٩.

الفصل الثامن

خلافة الرشيد

خلافـــة الرشيـــد
١٧٠ - ١٩٣هـ

بويع لهرون الرشيد بالخلافة في الليلة التي مات فيها الهادي، واستمر حكم هرون الرشيد حوالي ٢٣ عاما شهدت الدولة العباسية خلالها اوج مجدها وعظمتها.

وفي السنوات الأولي من حكم هارون تركت أمور الدولة لوزير الخليفة يحيي بن خالد. ويحيي هذا كان واقعا تحت تأثير الخيزران ام الخليفة التي ماتت في اواخر سنة ١٧٣هـ.

وعلي ايام المهدي قام يحيي بن خالد بن برمك بولاية اذربيجان ثم أنه استدعي الي بغداد، وعندما عين الرشيد واليا للولايات الغربية من الدولة بالاضافة الي ارمينية واذربيجان كان يحيي بن خالد علي ديوانه وظل يحيى مخلصا للرشيد فنصحه بعدم التنازل عن ولاية العهد عندما حاول الهادي ان يرغمه علي ذلك وربما لقي يحيي بعض العنت في هذا السبيل فتقول بعض الروايات انه سجن بعض الوقت وان الهادي كان يفكر في قتله وقد اعترف له الرشيد بوفاته واخرجه من الحبس واستوزره، وادار يحيي مقاليد الأمور في الدولة بالاشتراك مع ابنية الفضل وجعفر من ١٧٠-١٨٧هـ.

وبينما كان الفضل يلي الولايات الشرقية تمكن من تحقيق أعمال

عسكرية كبيرة فاخضع الديلم، وغزا ما وراء النهر وبلغ نفوذه هناك حتي منطقة اشروسنة وكذلك حقق الفضل أعمالا سلمية هامة فاليه ينسب بناء المساجد والرباطات الكثيرة في اقليم خراسان.

وفي نفس الوقت كان أخوه جعفر ببغداد مقربا الي الخليفة تاركا الولايات التي كانت تابعة له لنوابه وكان يستفيد من غلاتها فقط. ولكن صداقته للخليفة انتهت. وهناك عدة روايات تبين الاسباب التي ادت الي حنق الخليفة عليه وأخرها قصة حريم فتقول النصوص أنه لم يحترم الزواج الصوري الذي كان عقده الخليفه له علي أخته العباسة وذلك لكيَ يتمتع الرشيد بمحضرها[١].

ومنذ سنة ١٧٣هـ عند وفاة ام الخليفة أعفي جعفر من حمل الخاتم الذي كان يحمله حتي ذلك الوقت، وعهد به وكذلك ببعض شئون الدولة الي الفضل بن الربيع[٢].

وفي سنة ١٨٧ هـ عندما قفل الرشيد من اداء فريضة الحج وكان حريصا علي القيام بها باستمرار قتل جعفر في اول صفر، وكان جعفر يبلغ من العمر حوالي ٣٧ عاما وعرض رأسه علي الجسر الاوسط ببغداد كما عرض نصفي جسده علي الجسرين الاخرين حتي أمر باحراقهما فيما بعد سنة ١٨٩هـ.

أما عن والده وأخوته فانه قبض عليهم وصودرت املاكهم

---

(١) ابن الاثير، الكامل، ج٥، ص٨٢، ص٩٩.
(٢) ابن الاثير، الكامل، ج٥، ص١١٤.

وأموالهم وسينتهي الامر بيحيي في أن يموت محبوسا سنة ١٩٠هـ له من العمر ٧٠ عاما وسيتوفي الفضل في سنة ١٩٣هـ له من العمر ٤٥ عاما٠[١]

لم تنقطع الاضطرابات الداخلية في الدولة علي أيام هارون الرشيد كما نستبين من الروايات فقد سرت هذه الاضطرابات في دمشق والموصل والجزيرة وحتي مصر ايضا٠واشترك فيها العلويون والخوارج معا٠

الفتنـــــة بدمشـــق:

ففي سنة ١٧٦ هـ قامت الفتنة في دمشق بين العصبيتين المصرية واليمنية وساد البلاد الفوضي نحو سنتين ووقع بين العصبيتين معارك سقط فيها كثير من الناس٠ ورغم عزل والي دمشق عبد الصمد بن علي واستعمال عامل جديد هو ابراهيم بن صالح بن علي فان الفتنة لم تخمد بل زادها الوالي الجديد تأججا اذ انه وقف الي جانب اليمنية ضد اعدائهم وانتصر القيسية علي اليمنية ونهبوا مواضعهم قرب دمشق بل واستولوا علي دمشق وعندئذ اضطرت اليمنية الي طلب الامان، وأراد ابن الوالي ان ينتقم من الثوار فكان ذلك نذيرا بتجدد المعارك، ولم يقف القتال الا عند وصول قائد الرشيد الذي قبلت القيسية طاعتة٠

(١) انظر، ابن الاثير، الكامل، ج٥، ص١٢٤، ص١٢٨-١٢٩٠

ولم يستمر الهدوء طويلا اذ يوجد في حوليات سنة ١٨٠هـ ذكر لمسير جعفر بن يحيي بن خالد الي الشام بنفسه، ومعه القواد والعساكر والسلاح والأموال وذلك "للعصبية التي بها "فتمكن من تسكين الفتنة واطفأ الثائرة وعاد الناس الي الامن والسكون[١]

الفتنـــــة بالموصـــل:

وشهدت الموصل الكثير من الثورات منها ثورة سنة ١٧٧هـ التي تزعمها رجل من الازد تمكن من السيطرة علي الناحية وجبي خراجها مدة سنتين حتي خرج اليه الرشيد بنفسه، وهدم سور المدينة وأقسم ليقتلن من لقي من أهلها لولا أن أفتاه القاضي أبو يوسف ومنعه من ذلك ولم يتمكن الرشيد من القبض علي الثائر الذي فر الي ارمينية واستعمل الرشيد علي الموصل وال أساء فيهم السيرة وظلمهم وطالبهم بخراج سنين مضت فهاجر أكثر اهل البلد عنها.[٢].

خراســـــان

أما عن بلاد خراسان فانه الي جانب الثورات الخارجية التي عرفتها شهدت أيضا حدوث اضطرابات وفتن منها ثورة قام بها رجل يعرف بابن الخصيب وذلك بمدينة نسا في سنة ١٨٣ هـ واتعب هذا الرجل والي خراسان وهو علي بن عيسي بن ماهان تعبا شديداً وذلك

---

(١) نفس المصدر، ص٩١-١٩٣، ص١٠٣-

(٢) نفس المصدر، ص١٩٦، ص١٠٣.

أنه بعد أن طلب الامان عاد ونقض وغدر بابن الوالي وتغلب علي ابيورد وطوس ونيسابور وحاصر مدينة مرو ولكنه عجز عن اخذها. واضطر عيسي بن ماهان الي المسير اليه في سنة ١٨٦هـ الي نسا "فقتله وسبي نساءه وذراريه واستقامت خراسان[١]

والظاهر أن الخليفة - كما نستبين من النصوص - كان مسئولا الي حد كبير عن اضطراب بلاد خراسان وذلك ان الوالي علي بن عيسي استغل البلاد استغلالا سيئا وكتب كبراء أهل البلد واشرافها الي الرشيد في سنة ١٨٩هـ يشكون سوء سيرة ابن ماهان. وظلمه واستخفافه بهم وأخذ اموالهم "سار الرشيد الي الري لينظر في أمر خلع الوالي ولكن الاخير اتاه من خراسان وأهدي له الهدايا الكثيرة والأموال العظيمة واهدي لجميع من معه من أهل بيته وولده وكتابه وقواده من الطرف والجواهر وغير ذلك. وانتهي الامر بطبيعة الحال بأن رده الخليفة الي ولايته من جديد[٢].

ولكنه في سنة ١٩٠ هـ اضطرب مشرق الدولة من جديد وذلك عندما ظهر [ثار] رافع بن الليث بن نصر بن سيار بسمرقند من أرض ماوراء النهر وذلك لاسباب تتعلق بالاخلاق. وجلد رافع وقيد وطيف به علي حمار ليكون عظة لغيره فثار واستطاع أن يستولي علي المدينة وقتل عاملها وهزم جيشا ارسله اليه عيسي بن علي بن ماهان وغلب رافع علي بقية ما وراء النهر ثم انه بعد ذلك استمال الترك المقيمين في هذه النواحي وتمكن هؤلاء من قتل عيسي بن علي.

---

(١) انظر، ابن الاثير، ج٥، ص١٠٢، ص١٠٨، ص١١٠، ص١١٣.
(٢) نفس المصدر، ص١٢٠-١٢١.

وعندما سار علي بن عيسي الي مرو ليحميها من رافع عزله الرشيد كما نستبين من النصوص طمعا في امواله واستعمل بدلا منه هرثمة بن اعين وقبض ابن أعين علي الوالي المعزول واخذ امواله بأمر من الرشيد. وجد هرثمة في حرب رافع فحاصره بسمرقند واستعان بطاهر بن الحسين القائد المشهور في قتاله واهتم الخليفة بامر رافع واشفق من تزايد خطره حتي انه عزم علي الخروج اليه بنفسه. ولكن الرشيد سيموت في الطريق وذلك قبل القضاء علي ثورة رافع بن الليث التي ستستمر حتي سنة ١٩٥هـ[١].

أما عن الخوارج فان ثوراتهم لم تنقطع خاصة في اقليم الجزيرة، وكذلك في خراسان.

ففي اول عهد الرشيد قام احدهم بالجزيرة وهزم الوالي وتقدم نحو الموصل وهزم حامية المدينة ولم تتمكن جيوش الخليفة من النيل منه الا بعد عناء شديد.

وفي سنة ١٧٥هـ خرج احد الموالي من القيسية وهو حصين الخارجي بخراسان وهزم والي سجستان، واستولي علي عدد من المدن واستطاع كما تقول الروايات وهو في قلة من قواته لم تتجاوز الستمائة رجل ان يهزم الجيش الذي سيره والي خراسان وكان يبلغ اثني عشر الفا.

---

(١) ابن الاثير، الكامل، ج٥، ص١٢٢.

وظل الثائر بعيث في البلاد فسادا حتي قتل سنة ١٧٧هـ[١].

واثناء ثورة الحصين، قام خارجي آخر بالجزيرة وقدم الموصل وتمكن من هزيمة عسكرها وذلك قبل ان يقتل[٢].

أما الثورة الخارجية التي ازعجت الخليفة فهي ثورة الوليد بن طريف التغلبي الذي خرج بالجزيرة سنة ١٧٨هـ وفتك بالمسلحة العباسية في نصيبين وقوي امره فدخل ارمينية واذربيجان وارض الجزيرة وعاث فيهم واتعب قائد الرشيد يزيد بن مزيد الشيباني وبعد مقتل هذا الثائر قام الرشيد باداء العمرة شكرا لله[٣]

وفي سنة ١٧٩هـ خرج بخراسان ثائر خارجي اخر هو حمزة بن اترك السجستاني الذي دوخ جيوش علي بن عيسي بن ماهان، حتي ان الوالي "قصد القري التي كان أهلها يعينون حمزة فاحرقها وقتل من فيها" وتورد النصوص ان هذا الثائر قام باعمال فظيعة منها انه كان يقتل الغلمان بالمكاتب كما كان يقتل معلمهم. واضطر طاهر بن الحسين عامل ابن ماهان علي بوشنج الي القيام باعمال رهيبة ضد الخوارج المحاربين منهم والقاعدين غير المحاربين ومن لهم ديوان ومن لا ديوان لهم تقول الروايات انه كان يشد الرجل منهم في شجرتين يجمعهما ثم يرسلهما فتأخذ كل شجرة نصفه وذلك حتي طلبوا الامان في سنة ١٨٥هـ.

---

(١) ابن الاثير، الكامل، ج٥، ص٨٩.
(٢) ابن الاثير، الكامل، ج٥، ص٩٤.
(٣) ابن الاثير، الكامل، ج٥، ص٩٧، ١٠١

الفتنـــة بمصـــــر:

هذه الاضطرابات التي سرت في أرجاء الدولة بلغت ارض مصر الامنة المطمئنة بدورها فقام في سنة ١٧٨هـ أهل الحوف وهم من قيس قضاعة بالثورة وقاتلوا عاملهم الذي استنجد بعامل فلسطين. وبعد أن أخمدت الثورة امر الخليفة بعزل والي مصر وعين اخر مكانه.

الشيعـــــة:

أما عن العلويين «الشيعة» فكان لهم نشاطهم المعادي ايضا ولو أن نشاطهم لم يصل الي درجة خطيرة كما هو الحال بالنسبة للخوارج. ففي أول عهد الرشيد أطمأن العلويين وظهر من كان مختفيا منهم مثل ابراهيم بن اسماعيل المعروف بطباطبا، وعلي بن الحسين بن ابراهيم بن عبدالله بن الحسين. وفي سنة ١٧١ هـ تذكر النصوص أن الرشيد أمر باخراج الطالبيين من بغداد الي مدينة النبي صلي الله عليه وسلم ماعدا العباس بن الحسن بن عبدالله بن عباس[١].

ظهـور يحيى بن عبدالله بالديلم

قام يحيي بن عبدالله بن الحسن بالثورة علي الرشيد في بلاد

---

(١) انظر، ابن الاثير، الكامل، ج٥، ص٨٣، ص٨٥.

الديلم في سنة ١٧٦هـ وازعج هارون، فندب لقتاله الفضل بن يحيي، ومعه صناديد القواد، وولاه جرجان وطبرستان والري وغيرها. ولجأ الفضل الي السياسة. فكاتب يحيي ولاطفه، كما اتصل بصاحب الديلم وبذل له الاموال وأخيرا استجاب يحيي للصلح علي أن يكتب له الرشيد امانا بخطه وأن يشهد علي هذا الأمان. "القضاة والفقهاء وجلة بني هاشم ومشايخهم" فاجابه الرشيد الي ذلك، وعظمت منزلة الفضل عنده، وقدم الفضل معه يحيي بن عبدالله بغداد فاستقبله الرشيد استقبالا حسنا، الا أن أمانة ووعده لم يكونا بأهم من امان أسلافه وذلك انه لم يحترم ذلك الامان وأمر بحبس العلوي. وتمكن الرشيد من اعطاء نقضه العهد صفة الشرعية فأفتاه بعض القضاة بأن هذا الامان منتقض من وجوه كثيرة وظل يحيي في سجن الرشيد حتي وافاه الأجل[١].

السياســة الخارجــية

الصـراع ضـد بيزنطـة

فيما يتعلق بالسياسة الخارجية في الدولة فقد استمر الصراع ضد بيزنطة طوال عهد الرشيد وزادت حدته بسبب اهتمام الرشيد اهتماما خاصا بالجهاد وذلك منذ ايام والده المهدي الذي كان يعهد اليه بقيادة الحملات في بلاد الروم.

---

(١) نفس المصدر السابق، ص٩٠.

وبدأ الرشيد خلافته في سنة ١٧٠هـ باجراء اصلاح رئيسي علي الحدود البيزنطية وذلك أنه اصلح الثغور جميعها وشحنها بالحاميات من الخرسانية وجعل من هذه المنطقة ولاية مستقلة واسماها "العواصم" وكانت الصوائف ووفي بعض الأحيان الشواتي تسير الي ارض الروم بانتظام وكان الاسطول يساعدها في البحر في كثير من الاحيان. وفي سنة ١٨١هـ سار الرشيد بنفسه علي رأس الجيوش والتح عددا من الحصون. وتم الاتفاق بين البيزنطيين والمسلمين علي فداء الاسري، وتولي ذلك من قبل المسلمين القاسم بن الرشيد ومعه الاعيان من أهل الثغور والعلماء وتم التبادل قرب طرسوس وكان عدد الاسري المتبادلين ثلاثة الاف وسبعمائة[١].

وفي سنة ١٨٧ هـ توغل القاسم بن الرشيد في أرض الروم وحاصر عددا من الحصون حتي اضطر البيزنطيون الي شراء انسحاب المسلمين عن طريق دفع الجزية وتحرير اكثر من ثلاثمائة وعشرين اسير مسلم وفي هذه الاثناء قامت ثورة في بلاط بيزنطة كان من نتائجها خلع ايرين «ريني»- واعتلاء وزير ماليتها نقفور العرش. وعمل الامبراطور الجديد علي نهج سياسة مناهضة الخلافة ورفض الجزية واستلزم قيام حملة قادها الرشيد بنفسه لحاصر مدينة هرقلة ونشر الخراب حتي اضطر نقفور الي دفع الجزية الا انه نقض الاتفاق بعد رجوع الرشيد مباشرة فاضطر الخليفة الي الرجوع الي ارض الروم اثناء الشتاء رغم قسوة البرد.

---

(١) انظر، ابن الاثير، الكامل، ج٥، ص١٠٥-١٠٦.

واشتدت الحرب بعد ذلك وتذكر النصوص انه قتل في الحرب من الروم في سنة ١٨٨هـ اربعون والفا وسبعمائة. ولكن هذه الصائفة لم تكن لها نتيجة ملموسة[١].

وفي سنة ١٩٠هـ استطاع الرشيد الانتقام لغدر نقفور فسار علي رأس جيش كبير تبالغ النصوص في عدده فتقول انه زاد علي مائة الف وخمسة وثلاثين الفا "سوي الاتباع والمتطوعة ومن ديوان له" وحاصر هرقلة حصارا شديدا طوال شهر حتي سقطت وسارت طوابير المسلمين في مختلف انحاء أسيا الصغري تخرب وتنهب وتنشر الذعر في كل مكان. وانتهي الأمر بخضوع نقفور واضطر الي دفع الجزية ولكن هذه النتيجة كانت مؤقتة. ولم تكن الحملات الاسلامية التي تلت ذلك ناجحة تماما. اذ تذكر النصوص ان الروم استطاعوا ان يقفوا امام المسلمين ان يزعموهم في بعض الاحيان الي الانسحاب، وعلي ذلك لم تستطع الدولة ان تحقق انتصارات حاسمة وطال الصراع لمدة طويلة دون ان يؤتي بثمرة بالنسبة لأي من الطرفين المتنازعين[٢].

ومات الرشيد في مدينة طوس سنة ١٩٣هـ وهو متوجه لاخماد الثورة التي قام بها حفيد نصر بن سيار في المشرق. وترك الخلافة محل نزاع بين ابنية الامين والمأمون، وقد اشرك الرشيد ابنية معه في الحكم وقد بدأ الرشيد بأن عهد الي ابنه محمد بن زبيدة ولقبه

---

(١) نفس المصدر، ص ١٢٠.

(٢) ابن الاثير، الكامل، ج٥، ص١٢٢.

بالامين وكان طفلا صغيراً بلغ من العمر حوالي خمس سنوات. ثم شعر بالغبن بالنسبة لابنه عبدالله وكان من أم ولد خرسانية، فعهد له سنة ١٨٢ هـ بولاية العهد بعد الامين واشركه في الحكم فولاه مشرق الدولة - أي خراسان ومايتصل بها الي همدان ولقبه المامون وعهد بتدبير شئونه الي جعفر بن يحيي بن خالد ولم يكتف الرشيد بهذا بل بايع لابنه الثالث وهو القاسم بولاية العهد بعد المامون ولقبه بالمؤتمن ولكنه جعل للمأمون حرية التصرف في تثبيته اوخلعه. وكان للابن الثالث ولايته هو الاخر في الجزيرة والثغور والعواصم.[١].

وفي سنة ١٨٦هـ عندما سار الرشيد الي مكة لاداء فريضة الحج اصطحب معه أبناءه، وفي مكة دعا الفقهاء والقضاة وكبار رجال الدولة وكتب كتابا أشهد فيه علي الامين بالوفاء لله للمأمون كما كتب كتابا اخر اشهد فيه علي المأمون الوفاء للامين وعلق الكتابين في الكعبة[٢] ولكن عندما توفي الرشيد في سنة ١٩٣ هـ قرب طوس ال عسكره جميعا الي المامون الذي كان مصاحبا له.

---

(١) نفس المصدر، ص ١١٢.
(٢) نفس المصدر السابق، ص١١٣.

الفصل التاسع

الصراع بين الأمين والمأمون

خلافة الأمين

«١٩٣- ١٩٨هـ»

«٨٠٨- ٨١٣م»

الصراع بين الامين والمأمون

المقدمـــــات

يموت الرشيد أوشكت الدولة العباسية ان تنقسم الي قسمين يتنازع كل منهما الاخر: الجزء الغربي حيث مدينة الخلفاء ، بغداد، وعلي رأسه الامين والجزء الشرقي اي خراسان والولايات الشرقية حيث يقيم المأمون بمدينة مرو٠ويعود الفضل في هذا التقسيم الي الرشيدكما رأينا بل وربما تحقق الانفصال فعلا بين مشرق الدولة ومغربها عقب وفاته مباشرة ولو ان كلا من الابنين احترم وصية ابيه٠ والظاهر ان هذا الانفصال كان لابد منه اذ ان المشرق الايراني كانت له امانيه وآماله السياسية التي يعمل علي تحقيقها، والتي ظهرت جليا بقيام الدولة العباسية نفسها٠ وسنري فعلا ان المشرق الايراني سيحقق استقلاله فعلا - ان لم يكن شكلا علي عهد الطاهرين وعلي ايام المأمون٠

ويفهم من ذلك ان مسألة الصراع بن ابناء الرشيد لن تأخذ شكل نزاع عائلي من اجل وراثة العرش بل سيكون لها شكل النزاع الشعوبي او العصبي بين العرب والفرس٠ وعلي ذلك فلن يكون للمطالبين بالخلافة رأي كبير في سير الحوادث هنا علي ان ظفر المأمون، وغلبته علي الامين، أن هو الا انتصار للمشرق الايراني علي المغرب العربي يعيد الي الاذهان قيام امر العباسيين علي اكتاف

الخراسانية وزحف هؤلاء نحو الغرب وتغلبهم علي العالم العربي الشامي، أحس بذلك وزير المأمون الفضل بن سهل الايراني الاصل، الحديث، الاسلام ((منذ خمس سنوات)) فكان يشبه أصحابه بنقباء الحركة العباسية الاولي[١] كان يقول للتميمي نقيمك مقام موسي بن كعب وللربعي نقيمك مقام ابي داود، وخالد بن ابراهيم نقيمك مقام قحطبة .

بدأ الاختلاف بين الامين الذي له بالخلافة وبين المأمون عندما رفض الامين - بصفته صاحب السلطان - الاعتراف بما اوصي به الرشيد، من ان يؤول عسكره وكل مافيه من الاموال والامتعة والعدد الي المأمون. وعمل علي ان يعود هذا الجيس بكل اثقاله اليه، بفضل الفضل بن الربيع الذي حضر وفاة الرشيد، وغيره من القواد الذين ارسل اليهم بتعليماته. ولكي يخفف من روع المأمون كتب ايضا يهون عليه من الامر. ويأمره بترك الجزع وأخذ البيعة لهما، وكذلك لاخيهما القاسم ((المؤتمن)).

وقام ابن الربيع بدعوة الجند الي الانفضاض من حول المأمون والعودة الي بغداد. فعلا اجابه كثير منهم رغم ماقام به قواد المأمون علي رأسهم ابن سهل من تذكير الناس ببيعة المأمون وسؤالهم الوفاء وتحذيرهم الحنث ((قال ابن الربيع انه أنا واحد من الجند)) نتج عن ذلك ان اشفق المأمون عن حرج الموقف ولكن ابن سهل طمأنه ورسم له السياسة الواجب اتباعها، والتي تتلخص اولا

---

(١) انظر: ا.د. سعد زغلول: التاريخ العباسي والاندلسي، ص٤١١.

في الاعتصام بخراسان، اذ ان الخراسانية اخواله «المأمون» وهم بحكم قرابتهم هذه لن ينقضوا البيعة التي له في اعناقهم «ثانيا انتهاج سياسة دينية رزينة بدعوة الفقهاء الي الحق والعمل به واحياء السنن» . ثم الاهتمام شخصيا بأمورالدولة ورد المظلم واظهار التقشف والزهد . وبدأ تنفيذ هذا البرنامج بعمل موفق، وذلك انه وضع اوخفض ربع الخراج عن خراسان مما كان له وقع حسن عند أهل البلاد «قالوا بن اختنا وابن عم نبينا» . كما أنه لاين الامين في نفس الوقت الذي عمل فيه علي توطيد مركزه في ولايته الشرقية، بأن كتب اليه وعظمه واهداه الهدايا .

أما عن الامين فانه من جهته لم يرض عن موقف اخيه، وعمل علي اعادة الوحدة للدولة وعلي ان يحقق لنفسه السيادة الفعلية وبدأ ذلك علي حساب الأخ الثالث، وهو القاسم «المؤتمن» الذي كان يلي الجزيرة وما يتبعها بأن نحاه عن جزء كبير من ولايته واقره علي قنسرين والعواصم فقط وكانت هذه هي الخطوة الاولي "في السنة التالية ١٩٤هـ «٨١٠م» خطا الخطوة الثانية وكان فيها تهديد مباشر للمأمون ومايمكن ان نسميه بتمهيد للاغارة علي حقوقه في وراثة العرش والخلافة . اذ امر الأمين باغراء وزيره الفضل بن ربيع بالدعاء لابنه موسي، الذي كان طفلا صغيرا في خطبة الجمعة الي جانب الدعاء لأخويه.

وكان من الطبيعي ان لايسكت المأمون - تحت ضغط وزيره

الفضل ابن سهل هو ايضا - علي هذا العمل غير الودي واجاب عليه بالمثل بأن تجاهل خليفة بغداد، وقطع كل علاقة به «اسقط اسمه في الطرز ومن النقود وقطع عنه البريد». وزاد ذلك من تأزم الموقف، اذ كشف الامين عن نواياه وارسل بعثه الي المأمون يطالبه بالحضور عنده ببغداد وكان الهدف من هذه الزيارة هو الضغط عليه للتنازل عن بعض حقوقه في الوراثة. «تقديم موسي بن الامين عليه» وربما في ولايته للمشرق [طلب اليه ان ينزل عن بعض كور خراسان وان يكون عنده صاحب البريد يكاتبه بالاخبار».

وكان من الطبيعي أن يرفض المأمون اجابة مطلب الخليفة[١] كما لم يوافق حزبه اطلاقا علي خروجه من خراسان، هذا رغم ان الموقف السياسي للاطراف الشرقية من ولايته كان ينذر بالخطر. فاذا كان رافع بن الليث قد مال الي الاستسلام والطاعة فان غيره كان قد اعلن العصيان مثل جابغو أو جبغوية القارلوق «علي سيحون» وخاقان التبت، وملك كابل الذي كان يستعد للاغارة علي خراسان، وملك اترار «مركز الغزو» الذي منع الضريبة.

واستطاع ابن سهل ان يدبر الامور تدبيرا حسنا، وأن يظهر مقدرة سياسية فائقة. وذلك أنه بدا بأن استمال أحد الراد بعثه الامين وهو العباس بن موسي بن عيسي «حفيد عيسي بن موسي الذي خلع علي عهدي المنصور والمهدي» وعدة أمري الموسم ومواضع من مصر - فكان يكتب اليهم بالاخبار من بغداد ثم أنه شدد الحراسة

---

(١) كتب له المأمون "انه انا عامل من عمال امير المؤمنين وعون من اعوانه امرني الرشيد - معناه تمسكه بوصية ابيه - بلزوم الثغر ولعمري ان مقامي به اراد علي امير المؤمنين واعظم عناء للمسلمين. انظر: ابن الاثير: ج٥: ص١٣٩-١٤٠.

علي حدود خراسان ومنع العبور الي ولاباحة الا للاشخاص المعروفين. اما فيما يتعلق بملوك الاطراف من الوطنين فان الفضل نصح المأمون بارسال خطابات لجابغو والخاقان يؤكد لهما سيادتهما علي بلادهما، ويعدهما بالمساعدة ضد اعدائهما وان يرسل هدايا الي ملك كابل وأن يعفي امير اترار من جزية عام. وفعلا نجحت هذه الاجراءات في استتاب الامن والسلام في هذه النواحي.

خلـع المأمـون:

حاول الامين انفاذ الرسل لاقناع المأمون بالعدول عن موقفه ولكنهم منعوا عند الري من حرية الاتصال باهل البلاد: حفظوا في حال سفرهم واقامتهم من ان يخبروا أو "يستخبروا" عندئذ رأي الامين ان القطيعة قد تمت وعمل علي أن يعيد توحيد الدولة عن طريق استعمال اساليب العنف. وفي اوائل سنة ١٩٥هـ اعلن خلع المأمون من ولاية العهد واخذ البيعة لابنه موسي بدلا منه ولقبه "الناطق بالحق" وجعل له ديوانا من شرطة وحرس ووسائل وعهد بإدارة شئونه وتأديبه الي علي بن عيسي بن ماهان والي خراسان السابق ثم عهد لابنه الاخر عبد الله ولقبه" القائم بالحق" كما اعلن عدم صلاحية النقود التي ضربها المأمون والتي لاتحمل اسم خليفة بغداد للتداول[١].

وأتبع الامين ذلك بأن ارسل الي الكعبة واتي بكتابي العهد

---

(١) انظر ابن الاثير، الكامل، ٥، ص١٤٢، احداث سنة ١٩٥هـ (ذكر قطع خطبة المأمون، سعد زغلول، ص١٧٥).

اللذين كتبهما الرشيد ومزقهما. وخرج من حيز الكلام الي حيز العمل وكلف علي بن عيسي بن ماهان القائم بامر ولي العهد الجديد بالسير الي خراسان للقبض علي ولي العهد المخلوع وتنفيذ ما اتخذه من اجراءات ضده.

ولاشك في ان اختيار بن ماهان للقيام بهذه المهمة لم يكن اختيارا موفقا فالرجل معروف بسوء السيرة في خراسان لجشعه في ابتزاز الاموال حتي اضطر الرشيد الي عزله بعد ان جمع ثروة طائلة وبعد ان كان يقاسمه في استغلاله للبلاد. والظاهر ان الاهواء الشخصية قامت بدورها في هذا الاختيار، فابن ماهان كان يطمع في العودة الي منصبه القديم المغري. وربما اراد الامين ان يكيد لاهل خراسان فولاه هذا الامر نكاية فيهم، ولكن بلغ عدم التوفيق، هذا، حدا قيل معه ان عينا للفضل ابن سهل هو الذي اشار بانفاذه حتي يقاومه اهل خراسان.

بدايـــة الصـــراع

سار علي بن عيسي علي رأس ٥٠ الف رجل، وخرج الامين ووجوه اهل دولته لوداعه. واتجه جيش بغداد نحو الري حيث كان طاهر بن الحسين قائد المأمون يعد العدة للدفاع ويستعد للقتال وحاول علي ابن عيسي ان يستغل معرفته السابقة للبلاد والاتصال بالملوك الوطنيين واثارتهم، هذا ولو أننا لانعرف الي اي حد نجحت

هذه الخطة رغم ما يقوله الكتاب من أن هؤلاء الملوك اجابوه الي قطع طريق خراسان. ولكن المحقق ان ابن ماهان استهان بأمر طاهر، اذ تقول النصوص بأنه لما طلب اليه اصحابه بث العيون وعمل خندق، قال :"مثل طاهر لايستعد له" وخرج طاهر من مدينة الري في جيش قليل العدد [نسبيا ٤ الاف] حيث عسكر علي بعد قليل منها (٥ فراسخ). كما حرض جنده علي القتال خالعا الامين داعيا بالخلافة للمأمون. وكان الغرض هو اعطاء موقفة جيشه صفة شرعية حتي لايخيل للجند انهم يقفون موقف الخارجين علي صاحب الامر. واتخذ كل من الجيشين تشكيل القتال ووقف الواحد منهما امام الاخر.

وبدأ طاهر بمظاهرة سياسية بان حمل صاحب شرطته بيعة المأمون وعلقها علي رمح، ودعا علي بن عيسي الي تقوي الله في البيعة التي اخذها ولماخرج احد اصحاب ابن ماهان عليه بالسيف اظهر شجاعة فائقة، اذ حمل عليه واخذ منه السيف بيديه وصرعه ولهذا سمي طاهر ذو اليمينين .

وفي هذه الاثناء حدثت مفاجاة سيئة بالنسبة لطاهر، وذلك ان أهل الري اغلقوا باب المدينة دون عسكرة، ولكن يظهر انه كان يتوقع مثل هذا منهم ولذلك فضل الخروج والقتال بعيدا عن المدينة فامر اصحابه بالاشتغال بمن امامهم فقط. وبدأ القتال في صالح علي بن عيسي فهزمت ميمنته ميسرة طاهر هزيمة منكرة، وعرجت ميسرته علي ميمنة طاهر فزحزحتها عن مواضعها. ولكن طاهر اظهر كفاءة

عسكرية عظيمة فلم يفت سوء الموقف في عضده، فامر اصحابه بالقيام بهجوم خاطف «حملة خارجية» علي قلب علي ابن عيسي· وبفضل ذلك الهجوم القوي تحول الموقف لصالح طاهر فانسحب جناحا ابن ماهان، وكثر القتل في اصحابه وسقط هو قتيلا بضربه سهم في الميدان· ولم ينقذ المنهزمين الا حلول الليل بعد ان التجأ كثيرون منهم الي معسكر طاهر بعد ان امنهم·

الزحف على بغداد

كانت هذه الوقعة فاتحة سلسلة من الانتصارات قادت طاهر من الري الي بغداد تعيد الي الذهن الحملة المظفرة التي قام بها قحطبة بن صالح من خراسان الي العراق· وتمكن طاهر بعد ذلك من هزيمة قائد الامين عبد الرحمن بن جبلة الذي ولي همذان، والذي كان يأمل أن يلي كل ما يفتحه من أرض خراسان· هزمه طاهر مرتين، حاصر مدينة همذان حتي ضجر اهل المدينة، فطلب عبدالرحمن الامان وخرج عن المدينة، ولكنه كان يضمر الغدر بطاهر اذ شن عليه هجوما شديدا يائسا انتهي بقتله وهزيمة اصحابه كان هذا الرجل متعصبا للامين ضد المأمون في أول الامر فقال لايري امير المؤمنين وجهة ابدا، وبعد الاستيلاء علي همذان عمل طاهر علي تأمين ظهيرة قواته عن طريق احتلال قزوين، ولم ينتظر قائد الامين وجيشه الكثيف وصول طاهر اذ انه رأي الجلاء عن البلاد، فوضع طاهر حامية لمنع مرور أية قوات من هناك·

وبذلك خلت البلاد لطاهر فتقدم يحتل الكور والمدن حتي وصل الي قرب حلوان، حيث عسكر هناك وكان للانتصارين اللذين احرزهما طاهر اثرهما الكبير في اضعاف الروح المعنوية لدي قواد وجيوش الامين. فبعد ان بحث الفضل بن الربيع عن قائد عربي متعصب للعرب، هو أسد بن يزيد ابن مزيد، وبعد ان حرضه من اجل المحافظة علي قوة الشعب العربي[١] فشل في تسييره اذا كان للقائد العربي مطالب مالية[٢] لم يقابلها الامين بالرفض فقط بل امر بحبسه كذلك واخيرا نجح في تسيير عم اسد وهو احمد بن مزيد لحرب طاهر وسير معه عبد الله بن حميد بن قحطبة ولكنهما لم يتقدما الي ابعد من خانقين. واكتفي طاهر بان ظل في مكانه ودس عليهم الجواسيس والعيون ولم يزل يحتال حتي وقع الاختلاف في معسكر اعدائه[٣] وقاتل بعضهم بعضا حتي اضطر قائدا بغداد الي الرجوع عن خانقين دون ملاقاة طاهر الذي تقدم ونزل حلوان نفسها.

الاضطراب في الشـــام :

في هذا الوقت بينما كانت الأمور مستقرة في خراسان، وبينما كان أمر المأمون في تحسن مستمر بدأ مغرب الدولة ومركز الخلافة يضطرب وسارت الامور علي غير مايشتهي الامين حتي أنه وقع اسيرا

---

(١) قال له: انما نحن شعب من اصل ان قوي قوينا وان ضعف ضعفنا وبعد ان ينقذ الامين للهوة ومبته يقول: وقد خشيت ان نهلك بهلاكه وانت فارس العرب وابن فارسها، انظر ابن الاثير، ج٥ ص١٤٨-١٤٩.

(٢) طالب بصرف رزق سنة وجعل رزق سنة اخري مع الجملة.

(٣) كان يرجفون ان الامين وضع العطاء.

بين ايدي الثوار، وفقد خلافته لفترة ما. والغريب في هذا الشأن ان بلاد الشام، وهي مركز الدولة العربية السابقة ومعقد أمال الشعب العربي وامانيه في هذا الصراع العنصري كانت نهب الفتن والقلاقل منذ البداية.

ففي سنة ١٩٤ هـ ثارت حمص علي عامل الامين فعزله، ولكنه ولي آخرا مكانه انتقم من أهلها حتي طلبوا الامان ثم هاجوا بعد ذلك فاضطر الي الانتقام من جديد. وفي السنة التالية سنة ١٩٥ واثناء انهزام جيوش الأمين امام طاهر ظن اهل الشام ان امر العباسيين ودولة الفرس الي بوار فثارت دمشق ودعت الي عودة الامويين «السفياني المنتظر» اعلنت احمد حفدة معاوية ويدعي ابو العميطر علي «علي بن عبد الله بن خالد» وكان علوي الام «نفيسة بنت عبد الله» مشتغلا بالعلم، ويبلغ من العمر ٩٠ عاما خليفة «ذي الحجة» وتمكن ابو العميطر من اخراج عامل دمشق وذلك بفضل معونة احد موالي بن امية وعندما سير الامين لحربه الحسين بن علي بن عيسي بن ماهان لم يسر هذا الأخير الي دمشق بل اكتفي بالانتظار بالرقة.

وأحسن السفياني السيرة أول الامر ولكنه لم يكن ليستطيع القضاء علي الخصومات القديمة بين العصبيات العربية من كلب وقيس او التوفيق بينهما ففي اول الامر اتخذ اكثر اصحابه من كلب ولكنه عاد وخاصمهم واتفق مع قيس ولكن الزعيم الكلابي محمد بن صالح ابن بيهس اوقع به هزيمة منكرة وحاصره في دمشق وقتل ابنه وارسل راسه للامين. وحدث ان مرض ابن بيهس فعمل علي الكيد للسفياني

فبايع امويا اخر بالخلافة «مسلمة بن يعقوب» ونجحت خطته، وتمكن الاموي الجديد من القبض علي السفياني وقرب القيسية فلما عوفي ابن بيهس من مرضه عاد وحاصر دمشق فسلمها اليه القيسية وهرب الاموي والسفياني بعد ان دامت الفتنة حوالي ٣ سنوات «محرم سنة ١٩٨هـ» وظل ابن بيهس بدمشق حتي وصل اليها عبدالله بن طاهر.

وكان عبد الملك بن صالح، الذي اخرجه الامين من السجن عند ولايته[١] قد حاول ان يجد علاجا لنكبة الشام فطلب الي الامين ان يوليه اياها ومناه بانه يمكنه ان يجيش اهل الشام لنجدته. ولكن فشل عبد الملك في مهمته اذ قامت الفتنة بين الخراسانيين واهل الشام بينما كان هو مريضا، وانتهت الفتنة بانهزام العرب، فمات الرجل سنة ١٩٦ هـ متأسفا لنكبتهم وضياع امله فيهم.

وبلس كذلك الحسين بن علي بن عيسي بن ماهان الذي كان ارسله الامين الي الشام من تقويم الحالة بعد موت عبدالملك فعاد الي بغداد ولما اراد الامين ان يحاسبه عما فعل رفع راية العصيان وهزم جند الخليفة واعلن خلعه [١١رجب] واخذ البيعة للمأمون. ولم ينقض يومان حتي كان الخليفة اسيرا وهو وامه زبيدة، وتم ذلك بتدبير العباس بن موسي بن عيسي الذي كان قد استماله الفضل بن سهل كما رأينا ولكن الحسين لم يستطع السيطرة علي الموقف فثار به الجند واطلق الامين واعيد الي كرسي الخلافة. وبذلك قدر للنزاع

---

(١) وكان الرشيد قد حبسه ايام نكبة البرامكة. انظر ابن الاثير، ج٥ ص١٥٠.

بين الاخوين ان يستمر مدة اطول·

وفي هذه الاثناء وقعت بغداد فريسة للفوضي وبلغ من حرج مركز الامين انه لم ينتقم من الرجل الذي خلعه بل عفا عنه[١] واكثر من هذا انه لم يجد قائدا غيره للقيام بحرب[٢] المأمون فوجهه لذلك· ولكن الحسين كان قد فقد الثقة في موقف الامين فحاول الهرب الا أنه اخذ وقتل" وظهر الفشل في حزب بغداد بهرب الفضل بن الربيع، وكان القوة المحركة لهذا الحزب واحتفائه بعدمقتل الحسين·

ظهر بجلاء اذن ان موقف بغداد ميئوس منه وكان من الطبيعي ان تتقدم جيوش خراسان بسهولة والايصادف طاهر بن الحسين عقبات خطيرة فتمكن من الاستيلاء علي الاهواز بعد أن حاول واليها الدفاع عنها فلقي حتفه كما ان طاهر اصيب في هذه المعركة بجراح بليغة «فقطعت يده» وباستيلائه علي الاهواز تمكن من السيطرة علي المنامة والبحرين وعمان «علي الخليج الفارسي من شبه جزيرة العرب» ارسل اليها عمالا يلونها من طرفه واستمر تقدم طاهر المظفر دون مقاومة حتي اتي واسط التي استسلمت للخراسانية دون مقاومة هذه المرة ومنها ارسل احد قواده الي الكوفة وكانت قد خلعت الامين واعترفت بخلافة المأمون «كان عليها العباس بن موسي صنيعة ابن سهل، ولم تفلح محاولات بغداد لاستردادها».

---

(١) قال الحسين عندما طلب الامين "ما انا بمحن ولامسامر ولامضحك" انظر ابن الاثير، ج٥، ص١٥١·

(٢) قيل ماهو باكبرنا سنا وماهو باكبر منا حسبا ولا باعظمنا منزلة وغني، انظر ابن الاثير، ج٥، ص١٥٢·

وبذلك تم لطاهر الاستيلاء علي كل الاراضي الواقعة بين واسط والكوفة كما أعلن والي البصرة خضوعه له، وأعقبه والي الموصل. وبهذا أصبحت بغداد شبة محاصرة وأنقطعت عن كل الولايات الشرقية والجنوبية ،وتم خروج كل بلاد العرب جميعا من سلطان الامين، بدخول مكة والمدينة في طاعة المأمون.ورغم أن موقف الامين كان لايبشر بأي امل الا انه ظل جامدا في تصرفاته لايريد سوي التشبث بعاصمة الخلافة التي أصبحت محاصرة «لم يصبح لها اتصال الا ببلاد الشام المضطربة» فهو لايريد الخروج منها - كما نصحه بعض الناس - ومحاولة تنظيم قواته من جديد بالشام ولا هو يحاول المرونة واستعمال السياسة ومفاوضة اعدائه في سبيل انقاذ ما يمكن انقاذه اذا كان هناك ما يمكن انقاذه.

في هذه الظروف تقدمت جيوش المأمون، وصارت تقترب من بغداد شيئا فشيئا، وكانت كلما قربت اضطربت امر الجيوش البغدادية وانسحب افرادها. هذا ماحدث بالمدائن «علي بعد ٤ كلم من بغداد» حيث نزل طاهر «بصرصر» وماحدث بالنهروان حيث نزل هرثمة بن أعين. كل هذا والامين لا يفقد الأمل، بل وربما اعتقد في مقدرة بغداد وحدها علي استعادة دولتها المفقودة ففي محاولة أخيرة عمل علي استمالة جيوش طاهر يبذل الاموال والتلويح ببريق الذهب، ودس بينهم الجواسيس ونجحت التجربة جزئيا اذ شغب بعض الجند علي طاهر وانضم فريق منهم الي جانب الامين «حوالي ٥ الاف» ولكن النجاح لم يذهب الي ابعد من ذلك اذ تمكن طاهر بسرعة من

السيطرة علي رجاله وهزم جيش بغداد الذي اقترب من مواقعه فلجأ الي داخل المدينة التي اصبحت مطوقة تماما من جميع الجهات وافلت زمام القواد - الذين كانوا يطلبون المال بجشع والحاح-من يدي الامين وعمت العاصمة الفوضي، فنقبت السجون وخرج أهلها وثار العامة والغوغاء وساد النهب والسلب والاضطراب.

رغم حالة الفوضي التي عمت بغداد لم يكن من السهل اخذ المدينة التي بناها المنصور لتكون أولا وقبل كل شئ معسكراً لجنوده وملجأ يستقر فيه-في امان من مفاجأة الاعداء. فللمدينة سوراها الضخمان، والخندق الممتد بينهما، ثم هي مقسمة بعد ذلك الي احياء «أرباع» شبه منفصلة تتوسطها المدينة الملكية، ويمكن لكل منها أن ينظم دفاعه الخاص. بعد ذلك هناك الاحياء والاسواق خارج الاسوار وهي مكتظة بالمباني والسكان ويمكن الاعتصام بها.

عرف طاهر ذلك وعمل علي ضرب حصار محكم حول المعسكر الضخم. فقسم دائرة الحصار الي اربع مناطق وعهد بكل منطقة الي قائد. ونزل هرثمة بالمنطقة الشرقية «وراء دجلة» بينما نزل طاهر بالمنطقة الغربية من ناحية باب الانبار «باب الكوفة».

وصمم الامين من جهته علي المقاومة المستميتة دون النظر الي العواقب مضحيا بمدينة الخلفاء العالمية. فلما أحوجه المال ضرب أنية الذهب والفضة وفتتها في اصحابه ولما خرجت عليه احياء

المدينة امر باحراقها رميا بالنقط والنيران وبالمجانيق. ولم يتورع طاهر عن فعل مثل هذا أيضا بالنسبة للاحياء التي ظلت تقاومه وسماها دار النكث «أهل الارباض ومدينة المنصور واسواق الكرخ والخلد، لامتلائها بالعامة والغوغاء» كما أنه لجأ الي أرهاب الاعيان الذين لم يخرجوا اليه من الهاشميين وكبار القواد في أموالهم وأملاكهم فصادر مزارعهم الموجودة خارج المدينة.

ولم يمض وقت طويل حتي انتهت المقاومة النظامية وانهارت معنويات الجنود وضعفوا عن القتال. كما أستأمن كثير من وجوه المدينة ومن القواد وظل الغوغاء وأهل السوق وباعه الطريق، من أعداء النظام والا من ينهبون ويسلبون ويقاومون جنود طاهر. ورغم أنهم لم يكونوا مسلحين أوكانوا يحملون اسلحة بدائية مثل المخالي فيها الصخر والحجارة، ومعها المقاليع فأنهم أمكنهم شل حركة جيوش طاهر النظامية لمدة ما، بل وأكثر من هذا تمكنوا اثناء قتال الشوارع والبيوت من أن يلحقوا بهم في بعض الاحيان خسائر فادحة وان يحرزوا بعض الانتصارات أيضا. واتخذ طاهر ازاء هذه المقاومة اجراءات شديدة فأمر بهدم كثير من الدور والاحياء «مابين دجلة ودار الرقيق، وباب الشام، وباب الكوفة الي الصراه وريض حميد ونهر كرخايا» حتي عم الخراب واضطر كثير من أهل المدينة الي الجلاء عنها. وبعد ذلك عمد الي منع الاقوات عن المدينة «صرف السفن التي يحمل فيها القوت الي الفرات» فغلا السعر وأصبح الناس في ضيق شديد.

سقوط بغداد ونهاية الامين:

وأخيرا تقدم طاهر من جهة الكرخ وتمكن من دخول المدينة عنوة واحتل أسواق الكرخ ثم عمل علي حصار مدينة المنصور - المدينة الملكية وسط بغداد حيث كان الامين قد التجأ هو وأمه وأهله بعد ان فارقه كثير من جنده وجواربه، واحاط قصورها «قصر زبيدة وقصر الخلد» بالمجانيق. ورغم هذا الضيق الشديد الذي وقع فيه الأمين فانه لم يتخل عن عاداته من الانصراف الي الغناء والاستمتاع بالشراب والموسيقي - وربما وجد في ذلك بعض التخفيف من محنته، وكان هذا ايذانا بالنهاية، إذ لم يعد أمامه سوي الاختيار بين احد شيئين: امام القيام بمحاولة يائسة لاختراق صفوف المحاصرين بما تبقي لديه من الخيل وأما الاستسلام وطلب الامان. ولما لم يكن الأمين من هؤلاء الرجال الذين يزدادون عزما كلما ازدادت الصعاب شدة،، فانه ركن الي طلب الامان . وكل ماتعله أنه لم يرض ان يكون استسلامه لطاهر بل فضل عليه هرثمة بن أعين.

وكان من الطبيعي ان يثير ذلك طاهرا صاحب الحصار. وتمكن الطرفان من ايجاد حل لذلك، اذ اتفق علي أن يدفع الامين شعار الخلافة والخاتم والقضيب والبردة - الي طاهر- واتي هرثمة بحراقة في دجلة ونقل الامين اليها «وحدة» ولكن طاهرا لم يكن

ليرض أن يفوته شرف استسلام الخليفة · فدبر اغراق الحراقة بأيدي اصحابه تدبيرا سافرا · وتنتهي قصة الامين نهاية مأساة روائية «تراجيدية» بأن يؤسر وهو شبه عريان، ويحبس في احدي الدور · وفي ظلام منتصف الليل الذي تبدده بعض المشاعل يدخل عليه بعض الرجال من العجم ويذبحونه ذبح الشاة من قفاه «في يوم الاحد ٢٣ محرم ١٩٨هـ» ويسيروا برأسه الي طاهر الذي يرسلها بدوره الي المأمون صاحب العرش دون منافس·

استلمت بغداد بعد اذن، وفي يوم الجمعة التالي «٢٨ من المحرم» دخل طاهر بغداد وصلي الجمعة ودعا للمأمون· وكان المتوقع أن تهدأ الاحوال ويستتب الامن وتستقر الامور بعد موت الامين وخلوص الامر للمأمون وهذا ما لم يحدث · فالمسألة كانت اكثر من ذلك تعقيدا، اذ معني انتصار صاحب الولايات الشرعية هو أن مركز الخلافة والحكم كان يتزحزح نحو المشرق· وفعلا لن يدخل المأمون بغداد الا بعد ست[٦] سنوات قضاها في عاصمة ولايته الشرقية · وخلال هذه السنوات الست ستعرف بغداد كما ستعرف الولايات الغربية الوانا من الاضطراب وصنوفا من الفتن والثورات وذلك حتي يعود الخليفة من جديد الي عاصمة بغداد ·

فبعد دخول طاهر بغداد لم تلبث الثورة أن شبت بالمدينة واشترك فيها الجند الذين طالبوا بارزاقهم ونادوا بموسي بن الامين· وظن طاهر أن في الأمر مؤامرة فخرج عن المدينة وعزم علي التنكيل

بأهل الارباض. ولولا تدخل الاعيان واعتذارهم اليه. وعندئذ حمل طاهر ولدي الامين وهما موسي وعبد الله وأمر بتسييرهما الي المأمون بخراسان.

الفصل العاشر

خـــلافة المأمـــون

خـلافـة المأمـــون
«١٩٨ - ٢١٨هـ»
٨١٣ - ٨٣٣م

وحسب السياسة التقليدية للخلفاء العباسيين عمل الخليفة الجديد علي التخلص ممن يستشعر خطره من كبار الرجال الذين مهدوا له الطريق الي الملك فكان نصيب الفاتح الكبير طاهر بن الحسين أن أمر بالتخلي عن كل فتوحاته، من كور الجبال والعراق وفارس والاهواز والحجاز واليمن للحسن ابن سهل اخي الوزير الخطير الفضل، الذي استعمله المأمون - بايحاء الوزير من غير شك. ولم يفعل طاهر سوي مدافعته بتسليم الخراج حتي وفي الجند ارزاقهم، وبعد ذلك كان علي طاهر ان يسير حسب أوامر الحسن بن سهل الي الرقة علي رأس قوات غير كافية لحرب احد ثوار الشام من رجال الامين، وهو ابن شبث «نصر بن سيار» الذي غلب علي نواحي حلب وما جاورها من الجهات، وعبر الفرات الي الجانب الشرقي يبغي التغلب عليه وفي نفس الوقت ولي طاهر الولايات المضطربة، والتي لم تكن قد دخلت في الطاعة بعد، وهي الموصل والجزيرة والشام والمغرب. أما عن هرثمة بن اعين فسيكون مصيره الموت بعد قليل.

العلويون وثورة ابى السرايا:

انتهز اعداء الدولة وعدم الاستقرار هذا وعملوا على الاستفادة من الاضطراب والصيد في الماء العكر، كما يقال، فظن العلويون ودعاتهم ان الخلافة العباسية قد ضعضعها الصراع وان الفرصة مواتية لقيام دولتهم المنتظرة وفي ١٠ من جمادي الثانية سنة ١٩٩هـ اعلنوا امامة ابي عبد الله محمد بن ابراهيم بن اسماعيل المعروف بابن طباطبا بالكوفة، مركز العلويين ودعوا للرضا من آل محمد، والعمل بالكتاب والسنة.

وربما كانت الظروف التي قامت اثناءها دعوة ابن طباطبا تدعو الي التفكير في موقف قواد المأمون مثل طاهر وهرثمة، وهل كان لهذا الموقف تأثير غير مباشر علي الاقل علي سير الحوادث في ذلك الاتجاه. فتنحية طاهر عما كان اليه من الاعمال التي افتتحها، والعهد بها الي الحسن بن سهل اخي وزير المأمون القوي الذي اصبح يدعي ذا الرئاستين، كان من شأنه ان دارت الشائعات بأن الوزير غلب علي المأمون، وكان من الطبيعي أن يثير ذلك بني هاشم ووجوه الناس وان يهيج الفتن. وهذا عن طاهر، أما فيما يتعلق بهرثمة فان الرجل الذي قام بامر حرب العلوي اي بقيادة جيوشه هو ابو السرايا الذي كان مخاطر اشبه مايكون بزعماء العصابات والذي كان يعمل تحت قيادة هرثمة اثناء الصراع بين

الامين والمأمون. فلما استتب الأمن عاد الرجل الي سيرته الأولي.
هنا يمكن التساؤل عما اذاكانت علاقة هرثمة قد انقطعت نهائيا بهذا المغامر؟ وهل لم يكن من صالح هرثمة ان تقوم امام منافسة طاهر بعض المصاعب؟ من الصعب أن نجد أجوبة لهذه الأسئلة.

علي كل حال التقي ابو السرايا بابن طباطبا واصبح قائده. وعندما وجه الحسن بن سهل اليهما جيشا تمكنا من هزيمة هذا الجيش في اخر جمادي الثاني ولكن في الشهر التالي يموت ابن طباطبا. والظاهر ان أبا السرايا الذي كان يريد أن يكون صاحب الامر الفعلي تخلص منه نسمة واقام مكانه غلاما علويا «محمد بن زيد» فتحقق له ماكان يبغي وعندما ارسل الحسن بن سهل جيشا ثانيا تمكن ابو السرايا من القضاء عليه قضاء تاما.

وعندئذ احس الطالبيون بقوتهم فانتشروا في البلاد يبشرون بدولتهم ودعوا نصر بن شبث بالشام الي بيعتهم فرفض، وقال: انما حاربتهم محاماة عن العرب لانهم يقدمون عليهم العجم" وضرب ابو السرايا الدراهم بالكوفة وسير قواته الي البصرة وواسط ونواحيهما، بل وأكثر من هذا ظن ان اطراف الدولة قد دانت له أو علي وشك أن تدين ، فارسل العمال والولاة الي مختلف الجهات : الي البصرة والي مكة حيث فسد موسم الحج هذا العام والي اليمن وفارس والاهواز وفعل غلب رجاله علي البصرة والاهواز والمدائن واليمن، كما انسحبت امام قائده جيوش الحسن بن سهل

التي كانت بواسط الي بغداد، حتي طمع في دخول بغداد نفسها٠

وعند استفحل الخطر، اضطر الحسن بن سهل الي استدعاء هرثمة الذي كان قد سار نحو خراسان وهو مختلف مع الحسن٠ ورضي هرثمة بعد امتناع الذهاب لحرب ابي السرايا، وتمكن من هزيمته بسهولة قرب المدائن فارتد ابو السرايا والطالبيون الي الكوفة حيث قاموا بأعمال انتقامية ضد من بها من بني العباس، فهدموا دورهم وانتهبوا وخربوا ضياعهم؛ ولكن لم يلبث ابو السرايا ان خرج منها ودخلها هرثمة «في ١٦ من المحرم سنة ٢٠٠هـ» وانتهي الامر بالقبض علي ابي السرايا وقتله وتسيير رأسه الي المأمون٠

في هذه الفترة القصيرة التي عرف فيها العلويون سطوة الحكم والسلطان قاموا بأعمال انتقامية شنيعة، كما اساءوا السيرة٠ فكما حدث في الكوفة حدث في البصرة حتي سمي زيد بن جعفر بزيد النار، لكثرة ما أحرق بالبصرة في دور العباسيين٠ وفي اليمن اطلق علي ابراهيم بن موسي جعفر" الجزار لكثرة من قتل باليمن وسبي وأخذ من الأموال٠ وكذلك لم تسلم مكة والكعبة من فعالهم السيئة، فقام الافطس «الحسين بن الحسن» عامل ابي السرايا بالاستيلاء علي ودائع بني العباس هناك وأخذ اموال الناس ومال أصحابه علي شبابيك الكعبة واخذوا ماكان عليها من أساطين الذهب اليسيرة وماكان بخزانتها من المال٠ ولما بلغه موت ابي السرايا الخ

علي محمد بن جعفر العجوز في قبول الخلافة واجبروا الناس علي بيعته. وأخيراً تمادي الطالبيون في عيهم وانتهكوا الاعراض.[١]

وأخيرا تمكنت جنود هرثمة مع جنود والي اليمن المطرود من هزيمتهم واعتذر محمد بن جعفر بأنها كانت فتنة عمت الارض، وخلع نفسه فسير به الي المأمون بمرو سنة ٢٠١هـ هكذا قضي تماما علي الفتنة العلوية التي ربما كان له ضلع في اثارتها نكاية في ابني سهل اللذين غلبا علي الخليفة اوهذا ماسيتهمه به اعداؤه ليغضب عليه المأمون ويموت بعد أيام في حبس الفضل.

الاضطرابات في بغداد:

اما عن بغداد فكان من الصعب عليها أن تعيش مطمئنة بدون خليفة والقيت تبعة عدم مجئ الخليفة الي العاصمة علي ابني سهل وانتهز الجند تأخر أرزاقهم بعض الوقت، ثاروا ضد الحسن بن سهل وتمكنوا من طرده هو وعماله «ونادوا باسحق بن موسي الهادي نائبا للمأمون علي بغداد» وحاول الحسن ارضاءهم بالمال بعد أن استعمل معهم العنف، ولكن وصول خبر مقتل هرثمة[٢] وهروب بعض العلويين من سجن البصرة زادمن هياج الفتنة . وخرج

---

(١) اذ تقول الروايات التي ربما كانت متحيزة ضد العلويين او الافطس وثب علي امرأة جميلة فامتنعت فاخاف زوجها حتي حوازي واخذها مدي ووثب علي بن محمد بن جعفر غلام اسود وهو ابن القاضي فاخذه فسهراه انظر؛ ج٥، ص ١٧٧-١٧٨.

(٢) الحسن بن سهل كان يريد ان يوجهه بعد ذلك الي الشام والحجاز فرفض هرثمة وسار دون استئذانه. انظر؛ ابن الاثير، ج٥، ص ١٧٩.

قائد الحسن بن سهل عن بغداد، وسار الحسن نفسه من المدائن الي واسط في اوائل سنة ٢٠١ هـ. وفكر الهاشميون واهل بغداد من الغاضبين علي الحسن بن سهل في مبايعة منصور بن المهدي وعرضوا عليه الخلافة ولكنه كان مخلصا للمأمون فابي. واخيرا رضي ان يضبط الامور باسم المأمون أي أن يكون نائبا له ببغداد والعراق [كانوا يقولون لانرضي بالمجوسي ابن المجوسي.

المطوعـة في بغـداد:

ازاء اضطراب بغداد هذا، وقيام الفتن بين الناس وانتشار السلب والنهب والمفاسد، من قطع الطريق الي اخذ النساء أوالصبيان علانية وقصور السلطات عن ضبط الامور، قامت حركة شعبية تهدف الي نشر الامن والطمأنية وحسن المعاملة بين الناس، واتخذ القائمون بهذه الحركة المبدأ الاسلامي الشهير: وهو الامر بالمعروف والنهي عن المنكر" شعارا لهم. معني ذلك أن الحركة كانت في أول امرها عبارة عن دعوة الي التقوي ولزوم أوامر الدين. هذه الدعوة ستعطي أعمال الجماعة عندما تضرب علي أيدي الفساد صفة شرعية، اذ أن هذا العمل من اختصاصات صاحب الامر الشرعي.

وأول مافكر في تنظيم هذه الحركة رجل اسمه خالد الدريوش، دعا هذا الرجل جيرانه وأهل محلته الي معاونته علي الامر

بالمعروف والنهي عن المنكر وفعلا قاتل الفساق وتمكن من هزيمتهم. كل هذا في حدود الاعتراف بسلطان ولي الامر. وقام بعد ذلك رجل اخر اسمه سهل بن سلامة وعلق مصحفا في عنقه ودعا الناس لمناصرته في دعوته، ولكن لماكان كثير من اصحاب هذين الداعين من عامة الناس وغوغائهم فان منصور بن المهدي الذي دخل بغداد قاومها وهزم اصحابها. وفي هذا الوقت كانت هناك مفاوضات بين الحسن بن سهل واهل بغداد من اجل تأمينهم علي أن يعطي لهم وللجند من الثوار الأرزاق، وتمت الاتفاق علي ذلك وعاد الحسن بن سهل الي بغداد (١٣ شوال سنة ٢٠١هـ) الا أن سهل ابن سلامة ظل علي ما كان عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

العهد للعلويـــين:

في غمرة الحوادث الدامية هذه وجد المأمون ان الفضل في ماوصلت اليه الدولة من حالة الاضطراب التي تكاد تؤدي بالاسرة العباسية، بل بالأسرة النبوية جميعا، يعود الي مشكلة وراثة العرش، التي لم يستطع اسلافه ايجاد حل مرض لها، وفكر هو في ايجاد حل لهذه المسألة. وربما كان المأمون خياليا بعض الشيء فيما فكر فيه، وربما كان فيسلوفا يريد أن يصل الي اصل الداء. فعلي حين غرة اعلن العلوي علي بن موسي الرضا وليا للعهد بعده، وكان قد خلع اخاه المؤتمن قبل ذلك سنة ١٩٨هـ.

ويمكن النظر الي هذا الاجراء من وجهين:

١- علي أنه عمل سياسي صرف يرمي الي ارضاء العلويين واتباعهم ومن يعطف عليهم في انحاء الدولة المختلفة، وهؤلاء كانوا عديدين في العراق والحجاز ارضاء مؤقتا، ورغم سياسة القمع التي كانت الأسرة العلوية هدفا لها لم تزل الاسرة تتمتع بنصيب كبير من التعظيم، كما أن العباسيين كانوا يخشون أن يجلبوا لانفسهم عن طريق الشدة القاسية كراهية الشعب التي كانت نحسا وشؤما علي الامويين.

٢- علي أن المسألة أعمق من هذا، وأنها تتصل بشرعية ولي الامر وأحقية الفرع العلوي من اسرة النبي هو الاخر في الاشتراك في الحكم اشتراكا فعليا وهذه نظرة الفيلسوف الزاهد الذي يبحث عن الحقائق الصرفة دون اعتبارات اخري. ويمكن التفكير في أن المأمون كان متأثرا في ذلك بآراء وزيره الفضل بن سهل.

ويؤيد وجهة النظر الثانية هذه أن المأمون زوج العلوي ابنته أم حبيب وزوج ابن الرضا وهو محمد ابنة اخري وهي ام الفضل، وفي هذا معني تحقيق وحدة الفرعين العباسي والعلوي. ثم أنه غير اللون الاسود لون العباسيين للرايات والخلع، واحل محله اللون الاخضر شعار العلويين «معني ذلك حل المشكلة العلوية وقيام دولتهم المنتظرة» وربما ايدها أيضا تصرفات المأمون ازاء العلويين بعد وفاة الرضا.

نتائـج بيعـة الرضـا:

ولكن هذا العمل السياسي الغريب يعكس ما كان يتوقع له في العراق، فبدلا من أن يؤدي الي الهدوء اثار الغضب ، اذ احتج جميع العباسيين علي اعتزال اوتنحي رئيسهم «قالوا لاتخرج الخلافة من ولد العباس» . وفي بغداد رفضوا اداء البيعة للأمير العلوي وفكروا في خلع المأمون نفسه «كان أشدهم فيه منصور وابراهيم ابناء المهدي» وفعلا تنازعوا هذا الأمر اثناء خطبة الجمعة «٢٧ ذي الحجة» وتفرق الناس دون صلاة بعد ان نودي بعم المأمون. وهو المغني الموسيقي الهاوي ابراهيم بن المهدي، خليفة ولقبوه "بالمبارك" .

وتمكن ابراهيم من الاستيلاء علي الكوفة مركز العلويين اذ أن هؤلاء في جانبهم لم يرضوا عن البيعة لعلي بن موسي للرضا بعد المأمون الا أن تكون البيعة لرضا فقط.واستولي كذلك علي السواد بجميعه، ثم أخذ قصر ابن هبيرة بفضل اختلاف بعض القواد "الحسن بن سهل «٠ اربيع» وسير ابراهيم جنوده الي واسط حيث كان عسكر الحسن متحصنين ولكنهم انهزموا . وفي بغداد نفسها قبض ابراهيم علي سهل بن سلامة الذي كان يدعو علي رأس رجاله الي الامر بالمعروف والنهي عن المنكر «كان قائده عيسي بن محمد بن ابي خالد يسميهم الفساق» فعاقبه وحبسه. وعندئذ عرف المأمون أن بغداد لاتستطيع ان تعيش بدون خليفة، كما رأي عدم جدوي ولاية

العلوي للعهد فقرر ان يعمل شخصيا. والظاهر ان وزيره امده بمعلومات خاطئة عن الموقف بالعراق وأن مهره الطالبي هو الذي اوضح له الأمر «ابنا سهل اخفي عنه بيعة ابراهيم».

وكان هناك خطر جديد يهدده في المشرق، فالحركات المذهبية التي بدأت بتعاليم ابي مسلم، والتي تابعه فيها المقنع عن تناسخ الارواح والحلول الالهي كانت قد انتشرت في اذربيجان بفضل من يسمي بابك الذي اكتسب كثير من الاتباع، والذي ربما بلغت قوته الي حد فصل الولايات الايرانية عن الغرب لو قدر لحركته ان تتسع الي أكثر من ذلك. فهم المأمون اذن خطورة الموقف وترك مرو وسار الي بغداد. ولحسن حظه تمكن من الخروج من المأزق الذي دبره هو نفسه. ففي الطريق تحدث مأس اشتهر بها التاريخ العباسي اذ يغتال الفضل بن سهل، ذو الرئاستين بسرخس- بتدبير من الخليفة علي ماتدل الظواهر. واتجه المأمون نحو طوس لزيارة قبر والده والتبرك بالصلاة عليه. وفي طوس مات مهره العلوي مصابا بسوء هضم كما يقال «أكل عنبا وكان يحب العنب»، ولكن من المحتمل انه مات مسموما «ابن الاثير لايعتقد في ذلك»، ودفن الي جانب قبر هارون ولماكان العلويون سيعتبرونه شهيدا في القريب العاجل، بنيت حول قبره مدينة جديدة سميت المشهد الرضوي "او مشهد" التي محت نهائيا مدينة طوس القديمة، والتي تمثل الان اكبر عتبات الشيعة المقدمة الي جانب كربلاء.

ولما كان أخو الوزير وهو الحسن بن سهل بمنطقة واسط، وكان غريبا بالنسبة للعراقيين فانه سيجن بعد قليل ، كما يقال وبسجن بهذه الحجة وبناء علي ذلك فان اهل بغداد بدأوا يهجرون المطالب بالخلافة «ابراهيم بن المهدي» الذي اضطر الي الاختفاء، بعد أن تسلسل قواده الي قواد المأمون ولشل محاولاته للاحتفاظ بمركزه «في ١٦ ذي الحجة سنة ٢٠٣هـ» كما اختفي الفضل بن الربيع ايضا ثم انه تحول الي قائد المأمون وسمحوا للمأمون بدخول بغداد.

عـودة المأمون الى بغداد:

دخل المأمون بغداد في صفر سنة ٢٠٤ هـ/اغسطس ٨١٩ م وبصحبته طاهر بن الحسين الذي كان المأمون قد استدعاه من الرقة «للقدوم عليه بالنهروان» وكان المأمون يتخذ لون العلويين الاخضر شعارا له، ولكنه لن يلبث ان يغيره العباسيين الأسود. «حسب نصيحة طاهر الذي اصبح رئيس شرطة بغداد، وعامل خراج السواد». عمل المأمون علي تهدئة العراقيين بان خفف الاعباء المالية عن اهل السواد بعض الشئ «وهي نفس السياسة المالية التي اتخذها عند ما اعتصم بخراسان أول امره فقد امر بمقاسمة اهل السواد علي الخمسين وكانوا يقاسمون علي النصف».

طاهـر إلـى خراسـان:

وفي السنة التالية سنة ٢٠٥هـ سار طاهر الي خراسان بامر

الخليفة الذي ولاه علي المشرق من مدينة السلام الي اقصي عمل المشرق. اذ كانت الاحوال تغلي بالاضطراب والفتنة هناك. وبعد قليل من الوقت اصبح السيد الذي لا ينازع للولاية جميعا. وولاية طاهر لخراسان بفضل تدبيره هو نفسه، وذلك ان صديقه احمد بن ابي خالد «الوزير» اثار شكوك المأمون حول مقدرة والي خراسان غسان بن عباد «ابن عم الحسن بن سهل منافس طاهر» ، فقال: "اخاف ان تخرج فيه خارجة من الترك فتهلكه" وربما كان احمد ابن ابي خالد مغرضا، فعندما توجه الي خراسان في أيام طلحة بن طاهر ليقوم بأمره وهب له طلحة ٣ آلاف درهم وعروضا بالفي الف درهم، ووهب لابراهيم بن العباس كاتب احمد ٥٠٠ الف درهم. وبعد مسير طاهر الي المشرق حل ابنه عبد الله بن طاهر الذي خلفه في قتال نصر بن شبث بالرقة محله ببغداد كصاحب الشرطة كما ولاه المأمون من الرقة الي مصر وكذلك الجزيرة.

وبعد قليل سيشعر طاهر بقوته حتي انه في «سنة ٢٠٧هـ/٨٢٢م» سمح لنفسه باهمال ذكر اسم الخليفة في خطبة الجمعة. ورغم أن هذا الاهمال او السكوت كان معناه العصيان المكشوف او اعلان الاستقلال عن الخلافة ومع ان الشكوك قالت عن طاهر الذي توفي عقب ذلك مباشرة أنه مات مسموما بتدبير من الخليفة، الا أن المأمون عين ابن طلحة واليا لخراسان وسيظل احفاد

طاهر محتفظين بهذا المركز حوالي قرن - بينما شغل افراد الاسرة وظائف مهمة في الغرب منها شرطة بغداد. وهكذا فقدت الدولة حقيقة ولايتها الشرقية المتطرفة. كما سبق ان فقدت الولاية الغربية [ولاية الاغالبة].

حلب والموصل

ورغم عودة المأمون الي بغداد فان الولايات المختلفة كانت قد تعودت علي الاضطراب، وسيودي عبد الله بن طاهر خدمات عظيمة للدولة فيما يختص بادارة الولايات الغربية. وفي منطقة حلب حيث كان نصر بن شبث وهو تابع الامين المخلص والمتعصب للعرب قد رفض طاعة المأمون وغلب علي الجهة، فان طاهر قام بمحاربته، ولكنه لم يستطع قهره الاسنة ٢٠٩ هـ ٨٢٥ وسيربابين شبث الي بغداد.

وانتهز أحد العباسيين من أتباع ابراهيم بن المهدي وهو المدعو "ابن عائشة" هذه الفرصة ودبر القيام بانقلاب في العاصمة، ولكن كشف أمره وكان جزاؤه القتل والصلب بعد الضرب والحبس «وهو أول عباسي صلب في الاسلام» وفي نفس هذه السنة «٢١٠هـ» قبض علي ابراهيم بن المهدي نفسه «وكان متنقبا في زي أمراة» ولكنه تمكن من نيل صفح المأمون وعفوه.

أما عن منطقة الموصل فكانت مضطربة كالعهد بها. اذ قامت الحرب بين واليها السيد بن انس وبين علي بن صدقة المعروف بزريق[١] والي ارمنية واذربيجان وانتهت بقتل ابن أنس سنة ٢١١هـ. وفي السنة التالية ارسل المأمون احد قواده «محمد بن حميد الطوسي» لحرب بابك وامره في نفس الوقت ان يصلح امر الموصل فتمكن من هزيمة زريق وأرسله للخليفة «وأصبح هو واليا للموصل».

الحالـة في مصــر:

أما عن مصر فانها عرفت الاضطراب هي أيضا علي عهد المأمون، وكان علي عبد الله بن طاهر اقامة الامن واستباب النظام بها. اذ ثار النزاع القديم بين عرب الجنوب وعرب الشمال بمناسبة النزاع بين الاخوين: فانهم القيسيون للامين واخذ الكلبيون جانب المأمون. وتحققت وحدة الامبراطورية من جديد ولكن مصر ظلت مضطربة حتي اضطر المأمون نفسه الي القدوم اليها سنة ٢١٦ هـ. ففي سنة ٢١٠ هـ وبعد أن تخلص عبدالله بن طاهر من نصر بن شبث سار نحو مصر وكان قد تغلب عليها عبد الله بن سري. تمكن هذا الرجل من مقاومة القائد الذي ارسله عبدالله بن طاهر. ولكن عندما توجه ابن طاهر نحو العاصمة المصرية انهزم ابن سري ودخل المدينة واعتصم بها. ولكن ابن طاهر شدد عليه الحصار حتي استسلم وحمل الي بغداد. ولكن حدث في نفس الوقت ان غزا من

---

(١) زريق ازدي مثل ابن انس وهو موصلي الاصل، وكان قد تغلب علي المنطقة مابين الموصل واذربيجان.

الاندلسيين «٥ الف رجل» الذين نفاهم الحكم صاحب الاندلس الاموي الاسكندرية واستولوا عليها وأثاروا الاضطراب من جديد. ولكن عبدالله تمكن بعد قليل من ارغامهم علي الانسحاب الي جزيرة كريت وتسيير دولاب الادارة من جديد «هذا الحادث يدل علي مايشبه الوحدة الاسلامية في البحر المتوسط ايام الاضمحلال البيزنطي - سيظل الاندلسيون بكريت حتي يطردهم البيزنطيون منها سنة ٩٦١م».

وعاد عبد الله بن طاهر الي بغداد فاستقبله المأمون وأهل المدينة استقبال الفاتحين. وبعد موت اخيه طلحة سنة ٢١٣هـ تمكن من وضع يده علي ممتلكات الطاهريين الوراثية في خراسان «قيل أنه ولي خراسان بعد ابيه ولكنه كان قد عهد بها الي اخيه طلحة» وقام ولي العهد ابو اسحق المعتصم بامره مصر ولكنه اظهر عدم كفاءة اذ وثبت العصبيات العربية من قيسية ويمنية بواليه وقتلوه «ربيع اول سنة ٢١٤هـ» فاضطر الي السير بنفسه وقتال الثوار وقمعهم بالقوة. ولكن الاضطرابات عادت من جديد «واشترك القبط في الثورة» حتي اضطر المأمون نفسه الي المسير من دمشق الي مصر في اواخر سنة ٢١٦ هـ كما قدم القائد التركي الافشين اليهامن برقة. وأقام المأمون بمصر سنة ٢١٧هـ حتي هدأت الاحوال «اذ ظفر الافشين بأهل الفرما وقتل عبدوس الفهري الذي كان قد وثب بعمال المعتصم» وقيل أن المأمون هو الذي امر بحفر الثلمة التي في الهرم الاكبر.

وعن اليمن، فقد قامت بها ثورة علوية، فرغم المعاملة الخاصة التي حابي المأمون بها الطالبين، دعا عبدالرحمن بن احمد العلوي لنفسه بالخلافة هناك سنة ٢٠٧ هـ «للرضا من ال محمد» منتهزا تذمر اهلي البلاد من العمال. ولكن ما أن وجه المأمون احد قواده «الدينار بن عبد الله» الي هناك وخير الطالبي بين امان الخليفة والحرب حتي اعلن الثائر الطاعة فاقتيد الي المأمون.

وكان لهذه الثورة اثرها في نفس المأمون فامر بمنع الطالبين من الدخول عليه، كما منعهم من ارتداء لونهم الاخضر وامرهم بلبس السواد، وبدأ يكون حذرا بعض الشئ في معاملته لهم، حريصا علي تعقب ابناءهم. فهو عندما تصله شائعات انكرها عن ميل عبد الله بن طاهر الي العلويين لايتورع عن أن يدس عليه رجلا يتظاهر بالدعوة للعلويين حتي يتأكد من صحة رأيه في ابن طاهر.

ولكن لم يكن هذا تغييرا جوهريا في سياسته ازائهم فهو دائم العطف عليهم والمحاباة لهم يفعل ذلك طبعا لاتكلفا، كما تقول النصوص فهو في نفس السنة ٢١١هـ ينادي بالحط من شأن معاوية - عدو علي اللدود - ويلعن من ذكره بخير أوفضله علي احد من اصحاب النبي. وفي السنة التالية ٢١٢هـ يعلن تفضيل عن بن ابي طالب علي جميع الصحابة. وكما أنه قبل أن يموت في وصيته لاخيه المعتصم علي احسان صحبة بني عمه اولاد امير المؤمنين علي

والتجاوز علي مسيلهم.

بدايــة بابــك الخرمي:

هذه الاضطرابات التي حلت بمختلف الولايات لم يكن لها خطورة الحركة المذهبية الخطيرة التي ترأسها بابك باذربيجان. هذه الحركة التي ظهرت سنة ١٩٢هـ في اواخر ايام الرشيد، بداها رجل يسمي جاويدان بن سهل وستظل تقوي وتشتد طيلة عهدي الامين والمأمون حتي تصبح خطراً داهما علي عهد المعتصم الذي سيتمكن بفضل قواد الترك من التغلب علي الثوار. ولاشك في ان الانقسام الذي اضعف الدولة أيام الامين والاضطرابات التي تلت موته كان من الاسباب التي مكنت الثوار من الاعتصام بجهتهم ومقاومة الحملات الضعيفة التيكانت توجهها نهم الحكومة المركزية والحقيقة أنه لوقدر للرشيد أن يعيش بعض الوقت لقضي علي الحركة في مهدها. اذ أنه في نفس السنة التي بدأت فيها الحركة «١٩٢هـ» وجه اليهم قائدا علي رأس ١٠ الاف رجل فنكل بهم. وكان الرشيد حازما ازاء الثوار فامر بقتل اسراهم وبيع سباياهم وظلت الحركة ضعيفة حتي سنة ٢٠١ هـ حين ظهر علي رأسها رجل صعب المراس هو بابك الخرمي الذي اظهر الي جانب كونه داعيا سياسيا ودينيا كفاءة عسكرية ممتازة فدوخ الجيوش تلو الجيوش.

ففي سنة ٢٠٤هـ كانت الحرب سجالا بينه وبين قائد الخلافة

يحيي بن معاذ. وفي سنة ٢٠٦ هزم عيسي بن محمد بن ابي خالد، وفي سنة ٢٠٩ هولي المأمون زريق وهو علي بن صدقة علي ارمينية واذربيجان وأمره بحرب بابك، ولكن هذا اكتفي بان اثار الاضطراب في الموصل والجزيرة كما رأينا وارسل المأمون قائدا اخرا [هومحمد بن حميد] فتك بزريق وتوجه الي اذرربيجان لملاقاة بابك. وتوغل ابن حميد في البلاد الجبلية نحو معاقل الثوار متخذا الحيطة في سلوك الدروب والمفاوز وحراستها، ولكن فاجاته قوات بابك في مضايق الجبال من كل وجه فانهزم الجيش وقتل ابن حميد وظل الثائر معتصما بجبال اذربيجان حتي وفاة المأمون سنة ٢١٨هـ.

الي جانب الثورة المذهبية المسلحة هذه، عرف مركز الدولة حركة دينية اشبه ما تكون بحركة الزنادقة علي عهدالمهدي، وهي التي تسميها بمحنة خلق القرآن. اذ أهتم المأمون بالمسائل الدينية. وتدخل في الجدل بين المعتزلة واهل السنة. ومع ان العامة لم تهتم كثيرا بمسألة القضاء والقدر الا انها اهتمت اهتماما بالغا بمشكلة خلق القران، اذ اعتنق المأمون رأي المعتزلة في أن القران مخلوق وأظهر ذلك سنة ٢١٢هـ وبدأ يجبر القضاة والفقهاء والائمة علي اعلان "خلق القرآن" واتخذ اجراءات شاذة ضد من لم يعتنق هذه الفكرة فترك الاستعانة به وربما ذهب الي ابعد من ذلك لعاقبه.

وكان الهدف من هذه الحركة مزدوجا كماهي العادة . فالخليفة الي جانب اهتمامه بالحياة الروحية لشعبة ورغبته في شغل رعيته بهذه المسألة واكتساب محبة الرعية ايضا، كان يعمل علي أن تكون هذه المشكلة الدينية وسيلة لان يتخلص «من اعدائه السياسيين ممن لايدينون بهذه الفكرة» وعرف المأمون كيف يربط بين الجهاد في سبيل الله ضد بيزنطة وبين هذه الحركة الدينية . فهو يهتم بها اهتماما جديا في اواخر ايامه اثناء وجوده سنة ٢١٨ هـ في ثغور الروم، تماما كما حدث ايام المهدي من اهتمامه بامر الزنادقة اثناء توجهه لحرب الروم. فهو يكتب الي بغداد في امتحان الفقهاء والقضاة وطلب انفاذ بعضهم اليه ليمتحنهم شخصيا .

ومن المهم متابعة استجوابات هؤلاء الأشخاص المهرة الذين يبحثون عن أجوبة لاتجرح ضمائرهم ولاتضر بمبادئهم فعندما سئل بشر بن الوليد عن رايه في القران قال: قد عرف مقالتي امير المؤمنين غير مرة." فلما قيل له قد تجدد كتاب امير المؤمنين قال: اقول القران كلام الله، وعندما رد عليه بأنه لم يسأل عن هذا وانما المطلوب معرفة ماإذا كان القرآن مخلوقا قال: الله خلق كل شئ "قيل له" فما القران شئ فقال "نعم" قيل له "فمخلوق هو" قال "ليس بخالق" .

ولما سئل احمد بن حنبل، ماتقوله في القرآن قال كلام الله قيل له "مخلوق هو" كلام الله ما ازيد عليها، فامتحن.

وكتب اسحق بن ابراهيم «الممتحن - خليفة المأمون ببغداد» مقالات القوم واحدا واحدا وارسلها الي المأمون فاجاب بان ذمهم، ولكنه كتب اليه ان يمتحن بشر بن الوليد وابراهيم بن المهدي «المدعي الخلافة ببغداد سابقا» وامره ان يضرب عنقهما ان لم يجيبا، أما عن سواهما فيحملون الي معسكره موثقين بالحديد. وفعلا شد احمد بن حنبل في الحديد ومعه اخر «محمد بن نوح» ووجها الي طرسوس في انتظار عودة المأمون من ارض بيزنطة الا أن خبر موت المأمون وصلهم وهم بالرقة، فعادوا الي بغداد.

الحرب مع الروم:

أما عن سياسة المأمون ازاء بيزنطة فرغم أنه لم يكن معتادا قيادة الحملات العسكرية شخصيا الا انه اضطر في اخر ايامه الي القيام بالعمليات الحربية بنفسه ضد امبراطورية القسطنطينية. فبعد انقطاع الغارات الاسلامية بمناسبة الصراع بين الامين والمأمون ربما كانت مساعدة البيزنطيين لبابك الذي ظل دائما يرفع رأيه العصيان باذربيجان والذي ازداد خطره اخيرا سببا في ان يقوم بغارة كبيرة علي أسيا الصغري سنة ٢١٥ -٨٣٠ م وخلال ٣ سنوات متتابعةاستمر الخليفة في الاشتراك في الصوائف.

ففي أول سنة ٢١٥ هـ توجه علي رأس حملة كبيرة الي

ثغور الروم واستصحب معه ابنه العباس، كما استدعي اخاه المعتصم من مصر، والتقي به هذا الاخير قرب الموصل، ومن الموصل اتجه الي منبج ثم دابق ثم انطاكية ثم المصيصة وطرسوس. ومن طرسوس دخل الي الاراضي البيزنطية في جمادي الاولي هذه الغارة عمت كثيرا من نواحي اسيا الصغري. فالعباس دخل من جهة ملطية يخرب ويدمر وفتح المأمون حصن ماجدة بالامان ثم حصن قرة عنوة وهدمه. ووجه القائد التركي اشناس الي حصن سندس ووجه قائدين اخرين الي حصن سنان، فخضع قائداالحصنين لشروط المسلمين. وعندما حل الشتاء عاد المأمون الي الشام «دمشق».

ولما تحسنت الاحوال الجوية في السنة التالية ٢١٦ هـرجع المأمون الي ارض الاعداء وكان الامبراطور قد قام باعمال انتقامية ضد طرسوس والمصيصة وتمكن المسلون من الاستيلاء علي عدد كبير من الحصون «٣٠ حصنا افتتحها المعتصم» لاسيما هرقلة التي خرج اهلها عنها بعد ان اخذوا الامان وكذلك مطمورة. واستمرت الصائفة ٤ اشهر «جمادي الاولي -١٤ شعبان» ثم عاد المأمون من جديد الي الشام.

وفي سنة ٢١٧هـ حاصر الخليفة اكبر الحصون البيزنطية علي الحدود وهو حصن لؤلؤة طوال الصائفة تقريبا «١٠٠يوم» ثم

رحل عنه تاركا احد قواد «عجيف» علي حصاره واضطر الباسليوس تيوفيل.
الي طلب السلم بعد سقوط الحصن صلحا «ارسل ملك الروم يطلب المهادنة فلم يتم ذلك».

وفي سنة ٢١٨ هـ سيعود المأمون الي ارض ثغور الروم ويوجه ابنه العباس الي طوانة ليحصنها بالحاميات ، وتم بناء الحصن فعلا وارسل الي البلدان في طلب المقاتلة للحصن واجري لهم العطاء السخي «الفارس ١٠٠ درهم والراجل ٤٠ درهما» ولو ان هذا لم يتم ففي هذه الأثناء عرض المأمون مرضه الذي مات فيه اذ فاجاته المنية قرب طرسوس حيث دفن.

الفصل الحادى عشر

التشريـــــــــع

التشريـــع

تركنا التشريع في العصر الاموي، وأشهر مميزاته انقسامه إلي قسمين: أهل الرأي، وأهل الحديث، وقد تجلي ذلك أكبر جلاء في آخر العهد الأموي، وأول العهد العباسي، وزاد الخلف بين الطائفتين، وتميزتا علي مرور الزمان، وأصبحت أعلام كل مدرسة من المدرستين جلية واضحة مغايرة لأعلام الأخري في الشارة واللون وما إلي ذلك، ويحمل أعلام مدرسة الحديث الحجازيون، وخاصة المدنيين، وعلي رأسهم مالك بن أنس وتلاميذه، ويحمل أعلام مدرسة الرأي العراقيون وخاصة الكوفيين، وعلي رأسهم أبو حنيفة النعمان.

وفخر العراقيون بأنه قد نزل بين أظهرهم أعلام من الصحابة، كعبد الله بن مسعود، وعلي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، وعمار بن ياسر، وأبي موسي الأشعري وغيرهم. وقال الحجازيون أن من تفرق من الصحابة في الأمصار أقل عدداً ممن في الحجاز فان النبي صلي الله عليه وسلم بعد رجوعه من حنين ترك بالمدينة نحو اثني عشر الف صحابي، مات بها نحو عشرة آلاف، وتفرق في سائر الاقطار نحو الفين.

وفي الواقع اذا حصرنا نظرنا في الحديث، وجدنا الأولوية للحجازيين، فأكثر الصحابة كانوا بالمدينة، وهم أعرف الناس بحديث رسول الله، وأخبر بقوله وعمله حتي من رحل منهم إلي العراق وسائر الأمصار فانما كانوا عارية من الحجاز. وقد خلف هؤلاء - كعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود - الحديث في المدينة كما خلفوه في

العراق، ففضل الحجازيين في هذا لاينكر، ولهذا اذا تجادل الحجازيون والعراقيين في هذا الباب كان الحجازيون أقوي وأقهر، بل عابوا علي العراقيين أنهم يتزايدون في الحديث الصحيح، ويكثرون من الحديث الموضوع. قال مالك: "اذا جاوز الحديث الحرتين ضعفت شجاعته"، وكان مالك يسمي الكوفة "دار الضرب" يعني أنها تصنع الأحاديث وتضعها، كما تخرج دار الضرب الدراهم والدنانير، وقال ابن شهاب: "يخرج الحديث من عندنا شبرا فيعود في العراق ذراعاً".

وسبب ذلك أن حديث رسول الله بدأ وختم في الحجاز، والمعتصمين لرسول الله كثيرون، ومن العسير الكذب في حادثة شاهدها الكثير، أو في قول سمعه الجم الغفير وليس الشأن كذلك في العراق، فبعده عن الحجاز يجعل اصطناع القول ممكنا. هذا إلي أن اخلاط المسلمين من الأمم المختلفة كانوا في العراق أكثر منهم في الحجاز وفيهم من لم يصل الايمان إلي أعماق نفسه فلا يتحرج من اختلاق حديث أو رواية خبر غير صحيح، مادام ذلك يعلي شأنه ويؤيد دعواه، وعامل آخر، وهو ظهور المذاهب المختلفة في العراق، من معتزلة ومرجئة وأصناف من المتكلمين، وليس يجاريهم في ذلك أهل الحجاز، لبساطة أهله في الحياة والعقيدة، وفي كل صنف من هؤلاء من رأي أن يؤيد حجته ورأيه بتأويل أيات القرآن واختلاق الحديث كما أسلفنا.

علي أن الحجازيين وان بزو العراقيين في الحديث، فقد بزهم العراقيون في الرأي، وهو مايسمي "القياس"، وكان ذلك طبيعياً أيضاً، لأن الأحداث تتبع في كثرتها وقلتها المدنية، فإذا كانت

معيشة قوم ساذجة بسيطة، كما هو الشأن في الحجاز كانت مسائلها الاقتصادية والجنائية وأحوال الأسرة ساذجة بسيطة وأن تعقدت الحياة وعظمت المدينة كما هو الشأن في العراق، تعقدت الأحداث الاقتصادية والجنائية والاجتماعية وتنوعت، وكل هذه الاحداث تحتاج الي تشريع وأحاديث رسول الله [ص] التي كانت معروفة بالحجاز تكفي بنصها علي وجه التقريب للافتاء بما يقع في الحجاز من أحداث، للشبه الكبير بين عهد مالك وعهد النبي [ص]، وليس كذلك الشأن في أحداث العراق، فهي كثيرة معقدة، متنوعة . بالعراق دجلة والفرات ومايتطلب ذلك من ري وخراج ليس مثلها في الحجاز، وفي العراق مال وفير يصب صبا، والمال يتبعه الترف والنعيم، واللهو والاجرام، وخلق مشاكل تحتاج الي فتاو ليس مثلها في الحجاز، وبالعراق اخلاط من فرس وروم ونبط وغير ذلك لهم عادات اقتصادية واجتماعية وليس مثلها في الحجاز فلئن كفي الحديث في الحجاز وحاجتهم قليلة وحديثهم كثير، فليس في العراق وحاجتهم كثير وحديثهم قليل - لذلك اضطروا الي اعمال الرأي فيما لم يرد فيه نص، والتوسع في النص بالوضع - ورأينا النزاع يشتد حول القياس وجوازه وعدم جوازه، وكانت معركة كبيرة نجمل أمرها فيما يلي:

لعب القياس دوراً كبيراً في العصر العباسي، وشغل حيزاً كبيراً من العلوم، فالقياس في أصول الفقه، وفي الفقه، وفي اللغه، وفي النحو، وفي المنطق، والذي يهمنا الآن منه في التشريع.

اصل القياس أن يعمل حكم في الشريعة لشئ فيقاس عليه أمر آخر لاتحاد العلة فيهما، ولكنهم توسعوا في معناه أحياناً فأطلقوا علي

النظر والبحث عن الدليل في حكم مسألة عرضت لم يرد فيها نص،واحيانا يطلقونه علي الاجتهاد فيما لانص فيه. وبعبارة آخري جعلوه مرادفاً للرأي، ويعنون بالرأي وبالقياس بهذا المعني أن الفقيه من طول ممارسته للاحكام الشرعية تنطبع في نفسه وجهة الشريعة في النظر الي الاشياء، وتمرن ملكاته علي تعرف العلل والأسباب، فيستطيع اذا عرض عليه أمر لم يرد فيه نص أن يري فيه رأياً قانونياً متأثراً بجو الشريعة التي ينتمي اليها، وبأصولها وقواعدها التي انطبعت فيه من طول مزاولتها، ومن أجل ذلك ذموا الرأي الذي يصدر ممن ليس أهلا للاجتهاد، والرأي الذي لاتسنده أصول الدين، وهذا الرأي أو القياس كان مثاراً للنزاع بين العلماء منذ العصر الاموي كما أبنا ذلك في فجر الاسلام حتي بين اصحابهم فمنهم من كان يتشدد فلا يفتي الا بما ورد فيه نص من كتاب أو حديث كعبد الله بن عمر، ومنهم من كان يبدي الرأي فيما يعرض من الحوادث التي لم يرد فيها نص، كعمر وعبد الله ابن مسعود وغيرهما، وروي في ذلك الشئ الكثير. واستمر النزاع بين النزعتين يقوي ويشتد الي العصر العباسي، وأصبحت رياسة أهل الرأي لفقهاء الكوفة، وأهل الحديث لاهل المدينة، وفي الواقع لم يخل امام من الأئمة - سواء كان من اهل الرأي أم الحديث - من القول بالرأي، وهو مضطر الي ذلك لأن التقدم في المدينة يخلق كل يوم حوادث جديدة تحتاج لفتوي الفقهاء، ولايعد فقيهاً حتي يفتي فيها ولكن الفقهاء اختلفوا درجات متفاوته في مقدار الأخذ بالرأي والاعتماد عليه، فمنهم من ضيق أمره، ومنهم من توسع، ومنهم من توسط كما سيأتي بيانه، وكان هذا من أهم الأصول التي خالفت بين الائمة في التشريع.

وبينما نري الخلاف بين الأئمة في الرأي في هذا النحو، نري مسألة أخري تثار، لها اتصال كبير علي مايظهر لي بمسألة الرأي رالقياس، هي "مسألة التحسين والتقبيح العقليين"، وهي مسألة اثارها المعتزلة، ومدارها هو: هل في الافعال صفات من حسن أو قبيح جعلت الشارع يأمر بها، أو ينهي عنها؟ فلولا ما في الصدق من صفة لما أمر به، ولولا ما في الكذب من صفة لما نهي عنه؟ أو أن الشارع يأمره بالصدق جعله حسناً، وينهيه عن الكذب جعله قبيحاً؟ ولو شاء لعكس، هذه مسألة عاصرت القياس والرأي، وفي نظري أنهما مسألتان متساندتان، فمن كان يري ان في الأفعال صفات من أجلها أمر بها الشارع أو نهي، قال: أن هذه الصفات يمكن ادراكها بالعقل، ولذلك يكون الرأي في امكانه كشف هذه الصفات وتعرفها واصدار حكم فيها، وذلك يجعل له حرية كبيرة في التشريع. ومن قال بعدم الصفات الذاتية، وان أمر الشارع هو الذي يحسن ويقبح، كان من الطبيعي أن يقف في أجتهاده علي النص، وكل مايستطيع في الاجتهاد أن يلحق الشبيه بشبيهه، وطبيعي أن يذهب الحنفية إلي الرأي الأول، وأن العقل يستطيع ادراك مافي الشئ من صفات حسن او قبح، وأن الانسان لو لم تبلغه دعوة فلا عذر له في الجهل بخالقه لدلالة العقل عليه، وهو ملزم بفعل الحسنات وترك السيئات لأن العقل يرشد الي ذلك، وأصبحت هذه المسألة من مسائل أصول الفقه.

وأخذت المسألة دوراً كبيراً في الجدل بين أصحاب الرأيين فيقول - مثلاً أحد الفريقين، وهو المنكر للتحسين والتقبيح العقليين: أنا نري الشريعة قد فرقت بين المتماثلين وجمعت بين المختلفين، ولو كان الأمر بالعقل لجمع بين المتماثلين وفرق بين المختلفين، فالشارع أوجب

قضاء الصوم علي الحائض دون الصلاة، مع أن الصلاة أولي بالمحافظة عليها، وحرم النظر الي العجوز الشوهاء القبيحة المنظر إذا كانت حرة، وجوزه الي الشابة البارعة الجمال اذا كانت أمة وأكتفي في القتل بشاهدين دون الزنا، وحرم المطلقة ثلاثا علي الزوج المطلق ثم أباحها له اذا تزوجت بغيره، وحالها في الموضعين واحدة، وأباح للرجل أن يتزوج أربعا، ولم يبح للمرأة الا رجلا واحدا، مع قوة الدواعي من الجانبين وقطع يد السارق لكونها آلة المعصية، فأذهب العضو الذي تعدي به علي الناس، ولم يقطع اللسان الذي يقذف به المحصنات، ولا العضو الذي يزني به، وأوجب الزكاه في خمس من الابل، وأسقطها عن عدة آلاف من الخيل الخ٠ الخ٠ فلو كان الأمر بالعقل لكان الحكم غير هذا، فكيف نترك الحكم للرأي، وكيف نقول بالحسن والقبح العقليين؟

وقد رد عليهم الآخرون ردوداً طويلة مجملة ومفصلة،وأبديت فيها آراء مختلفة في عصور مختلفة، ومن هؤلاء من توسط فجعل للعقل سلطان ومقدرة علي المعرفة في غير العبادات، أما العبادات فما لا دخل للعقل فيها٠

علي كل حال لو رسمنا دوائر تمثل المذاهب في استعمال الرأي لكان أصغرها دائرة الظاهرية، ثم الحنابلة ثم المالكية، ثم الشافعية، ثم الحنفية وقد اتخذ بعض أنواع الرأي أسماء خاصة، كالاستحسان، والمصالح المرسلة٠ فالاستحسان قد عرفوه تعريفات مختلفة، أقربها إلي فهم أن يكون في المسألة شبه بمسألة اخري ورد فيها نص، وكان من مقتضي ذلك أن يقيس الفقيه هذه المسألة علي المسألة التي ورد فيها النص، ولكنه لايفعل ذلك ويترك هذا القياس الي تقدير المسألة

بمقتضي العدالة، فهو يبحث عن العدالة المطلقة في المسألة ويصدر بمراعاتها حكمها، وهذا - كما تري - أوغل في باب الرأي. وقد قال بالاستحسان الحنفية، وأنكره الشافعية، وروي عن الشافعي في ذمة أنه قال قال "من أستحسن فقد شرع".

وقريب من هذا مايسمي "الاستصلاح" أو "المصالح المرسلة" وذلك أن الشارع - كما قالوا - يدور في تشريعه علي حفظ أمور خمسة وهي: الدين، والنفس، والعقل، والنسل والمال ولو استقرينا أوامر الشرع ونواهيه لوجدنا علته كذلك، فاذا عرضت مسألة من المسائل لم يرد فيها نص فيما يترتب علي الأمر من المصالح والمضار، وقدرنا ذلك كله، وأصدرنا حكمنا بحله أو حرمته. وقد مثلوا لذلك بكفار تترسوا بجماعة من أسري المسلمين، فلو كففنا عنهم لقاتلوا وغلبوا علي دار السلام وقتلوا المسلمين، ولو رمينا الترس لقتلنا مسلماً معصوماً لم يذنب ذنباً، فقالوا أن المصلحة تقتضي القتال ولو قتل الترس، لأن مقصود الشرع تقليل القتل، أو منعه عند الامكان، وفي مقاتلته الكفار تحقيق لهذا، لأنه اذا لم يفعل قتلوا المسلمين ثم قتلوا الأسري، فالأسير مقتول علي كل حال، وأقرب الطرق الي تقليل القتلي هو مقاتلة الأعداء ولو تترسوا بالمسلمين، فتري من هذا أنهم يعنون بالاستصلاح أو بالمصالح المرسلة وزن مايعرض من المسائل بميزان المصلحة العامة، أو بأغراض الشارع العامة، أو بالقواعد الأساسية التي جاءت من أجلها الشرائع، وهو ضرب من الرأي أو مراعاة العدالة يدعو الي نوع من الحرية في التشريع.

****

والآن نستعرض في ايجاز المسلك الذي سلكه أهل الحديث، والمسلك الذي سلكه أهل الرأي.

توفي رسول الله [ص] وخلف كتاب الله، وأحاديث حدث بها، وأفعالا فعلها، وقد شاهد ذلك كله أصحابه وسمعوا منه، ومن الصحابة من سمع بعض قوله دون البعض، ومن رأي بعض أفعاله دون البعض، ثم تفرقوا في الأمصار عند الفتح، فمنهم من نزل العراق، ومنهم من نزل الشام، ومنهم من نزل مصر، وكان كل جمع من الصحابة ينزل مصرا يروي ماسمع ومارأي من رسول الله، ولم يكن ذلك كله مدونا، أنما كانوا يتولونه شفاهة، وقليل منهم من يكتب. وظهر بعد ذلك مصدراً آخر، وهو أن كبار الصحابة وعلماءهم كانت تعرض عليهم بعض الاحداث ممن لم يعرفوا فيها نصا من كتاب ولاحديث، فيجتهد برأيه ويقول فيها قولا، وكان هذا القول فيها بعد يعد مستنداً من مستندات التشريع، لأنه صدر عن صحابي كبير، عاشر النبي زمناً طويلا، وعرف مناحي الشريعة ومجراها وأحياناً يتبين أن هذا الرأي قد صدر فيه حكم النبي، ولكن هذا الصحابي لم يعمله كالذي روي ان عبد الله بن مسعود سئل عن أمرأة مات عنها زوجها، وكان لم يعين لها مهراً، فقال: لم أر رسول الله يقضي في ذلك، فألحوا عليه فاجتهد رأيه وقضي بأن لها مهراً كالذي يفرض لمثلها، لاوكس ولاشطط، وعليها العدة ولها الميراث، فقام معقل بن يسار فشهد بأن رسول الله قضي في مثل هذه المرأة بمثل هذا الرأي، ففرح ابن مسعود فرحة لم يفرح مثلها بعد الاسلام. وأحياناً يظهر حديث يخالف رأي الصحابي فيعدل عنه، كالذي روي أن أباهريرة كان يري أن من أصبح جنباً فلا

صوم له، حتي أخبرته بعض نساء النبي بغير ذلك فعدل عن قوله.

علي كل حال زادت مراجع التشريع مرجعاً وهو فتاوي الصحابة، وليس ماخالف الصحابة قاصراً علي ماذكرت، بل هناك أمراً آخر وهو أن الحديث قد يكون قد ثبت عن الرسول، ولكن اختلفت أنظار الصحابة في توجيهه وتفسيره وتأويله، أو أن الحديث قد نسخ بحديث آخر بلغ بعضهم ولم يبلغ البعض، مثال الأول ماروي أن رسول الله أسرع في الطواف مرة، فذهب كثيراً إلي أن الرمل في الطواف سنة، وقال ابن عباس ليس بسنة، أنما فعله النبي لسبب عارض، وهو أنه قد بلغه قول المشركين حطمتهم حمي يثرب، فأراد أن يظهر لهم بالاسراع القوة والنشاط، وليس بسنة؟ ومثال الثاني أن النبي رخص في نكاح المتعة عام خيبر وعام أوطاس، ثم نهي عنها، فاختلفت الصحابة في ذلك وفي نسخة، وقد يثبت الحديث ايضا ولكن يختلفون في علته، كالذي روي ان رسول الله قام للجنازة، فاختلفوا في تعليل ذلك، فقال قوم: ذلك لتعظيم الملائكة تحف بالميت، أو لهول الموت، فيعم الوقوف للميت والكافر، وقال قوم: أنها كانت ليهودي، فكرة أن تعلو فوق رأسه، فالقيام يخص الكافر الخ.

فلما جاء عصر التابعين زادت المصادر مصدراً علي النحو الماضي، فكان من كبار التابعين من له فتاوي في حوادث لم تكن في عهد النبي ولاالصحابة وكان لكل كبير من كبارهم أراء في تفسير بعض الآيات القرآنية، وآراء في تأويل الحديث وآراء في فتاوي الصحابة، كما كان لهم آراء في تقدير الصحابة وتقويمهم من الناحية الفقهيه، فمن التابعين من يفضل أقوال عبد الله بن مسعود علي غيره، ومنهم من

يفضل آراء علي وابن عباس، الي غير ذلك، ويغلب أن هذا الترجيح يرجع الي البلد الذي فيه الصحابي والتابعي وتابع التابعي. فهو يتتلمذ للصحابة الذين كانوا في بلده، ويأخذ بقولهم، يفضل روايتهم.

وجاء بعد التابعين طبقة أخري تعمل عمل التابعين وهكذا، فعمر وعثمان وعبد الله بن عمر وعائشة وابن عباس وزيد بن ثابت كانوا أئمة المدينة، وجاء بعدهم تلاميذهم، ومن أشهرهم سعيد بن المسيب، وسالم بن عبد الله بن عمر، ومن بعدهما الزهري، ويحيي بن سعيد، وربيعة الرأي ومن بعدهم مالك، لذلك كان مالك أعلم الناس بقضايا عمر وأقوال عبد الله بن عمر، وعائشة ومن ذكرنا، وكان عبد الله بن مسعود وعلي في الكوفة، ثم شريح والشعبي، ثم علقمة وإبراهيم النخعي، وتمت السلسلة الي ابي حنيفة. وتعصب كل قوم لسلسلتهم، فكان مالك يبهج منهج من ذكرنا من أعلام مدرسته، وأبو حنيفة كذلك، قال أبوحنيفة مرة لمناظره: " ابراهيم أفقه من سالم، ولولا فضل الصحبة لقلت علقمة أفضل من بن عمر". وكما كان مالك أعلم الناس بأحاديث المدينة وقضايا علماء الصحابة المدنيين وتابعيهم وفتاويهم وآرائهم، وكان ابو حنيفة أعلم الناس بقضايا عبد الله ابن مسعود وعلي ابن أبي طالب، وغيرهما من صحابة العراق وفتاويهم، وآراء التابعين من الكوفيين. ولما جاء دور التدوين في العصر العباسي رأينا مالكاً يجمع هذا الذي ذكرنا في كتابه الموطأ، والعلماء العراقيين يجمعون فتاوي أئمتهم ومشايخهم في الكتب.

ووجد كثير من علماء المدينة كسعيد بن المسيب والزهري يكرهون الرأي والقول به، ويهابون الفتيا ويعدونها محنة، وساعدهم

علي تحقيق نزعتهم ما أشرنا اليه قبل من كثرة الحديث عندهم، وقلة الأحداث التي تعرض لهم. وحملتهم هذه النزعة ايضا علي أن يرحلوا الي البلاد يجمعون الأحاديث التي لم يروها رجال المدينة، فمنهم من رحل الي العراق، ومنهم من رحل الي الشام ومصر، فإذا استفتوا رجعوا الي الكتاب، فان وجدوا فيه نصاً عملوا به، وإلا رجعوا إلي الحديث، فكذلك، وان رأوا أحاديث مختلفة فاضلوا بينها بالراوي من حيث العلم والصدق، فاذا لم يجدوا حديثاً رجعوا الي أقوال الصحابة والتابعين فأخذوا بقولهم، فان اختلف الصحابة والتابعون فاضلوا بين اقوالهم وخاصة أقوال أئمة بلادهم، فان لم يكن شئ من ذلك رجعوا الي أصول الكتاب والسنة، فنظروا الي اشارتها ومقتضياتها لعلهم يجدون مشبهاً لما عرض ، أويقع في نفسهم حكمة للأمر أو النهي أو الحل والحرمة تنطبق علي هذه المسألة .

بجانب هؤلاء كان قوم من أهل الرأي وخاصة في العراق، يتهيبون الحديث كما يتهيب الاولون الرأي، ويستعظمون "قال رسول "كما يستعظم الاولون "اجتهد رأيي" ولعل ذلك سببه أدراك مافي الأمر من صعوبة في اثبات نسبة الحديث الي رسول الله والاستيثاق من صحته. قال ابراهيم النخعي، وهو من علماء الكوفة أقول قال عبد الله [يعني بن مسعود] وقال علقمة أحب الينا من اجل ذلك قل الحديث عندهم، وكانوا آجرأ علي الرأي ، بل لم يقتصروا في الافتاء علي مايقع من أحداث، وما أكثرها في العراق، بل تعدوا الي فرض الفروض فلو قال رجل لأمرأته أنت طالق نصف تطليقة أو ربع تطليقة فماذا يكون الحكم؟ ولو قال انت طالق واحدة بعدها واحدة فماذا يكون الحكم؟ ونحو ذلك كان الأمر أصبح مرناً عقلياً كمسائل الحساب والجبر

والهندسة، ومرنوا علي ذلك مرناً عجيباً وخاصة أبا حنيفة كما سيأتي. فكان لهم قدرة فائقة علي قياس الأمر بأشباهه، واستخراج العلل والأسباب، ووجوه الفروق والموافقات، وقد اشتراكوا مع المدرسة الأولي في العمل بالكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين، ولكنهم اختلفوا عنهم في أمور:

منها ذكرنا من قلة الحديث والمبالغة في اشتراط صحته، وعدم التحرج من الرأي كالذي اسلفنا، ومنها أن أهل العراق لهم مشايخهم وصحابتهم، ولأهل المدينة مشايخهم وصحابتهم، ومنها: أن أهل العراق فلسفوا الفقه بمسايرة المنطق، والتوسع في التعليل العقلي، والتوسع في الاستنباط، والدقة في استخراج وجوه الشبه ووجوه الفرق، وكان طريقتهم جمع ماروي عن جلة الصحابة والتابعين الذين نزلوا في العراق من الحديث والفتوي والاستنباط، ثم يحفظون ذلك فاذا عرضت لهم مسألة فان ورد فيها شئ من الكتاب والسنة أفتوابه، وأن لم يكن فيها رأي من آراء مشيختهم نظروا فيه، والا استنبطوا الحكم من علة لهذه الفتاوي أو أشارة أو ايماء، أو بحثوا عن حكمة الحكم ثم عمموا الحكمة في المسألة التي عرضت، أو القوا علتين اوحكمتين واستنبطوا الحكم منهما، أو جدوا في طلب شبه لهذه الحادثة وقاسوها عليه، فان لم يكن شئ من ذلك رجعوا الي مايكتسبه المجتهد من طول المزاولة وادمان النظر، مما يصح أن نسميه "الذوق القانوني" يري به وجه الحكم، وأي الأحكام أقرب الي العدل، وأكثر تحقيقاً للمصلحة وقد سموا هذه الطرق في استخراج الأحكام "تخريجاً".

وقد كان في كل مدرسة غلاة متطرفون، كما كان فيها معتدلون،

فمن مدرسة الحديث من غلا فمنع القياس والقول بالرأي، وقصر نفسه علي الفتوي فيها ورد فيه نص من كتاب أو سنة، وهرب من المسائل التي بم يجد فيها نصاً، ومنهم من اعتدل فأجاز العمل بالرأي في حدود معينة . ومن مدرسة الرأي من غلا حتي لم ير العمل بالحديث، لأن الأحاديث يعتورها الشك، فليس يسلم راو من غلط أو نسيان أو خطأ في حديثه،ومنهم من أعتدل فعمل به في حدود معينة، فاذا لم يستوف الشروط لجأ الي الرأي. وقد رأينا قبل أن ابن المقفع نقد حال المشرعين في زمانه، وقال أن منهم من زعم أنه التزم السنة، وقد غلا فيها سماه سنة ومنهم من غلا في استعمال الرأي حتي بلغ الاعتداد به ان يقول في الأمر الجسيم قولا لا يوافقه عليه احد وتخلص من ذلك الي وجوب وضع قانون يضعه اولو الأمر يلزم به القضاة ويعمل به في الامصار.

ونحن اذا اردنا أن نسجل التغيرات التي طرأت علي التشريع في العهد العباسي استطعنا أن نسجل الظواهر الآتية :

١ ـ أول مانلاحظه أن الأمويين ـ اذا استثنيا عمر بن عبد العزيز ـ لم يكونوا يتصلون برجال التشريع ورجال الدين علي العموم اتصالا وثيقا، إلا في أحوال نادرة، كاتصال الزهري بهم، بل قصر الخلفاء انفسهم علي النواحي السياسية من قمع الثورات الداخلية والفتوحات الخارجية، وتنظيم شئون الدولة المالية وما إلي ذلك، وتركوا العلماء يدرسون ويفتون، وعينوا القضاء وتركوهم يقضون بمايرون، كأن السياسة منفصلة عن الدين، وكأن وظيفتهم سياسية بحتة، فلما ثارت الثورة علي الامويين واستقر الامر في يد

العباسيين، كان من أثرها صبغ الدولة صبغة دينية، ورأينا النزعة الدينية، عند الخلفاء العباسيين الأولين واضحة جلية، ورأينا اتصال الخلفاء بالعلماء ورجال الدين أقوي وأبين، فأبو جعفر المنصور يقرب العلماء ويصلهم، والمهدي يشتد علي الزنادقة وينشئ "أدارة" للبحث عنهم وتعذيبهم، والرشيد وأبو يوسف متلازمان، والمأمون يصدر "مرسوماً" بخلق القرآن الكريم، ويقضي شطراً من خلافته في مناقشة العلماء في ذلك وتعذيب من أنكره، ويناقش في نكاح المتعة ويريد أن يصدر أمراً في شأنه، وهكذا مما لانجد له مثيلا في العهد الأموي. وعلي العموم فقد أراد العباسيون الا يكونوا سياسين فحسب، بل سياسيين ودينيين معاً وكان من أثر ذلك ان جماعة من اعلام العلماء عذبهم العباسيين لأنهم أبوا ان يخضعوا لوجهة نظرهم، والخضوع لسلطانهم، كمالك وأبي حنيفة وسفيان الثوري، علي حين انا نري الحسن البصري في العهد الاموي يجلس في المسجد الجامع ويتكلم في السياسة، ويستفتي في الخلفاء والأمراء فينقدهم في شدة، ثم لايصيبه أذي. والذي يهمنا هنا هو الناحية التشريعية، فقد كان لاتجاه العباسيين هذا الاتجاه اثر بين في التشريع وهو صبغ أعمال الدولة

كلها صبغة دينية. فنظام الري، ونظام الضرائب وحفر الترع وجباية الأموال، ونظام الدواوين، كلها مسائل دينية يؤلف فيها أبو يوسف القاضي كتابه الخراج، ويستفتي فيها الفقهاء، ويجتهدون فيها اجتهاداً دينياً، وهكذا كل ما دق من الأمور وعظم، مرجعه فتوي المفتين وقضاء رجال الدين، وهذا من غير شك - يجعل مهمة الفقهاء واسعة النطاق.

٢- ويتصل بهذا الأمر ان الفقه في العصر العباسي تضخم ونما نموا كبيراً، وسبب هذا امور ، منها: ما أشرنا اليه قبل من عمل العباسيين في صبغ الأمور كلها صبغة دينية، ومنها أن طبيعة النظام الذي جرى عليه الفقهاء تجعل المأثور يتزايد مع الزمن، فبعد أن كان في عهد الصحابة المأثور هو حديث رسول الله، أصبح في عهد التابعين المأثور أقوال الرسول وكبار الصحابة، وفي عهد تابعي التابعين المأثور هذا وقول التابعين وهكذا. فكلما جاء جيل ورث عمن قبل آراء المجتهدين، وفتوى المفتين، وقضاء القضاة، وسبب ثالث وهو أن مدرسة الرأي لم تكتف بما يحدث من أحداث بل كأنها فرحت بما لديها من وسائل الاجتهاد وأدوات القياس، والقدرة على "التخريج" فأباحت اثارة المسائل الفرضية، وتبدي فيها رأيها، وتستعمل قياسها حتى فرضوا المستحيل والبعيد الوقوع، وأكثروا الفروض في أبواب الرقيق والطلاق والايمان والنذر وكثرة لاحد لها، وبدأ بذلك العراقيون. ثم تبعهم فيها بعد الشافعية والمالكية ومن اسباب التضخم أن المملكة الاسلامية أصبحت في صدر الدولة العباسية بعيدة الأطراف، تضم بين جوانبها أمما مختلفة لكل أمة عادات اجتماعية، وعادات قانونية، وطرق في المعاملات، ولكل أمة دين له تقاليده، فلما دخلت هذه الامم في الاسلام واستقرت الأمور في العهد العباسي، وصبغت الأمور كلها صبغة دينية، وتفرق الأئمة في الامصار عرضت هذه العادات والتقاليد على الائمة، فعرضت أمور العراق على ابي حنيفة وأمثاله، وفيها العادات الفارسية والعادات النبطية وغيرها،

وفيها نظم القضاء الروماني، وماكان يجري في المعاملات وطريقة التقاضي، وعرضت أمور مصر علي الليث بن سعد والشافعي وأقرانهما، وفيها العادات المصرية والرومانية كذلك، ونحو هذا، فكان من عمل هؤلاء الأئمة "تسليم" هذه العوائد والتقاليد، أعني النظر اليها بالقواعد العامة للاسلام وأقرار بعضها وانكار بعضها وتعديل بعضها، وهذا، وبلا شك باب واسع من الابواب التي تضخم التشريع وتغذيه، وهذا ايضا قد جعل كل مصر يغذي التشريع غذاء خاصاً، قد لايكون في غيره. وقديماً كانت مكة تغذي الفقهاء بمناسك الحج وبشئون التجارة كما كانت المدينة تغذي الفقهاء أكثر من مكة في شئون الزراعة، وبأعمال رسول الله في المدينة. فلما فتحت الأمصار ظل الأمر علي هذا الحال، فدجلة والفرات ونظامهما قد غذيا أبا يوسف في آرائه في كتاب الخراج، ومعاملة العراقيين في المزارعة والمساقاة والاستصناع غذت فقه العراق، ونظام النيل وعوائد المصريين غذت الشافعي في مذهبه الجديد - كما سيأتي - وعلي الجملة فكانت هناك عوائد عربية في جزيرة العرب، وعوائد فارسية في العراق، وعوائد رومانية في الشام، وعوائد رومانية واغريقية ومصرية في مصر، كلها عرضت علي الأئمة و"سلمت".

فلما كثرت الرحلات بين العلماء - كما أشرنا قبل - وأصبح من واجبات طالب العلم الأولية ان يرحل الي الامصار المختلفة ويأخذ عن علمائها، زالت الحدود والفواصل التي تميز كل طائفة من المشرعين في مصر، فاستفاد العالم العراقي من الحجازي، والمصري منهما، وكل منهم نقمه، واستفاد فيما هو مقتصر فيه، وافاد فيما هو غني به.

وهكذا عملت الرحلات في تطعيم كل شجرة من أشجار العلم، كما عملت في تقريب الوانها وطعومها، ومن ذلك التشريع، فنري ربيعة الرأي المدني يرحل الي العراق ثم يعود إلي المدينة، ومحمد بن الحسن العراقي صاحب أبي حنيفة يرحل الي المدينة ويقرأ موطأ مالك ويعود الي العراق، والشافعي يرحل الي المدينة والي العراق والي مصر وهكذا، ومن أجل هذا أصبحنا نري الفروق علي توالي الأزمان تقل بين مدرسة الحديث ومدرسة الرأي بما يأخذ الأولون من رأي الآخرين، ومايأخذ الاخرون من حديث الأولين وأصبحنا نري كتب المذاهب تتشابه، والفروض في كل المذاهب تكثر. وعلي الجملة يتأثر كل ما أمتاز به كل.

٣- من مميزات هذا العصر كذلك، كثرة إختلاف الفقهاء ونشاطهم في الجدال والمناظرة، فقد اختلفوا وتعددت أسباب اختلافهم، من ذلك اختلافهم في قوله تعالي: "والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء"، هل القرء الطهر أو الحيض؟ فذهب الحجازيون من الفقهاء إلي أنه الطهر، وذهب العراقيون الي انه الحيض، وكان اختلاف الحجازيين والعراقيين تبعا لأختلاف الصحابة في هذا ايضا، فقد روي عن عمر وعثمان وعائشة وزيد بن ثابت أنهم قالوا الاقراء الاطهار، كما روي عن عبد الله بن مسعود أنها الحيض، وفي هذا مايدل علي ماسبق من انحياز العراقيين لابن مسعود، والحجازيين الي علماء الصحابة في المدينة، وقد يكون الاختلاف سببه تركيب الكلام وتأليف الجمل، وقد يكون سببه حمل الكلام علي الحقيقة او المجاز، وقد يكون سببه ماورد من جملة آيات أو احاديث اذا الف بعضها مع

بعض اختلفت المدارك فيما يستلج منها وما لايستلج، وقد يكون سببه اختلاف الاحاديث الواردة في الموضوع، وان كل مجتهد وصل اليه بعض دون بعض، أوضح عنده بعض دون بعض، كالذي روي عن عبد الوارث ابن سعيد أنه قال: "قدمت مكة فالقيت بها ابا حنيفة، فقلت: ماتقول في رجل باع بيعاً. وشرط شرطاً؟ فقال البيع باطل والشرط باطل، فأتيت أبي ابن ليلي فسألته عن ذلك فقال: البيع جائز والشرط باطل، فأتيت ابن شبرمة فسألته عن ذلك فقال: البيع جائز والشرط جائز فقلت في نفسي سبحان الله، ثلاثة من فقهاء العراق لايتفقون علي مسألة، فعدت الي أبي حنيفة، فاخبرته بما قال صاحباه، فقال: ما أدري ماقالا لك، حدثني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: نهي رسول الله صلي الله عليه وسلم عن بيع وشرط. فعدت الي ابن أبي ليلي فأخبرته بما قال صاحباه، فقال: ما أدري ماقالا لك، حدثني هشام بن عروة عن ابيه عن عائشة قالت: أمرني رسول الله ان اشتري بريرة فاعتقها، فاشترط أهلها الولاء لانفسهم، فقال رسول الله، ماكان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل، البيع جائز والشرط باطل قال فعدت الي ابي شبرمة فأخبرته بما قال صاحباه، فقال : ما أدري ماقالا لك، حدثني مسعرين كدام عن محارب بن دثار عن جابر "قال : بعت النبي بعيراً، وشرط لي حملاته الي المدينة، والبيع جائز والشرط جائز"، وقد يكون سبب الخلاف ماورد في الحديث يصح عند قوم، ولايصح عند آخرين. ويشترط قوم لصحة الحديث شروطاً كثيرة ان لم تتحقق فضل علنيه القياس، ولايشترط قوم هذه الشروط ويفضلون الحديث - ولو لم يستوفها - علي القياس، وقد يكون الخلاف سببه اختلاف مقدرة

الفقهاء علي القياس والاستنباط، أو اختلافهم في المقدرة اللغوية والعلم بأساليب العرب ودلالة الكلام، وقد يكون سببه الاختلاف في وجهات النظر، وتاثر كل أمام بما يحيط به من بيئة طبيعية واجتماعية والخ.

علي كل حال كان الاختلاف بين الفقهاء كثيراً وقديماً، كان هذا الاختلاف بين الصحابة، فقد اختلف ابو بكر وعمر في قتلي مانعي الزكاة، واختلف عثمان وزيد بن ثابت وعلي في عبد تزوج حرة هل يعتبر حال الزوج فيكون اقصي طلاقها طلقتين، وبهذا قال الأولان، أو يعتبر حال الزوجة، فيكون أقصي طلاقها ثلاثا وبذلك قال علي، وكاختلافهم في توريث الاخوة مع الجد، الي كثير من امثال ذلك وكانت كلما أتت طبقة زاد الخلاف لكثرة المسائل المعروضة ولكثرة المفتين، وحتي اذا تبلورت مدرسة الحديث وتركزت في مالك واصحابه في الحجاز، وتبلورت مدرسة الرأي وتركزت في ابي حنيفة وأصحابه في العراق، زاد الخلاف وكثر الجدل، واستمر النزاع، وكان اكبر الفضل في شدة المناظرة راجعاً الي مدرسة ابي حنيفة فان كثرة مسائلهم التي فرعوها، وعدم تحرجهم في ابداء الرأي فيما لم يصح فيه نص عندهم، جعل فقهاء الحديث يردون عليهم في شدة بأنهم أهملوا الحديث الي الرأي فأخطأوا، كما أن استعمال العراقيين للقياس وهو ضرب من المنطق سمح للمنطق أن يتسرب للفقه، وجعل الجدل يتشكل بالشكل المنطقي، وفي هذا تكثير للجدل والمناظرة، وفي رأيي أن هذا الجدل هو الذي الجاكبار الائمة كالشافعي الي وضع أصول الفقه: فان

المناظرة كانت تدور حول الكلمات وتحديد معانيها، والجمل وتأليفها، وموقف السنة من الكتاب، والكتاب من السنة، وعمل الصحابة وهل هو حجة أولا، والقياس ومدي استعماله ومتي يصح ومتي لايصح، فجرد الشافعي وامثاله هذه المسائل التي يكثر فيها الخلاف، واجتهدوا ان يرجعوا المسائل الجزئية التي يتجادلون فيها ألي اصول فكان من ذلك أصول الفقه.

علي كل حال كان الخلاف كثيراً، وكان أكثر مايكون في العصر العباسي حيث تركزت مدرسة الرأي ومدرسة الحديث، فرأيناهم يتناظرون في المساجد وفي حلقات الدرس، وفي المنازل، وحين اجتماعهم للحج، ويرحلون فيتناظرون، ويلتقون اتفاقاً فيتجادلون، وملئت الكتب بهذه المناظرات والمجادلات. ولنمثل لك بشئ منها، فقد روي الفخر الزازي: "أن محمد بن الحسن [صاحب ابي حنيفة] قال للشافعي يوماً: بلغني أنك تخالفنا في مسائل الغصب، قال الشافعي: أصلحك الله، انما هو شئ أتكلم به في المناظرة، قال فناظرني ... قال محمد: ماتقول في رجل غصب ساحة وبني عليها جدارا وأنفق عليها الف دينار، فجاء صاحب الساحة وأقام شاهدين علي أنها ملكه،؟ فقال الشافعي: أقول لصاحب الساحة ترضي أن تأخذ قيمتها؟ فان رضي والا قلعت البناء ودفعت ساحته اليه، قال محمد ابن الحسن: فما تقول في رجل غصب لوحاً من خشب فأدخله في سفينة ووصلت السفينة الي لجة البحر، فأتي صاحب اللوح بشهدين عدلين، أكنت تنزع اللوح من السفينة؟ قال لا، قال، الله اكبر، تركت قولك، ثم قال: ماتقول في

رجل غصب خيطاً من ابريسم، فمزق بطنه، فخاط بذلك الا بريسم تلك الجراحة، فجاء صاحب الخيط بشاهدين عدلين ان هذا الخيط مغصوب، اكنت تنزع الخيط من بطنه؟ قال لا، قال: الله اكبر، تركت قولك، وقال أصحابه أيضاً: تركت قولك. قال الشافعي فقلت: لاتعجلوا، أرايت لو كان اللوح لوح نفسه، ثم اراد ان ينزع ذلك اللوح من السفينة حال كونها في لجة البحر، امباح له ذلك ام يحرم عليه؟ قال يحرم عليه، قلت أرايت لوكان الخيط خيط نفسه وأراد أن ينزعه من بطنه ويقتل نفسه، امباح له ذلك ام محرم؟: قال: بل محرم: قلت أرأيت لوجاء مالك الساحة، واراد أن يهدم النباء، ايحرم عليه ذلك ام يباح؟ قال: بل يباح، قال الشافعي فكيف تقيس مباحاً علي محرم؟ فقال محمد: فكيف تصنع بصاحب السفينة؟ قلت آمره ان يسيرها إلي أقرب السواحل، ثم أقول له انزع اللوح وادفعه اليه، فقال محمد بن الحسن: قال النبي صلي الله عليه وسلم: لا ضرر ولاضرار في الاسلام" فقال الشافعي: من ضره؟ هو ضر نفسه، ثم قال الشافعي: ماتقول في رجل من الأشراف غصب جارية لرجل من الزنج في غاية الرذالة، ثم أولدها عشرة كلهم قضاة سادة أشراف خطباء، فاتي صاحب الجارية بشاهدين عدلين أن هذه الجارية التي هي أم هؤلاء الأولاد مملوكة لي، ماذا تعمل؟ قال محمد: أحكم بأن أولئك الأولاد مماليك لذلك الرجل، قال الشافعي: أنشدك الله أي هذين أعظم ضرراً: أن تقلع الساحة وتردها الي مالكها، أو تحكم برق هؤلاء الأولاد، فانقطع محمد بن الحسن".

وأمثال هذه المناظرة كثيرة بين الحنفية والمالكية والشافعية وغيرهم.

هذه المناظرات - وان حكاها كل جماعة بما يتفق وعصبتته

المذهبية - وسعت دائرة الحركة الفقهية، وكونت آراء قانونية لها قيمتها، وحملت الكثير من الفقهاء علي ان يتسلحوا بأسلحة مناظريهم، فالقياسيون يتسلحون بالحديث، والمحدثون يتسلحون بالرأي، وقربت كثيراً من أوجه النظر المتباعدة، وربما كان أقرب مثال لذلك الشافعي ومحمد بن الحسن الحنفي، فكلاهما اطلع علي الناحيتين وتسلح بالسلاحين.

ولم يقتصر الأمر علي المناظرة الشفوية، بل تعدي ذلك الي المناظرة بالمكاتبة، فنري الليث بن سعد يكتب من مصر الي مالك في المدينة يجادله في حجية اجماع المدينة، ويرد عليه مالك.

وقد أثرت هذه المناظرات أيضاً في الكتب المؤلفة في ذلك العصر ومابعده أثراً كبيراً، فلو قارنت بين كتاب الأم الشافعي، وكتاب النحو لسيبويه لرأيت فرقاً كبيراً بين التاليفين فالأم يغلب عليه الحوار، قال كذا فقلت: أرأيت ان زعم كذا؟ فان قال قائل كذا رددت عليه بكذا، قال لي بعضهم كذا فقلت له، الي نحو ذلك مما يغلب عليه الجدل والمناظرة والحوار، وكثيراً مايعرض لآراء المخالفين ويذكر حجتهم ثم يفندها بحججه، ويذكر فصلا يعنونه " كتاب الرد علي محمدين بن الحسن" وفصلا يعنونه "كتاب اختلاف العراقيين"الخ. وهكذا الحنفية في التأليف، ولاتري هذا واضحاً جلياً في كتاب سيبويه، فهو أميل إلي تقرير القواعد وتفريعها والاستشهاد عليها. وسبب ذلك الثورة الكبيرة التي كانت في هذا العصر في الآراء الفقهية. والحرية التي أبداها الحنفية في استعمال الرأي، وجدنا مناظريهم في افحامهم، ونحو

ذلك مما لايقاس به الخلاف النحوي والمناظرات النحوية، لأن الأمر فيه أغلب مايكون علي النقل والسماع واستخراج القاعدة العامة من الجزئيات.

٤- ومن مميزات العصر العباسي في التشريع "التدوين" فقد ظهرت حركة التدوين في هذا العصر في كل فروع العلم ومنها الفقه، نعم كان في العصر الأموي نواة التدوين، ولكنها نمت واتسعت في العصر العباسي، وكانت كل مدرسة تتبع منحاها، فقد كان فقهاء المدينة يجمعون فتاوي عبد الله بن عمر وعائشة وابن عباس ومن جاء بعدهم من كبار التابعين في المدينة، وينظرون فيها ويستنبطون منها ويفرعون عليها، كما كان العراقيون يجمعون فتاوي عبد الله بن مسعود وقضايا علي وفتاواه، وقضايا شريح وغيره من قضايا الكوفة، ثم يستخرجون منها ويستنبطون، وقد بدأ الفقه في العصر الأموي الحديث، لأنه يعد مادة الفقه، وخاصة عند مدرسة الحديث، ثم بدء يبوبون الحديث ابوابا حسب الفقه، فأحاديث الوضوء، ثم احاد الصلاة، ثم احاديث الزكاة وهكذا. ثم بدؤا يفرعون المسائل من الحديث، فيروي الذهبي ان عبد الله بن المبارك "دون العلم في الأبواب والفقه" ويقول في أبي ثور: "انه صنف الكتب وفروع السنن" يريد أنه جمع الاحاديث المتعلقة بموضوع واحد في باب واحد، وأوسع ماورد الينا في هذا الباب كتاب الموطأ للامام مالك، وقد خطا فيه خطوة جديدة في تقنين الحديث.

أبـو حنيفـة ومدرستـه

أبوحنيفه هو النعمان بن ثابت بن زوطي فارسي الأصل، وقد ولد جده زوطي بكابل، واختلف في ولاده ابيه فقيل بالانبار، وقيل ينسا، وولد ابو حنيفة بالكوفة، وكان ثابت مملوكاً لرجل من ربيعة من بني تيم الله بن ثعلبة من فخد يقال لهم بنوقفل، فكان ابو حنيفة مولي لبني تيم الله فلذلك يقال ابو حنيفة التيمي - يعنون انه تيمي بالولاء - وقد شعر بعض الحنفية بغضاضة هذا الولاء، فرووا أنه من أحرار فارس ولم يجر عليه رق قط، ومادروا أن أمرا العلم والدين ببعيد عن الاعتزاز بالسيب والمعرة والولاء وما إليه، وأن العلم لايقوم احد بقبيلته ولا ماله ولا وجاهة، انما يقومه بقيمته الذاتية ومزاياه العقلية، وقيل أبي حنيفة كان كثير من سادة الفقهاء من الموالي ابن عمر، وعطاء بن ابي رباح فقيه مكة، وطاوس بن كيسان فقيه اليمن، والحسن البصري وابن سيرين فقيهي العراق وغيرهم. كما أن العصبية المذهبية حملت بعض الأتباع لكل مذهب أن يضعوا الأخبار لاعلاء شأن أمامهم، ومن هذا الباب ماروووا من الاحاديث بتبشير النبي صلي الله عليه وسلم لكل امام، من مثل ماروي أن النبي صلي الله عليه وسلم قال في أهل العراق: "أن الله وضع خزائن علمه فيهم" ومثل: "يكون في أمتي رجل يقال له النعمان بن ثابت، ويكني بأبي حنيفة يحيي الله علي يديه

سنتي في الاسلام" الخ، حتي لقد زعموا أن أبا حنيفة بشرت به التوراه، وكذلك فعل بعض الشالعية في الشافعي، والمالكية في مالك، وما كان اعتاهم عن ذلك٠ ومن أجل هذا صعب علي الباحث معرفة التاريخ الصحيح لكل امام، فقد كان كلما اتي جيل تزيد في فضائل امامة، كأن الفضل لا يقوم إلا بالمبالغة فيه، ولذلك نري أن ترجمة الائمة كلما قاربت عصرهم كانت اقرب الي الصدق وأبعد عن الغلو٠

أغلب المؤرخين علي أن ابا حنيفة ولد بالكوفة سنة ٨٠هـ ومات ببغداد سنة ١٥٠هـ فيكون قد عاش نحو سبعين سنة، منها ٥٢ سنة في العصر الاموي ونحو ١٨ في العصر العباسي، إذن فقد ولد في عهد عبد الملك بن مروان ولما مات عبد الملك كان ابو حنيفة في السادسة من عمره ونشأ في ولاية الحجاج علي العراق، لقد مات الحجاج وعمر ابي حنيفة خمسة عشر عاماً، فرأي قسوة الحجاج ومعاملته للثأرين، وحروبه وسطوته وسلطانه في العراق، وكان شابا أيام عمر بن عبد العزيز، سمع بعدله وشاهد آثاره، ورأي تدهور الامويين، وشاهد بدء الدعوة العباسية، وسايرها حتي تمت للعباسيين، والعراق وما اليه كان مهدا لهذه الدعوة، وكان مساهماً في حرب الأمويين٠ وشاهد الحجاج بن يزيد بن المهلب أميراً علي العراق يحكم الناس حكماً عربياً عصبياً،كما

شاهد امارة خالد بن عبيد الله القسري، ونصر بي سيار، وما كان فيهما من محن، ورأي انتقال الخلافة من الأمويين الي العباسيين علي يد قومة من الفرس ورأي خروج محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب علي المنصور، وقالوا انه عطف علي محمد، وكان ميله معه، واخيرا رأي استقرار الأمر في يد العباسيين، وبناء المنصور لبغداد، وتحول أبهة الدنيا وحضارتها وجمالها اليها، ثم مات في خلافة المنصور، كل هذه الاحداث مرت علي أبي حنيفة وأعمل فيه فكره، وأثرت في نفسه آثارها المختلفة ، وساهم في بعضها وكان خريجها والناشئ في احضانها، والمتكون من ذراتها، والناضج علي نيرانها.

نشأ ابو حنيفة في الكوفة، وكان في زمانه بعض الصحابة وكبار التابعين، ولم نعلم كثيراً عن نشأته الأولي وكيفية تعلمه، وقد رووا أنه في السادسة عشرة من عمره حج مع أبيه، وشهد عبد الله بن الحارث أحد الصحابة يحدث بما سمع عن رسول الله، وقد اجتمع عليه الناس في المسجد الحرام، فسمع ابو حنيفة منه حديثاً ، كما رووا أنه سمع انس بن مالك وأربعة غيرهما من الصحابة ، وبعض العلماء يشك في ذلك.

ثم رأيناه بعد نشأته الأولي في التعليم يجلس في حلقة

المتكلمين بمسجد الكوفة، وكانت لهم حلقة بل حلقات - بجانب حلقات الفقه وحلقات الشعر وحلقات النحو - يتكلمون فيها في القضاء والقدر، والكفر والايمان، ويستعرضون اعمال الصحابة في الحروب وغيرها، الي غير ذلك من مسائل علم الكلام فلما بلغ في ذلك مبلغا كبيراً تحول الي الفقه، وروي زفر بن الهذيل قال: "سمعت ابا حنيفة يقول: كنت أنظر في الكلام حتي بلغت فيه مبلغاً يشار الي فيه بالاصابع وكنا نجلس بالقرب من حلقة حماد بن أبي سليمان، فجاءتني امرأة يوماً فقالت رجل له امرأة يريد أن يطلقها للسنة كم يطلقها؟ فأمرتها أن تسأل حماداً ثم ترجع لتخبرني .. فرجعت فأخبرتني، فقلت: لاحاجة لي في الكلام، وأخذت نعلي فجلست الي حماد.

ويروي عنه أنه قال: "كنت رجلاً أعطيت جدلاً في الكلام فمضي دهر فيه اتردد وبه اخاصم، وعنه أناضل، وكان أصحاب الخصومات والجدل أكثرها بالبصرة، فدخلت البصرة نيفاً وعشرين مرة، منها ما أقيم سنة وأقل وأكثر وكنت قد نازعت طبقات الخوارج من الاباضية والصفرية وغيره .. وكنت اعد الكلام افضل العلوم، ثم علمت انه لو كان فيه خير لتعاطاه السلف الصالح فهجر.

وعلم الكلام قد طعم بالفلسفة قبل أي علم آخر، وتأثر بها

كما تأثر بآراء الاديان الأخري للاحتكاك بها في المناظرة والدعوة الي الدين - وقد أبنا ذلك قبل - فكان عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء وغيرهما في البصرة يدعون الي الاسلام، ويردون طعن الطاعنين، ويبحثون في صفات الله، وفي العاصي اكافر أم مؤمن؟ الخ، ويطلعون علي أقوال أهل الديانات ويفندونها بمثل حججهم الفلسفية، فالظاهر ان ابا حنيفة بدراسته لبرنامج الكلام، وبلوغه فيه مبلغاً يشار اليه بالاصابع، أكسبه قوة في المناظرة، وقدرة في المنطق، ومراناً علي الاسلوب العقلي في التفكير غير أسلوب المحدثين، فان كان المحدثون يكتفون في الحديث ببحث الرواة، فالمتكلمون يتجاوزون ذلك ايضا الي النقد الخارجي، وهو موافقة الحديث لمبادئ الاسلام العامة وأصوله، ونحو ذلك كما رأيت. وقد عرف عن المعتزلة رؤساء المتكلمين نقد بعض الصحابة في جرأة، لم يقدم عليها غيرهم، ونقد بعض ماروي من الحديث في صراحة، ونجد لذلك كله اثرا في أبي حنيفة كما سيأتي.

كذلك كان ابو حنيفة بجانب حياته العلمية يحترف التجارة، فكان خزازا

هؤلاء أشهر رجال مدرسة العراق، وكان لكل منهم يد في تلوينها وتشكيلها، فابن مسعود فقيه جليل يتأثر عمر بن الخطاب في دقة نظرة وحريته وعلي بن أبي طالب خلف مجموعة من القضايا والفتاوي لأهل العراق حفظت عنه وعدت دستوراً وعلقمة كان خير تلاميذ ابن مسعود وحامل علمه وفقهه ومسروق خلف لأهل العراق فتاوي كثيرة كان يستفتي فيها، وشريح مارس القضاء نحو ستين عاماً في العصر الاموي، فلابس الحياة العملية، وقد دعم مذهب الرأي بدعائم قوية - وكان له أكبر الأثر في تلوينه وتميزه، والشعبي - علي العكس من ذلك - كان يغذي العراقيين بالحديث والآثار فكأنه هو وشريح تعاونا علي تدعيم المذهب بعنصريه، كان الشعبي ينقبض للفتوي ويتهيأ شأن صاحب الآثار، وكان النخعي يتهلل لها وينبسط شأن صاحب الرأي، وكان ذلك علي خلاف حياتهما العملية، فقد كان الشعبي ظريفاً منبسطاً فكها، فاذا جاءت الفتوي وانقبض، وكان النخعي منقبضاً جاداً، فاذا جاء الرأي انشرح ثم جاء حماد بن ابي سليمان فجمع ذلك كله في صدره وأسلمه لابي حنيفة فصاغة مذهباً. ولعلك لاحظت معي كثرة النخعيين في هذه

المدرسة، فعلقمة نخعي والاسود نخعي، وابراهيم نخعي، ثم مسروق بن الاجدع همداني، ثم عامر الشعبي نسبة الي شعب وهو بطن من همدان، والنخع وهمدان قبيلتان يمنيتان، وشريح كندي، وكِندة من اليمن، وحماد بن ابي سليمان اشعري بالولاء واشعر قبيلة من اليمن ونحن نعلم ان معاذ بن جبل ارسله النبي صلي الله عليه وسلم قاضياً علي الجند باليمن يعلم الناس القرآن وشرائع الاسلام ويقضي بينهم وجعل اليه قبض الصدقات من العمال الذين باليمن، كان معاذ من أعلم الصحابة بالحلال والحرام وهو صاحب الحديث المشهور الذي هو دعامة اهل الرأي وهو أن رسول الله «ص» قال لمعاذ بن جبل حين وجهه الي اليمن بم تقضي؟ قال: بما في كتاب الله، قال: فان لم تجد؟ قال: بما في سنة رسول الله، قال: فان لم تجد؟ قال: اجتهد رأيي. فلعل هؤلاء اليمنيين كانوا متأثرين بمبدأ معاذ وتعاليمه وفقهه - وبالفعل نجد بعض اعلام هذه المدرسة كالأسود بن يزيد النخعي من تلاميذ معاذ بن جبل.

أخذ أبو حنيفة الفقه عن كثير: فسمع من عطاء بن ابي رباح، وهشام بن عروة، ونافع مولي ابن عمر، ولكن استاذه الذي اخذ عنه اكثر علمه حماد بن أبي سليمان الأشعري - وقد كان حماد واسع العلم فقيها، قال فيه النسائي أنه "ثقة مرجي" وكان غنياً سمحاً

كريماً، مات سنة ١٢٠، كانت له حلقة كبيرة في مسجد الكوفة. يجلس اليه فيها المتعلمون يعلمهم ويسألونه، ويأتي اليه اصحاب الحاجات في المسائل التي تعرض لهم فيستفتونه وقد لزمه ابو حنيفة نحو ثمانية عشر عاما لما رأي من علمه، فقد كان يقول "حماد أعلم من رأيت". جالسه اولا نحو عشر سنوات، ثم حدثته نفسه أن يستقل ويكون لنفسه حلقة خاصة، ثم خجل من شيخه، وأتيحت له فرصة ذهاب حماد الي البصرة فجلس مكانه يعلم ويفتي، وعرضت عليه نحو ستين مسألة جديدة لم يسمع فيها رأي شيخه، فلما عاد سأله فيها فأقره علي اربعين منها، وخالفه في عشرين فلزمه حتي مات. واذ قد علمنا ان حماداً مات سنة ١٢٠ فيكون ابو حنيفة قد لازمه الي أن بلغ سنه نحو الاربعين وقد كان يجادل شيخه ويناقشه ويلازمه حتي روي عنه انه قال: "لزمت حماداً لزوما ما أعلم أحد لزم أحد مثل مالزمته، كنت أكثر السؤال فربما تبرم ملي ويقول: يا أبا حنيفة قد انتفخ جنبي وضاق صدري، وحتي روي أنه قال له يوم: "الزفتني" - أي اخذت كل ما عندي، وهي عبارة قيلت قبل من سعيد بن المسيب لقتاده. ولما مات حماد نظراً اصحابه فيمن يجلس مجلسه، ويترأس حلقته، فاختاروا ابنه اسماعيل بن حماد، ولكنه كان اميل الي الأدب من شعر ومعرفة بأيام العرب، فتنحي عن الحلقة فترأسها موسي بن أبي كثير، ولم يكن بارعاً في

الفقه ولكنه لقي المشايخ والكبار وجالسهم ثم خرج حاجا فجلس مكانه ابوحنيفة وملأ مكان حماد، واستمر في هذه الحلقة يعلم الناس ويفتي نحو ثلاثين سنة الي ان مات سنة ١٥٠.

كل الأخبار تدل علي انه كان في سعة من العيش، ولعل ذلك كان من تجارته، فقد علمنا أنه "كان بزازا" وله دكان في دار عمرو بن حريث، وكان طويلا تعلوه سمرة، لباسا، حسن الهيئة وكثير التعطر، يعرف بريح الطيب اذا اقبل واذا خرج من منزله قيل ان تراه.

وقد روي أنه أريد علي القضاء مرتين فامتنع، احدهما في العهد الاموي أراده ابن هبيرة - عامل مروان بن محمد آخر بني امية علي العراق - فأبي فضربه بالسوط، وفي رواية أنه أراده ليكون علي بيت المال فأبي فضربه، والاخري في العهد العباسي، اشخصه ابو جعفر من الكوفة الي بغداد، ثم اراده علي القضاء فابي فحبسه فمات في الحبس. والروايات في هذه الحادثة مختلفة فبعضهم يرويها علي هذا الوجه، وآخرون يروون أن المنصور هدده بالضرب فقبل القضاء علي كره، ثم مات بعد ايام، وغيرهم يروي ان المنصور انما استقدمه من الكوفة لأنه اتهم بالتشيع لابراهيم

العلوي، فعاش خمسة عشر يوماً ثم سمه فمات فالروايات مجمعة علي استدعاء المنصور له، ومجمعة علي انه مات بعد استدعائه بقليل، وانه مات في بغداد وقبره الي الآن في بغداد شاهد علي ذلك، ونحن نستبعد سم المنصور له، فقد كان للمنصور من القوة ما يخول له القتل علنا ان شاء، وقد سبق ان قتل ابا مسلم الخراساني، وهو ماهو في قوته وتعلق الجند به، كما قتل غير ابي مسلم من ذوي الوجاهة والعزة، ونرجح الرواية الاولي من ارادته علي القضاء وامتناعه وسجنه وتعذيبه، ويظهر ان هذا التعذيب والسجن ليس عقوبة علي اباته القضاء، لأن امام المنصور كثيرا من العلماء يرغبون في هذا المنصب وقد اراد الليث بن سعد علي القضاء فأبي فتركه من غير ان يعذبه كما مر، ولكنه استدل من اباء ابي حنيفة علي صحة ما أتهم به من التشيع وعدم رضائه عن دولتهم. وقد روي عن ابي حنيفة اشياء من ذلك فقد روي زفر بن الهذيل ان ابا حنيفة كان يجهر بالكلام «يعني ضد المنصور» ايام ابراهيم «يعني اخا النفس الزكية» وكان قد خرج علي المنصور] جهاراً شديداً، فقلت له: والله ما انت بمنته حتي توضع الحبال في اعناقنا. كما روي ان المنصور كتب كتابين فلاعمش وابي حنيفة علي لسان ابراهيم بن عبد الله ابي حسن، وبعث بهما مع من يثق به، فقرأ الكتاب الاعمش واطعمه الشاة،

وأما ابو حنيفة فقبل الكتاب واجاب عنه فلم يري في نفس ابي جعفر منه شئ حتي فعل به مافعل·

فالغالب ان أبا حنيفة كان أميل - في الفتنة التي قامت بين العلويين والعباسيين - الي محمد بن عبد الله النفس الزكية واخيه ابراهيم · وكان يروي أن محمداً احق بالخلافة، وكان ناقماً علي العباسيين سطوتهم وشدتهم وكثيرا من العلماء في هذا العصر كانوا علي هذا الرأي، كان امتحان العباسيين لهم ولميولهم مظهره عرض الوظائف عليهم، والاستدلال باباائهم أو قبولهم علي ميولهم، كما لا ننكر انه كانت هناك نزعة عند بعض العلماء تري أن في تولي الوظائف السلطانية تعريض الدين للخطر، حتي ان كثيراً من المحدثين لايروون حديث من تقرب الي السلطان، وان كثيراً عابوا ابا يوسف من اجل توليه القضاء، والحكايات من هذا القبيل كثيرة، قال محمد بن جرير الطبري "انه قد تحامي حديث ابي يوسف قوم من اهل الحديث، من أجل غلبة الرأي عليه وتفريعه الفروع والاحكام، مع صحبة السلطان وتقلده القضاء." ·

ولعل السببين معاً كانا هما الباعثتين لابي حنيفة علي امتناعه عن تولي القضاء في العهد الاموي، ويري الدولة قاسية شديدة

مضطربة وقومه الفرس يخرجون عليها ويبثون الدعوي ضدها، وفي الدولة العباسية ظلم وعسف واغتصاب الخلافة من العلويين، هذا الي ماتي القضاء من تعرض لغضب السلطان ان ارضي الله، وغضب الله ان ارضي السلطان، وفي بعض الروايات انه قال للمنصور: "لوهددتني ان تعرقني في الفرات أو أن الي الحكم لاخترت ان اغرق فلك حاشية يحتاجون الي من يكرمهم لك فلا اصلح لذلك".

وقد روي بعضهم أن ابا حنيفة تولي للمنصور عد اللبن في بناء بغداد ويقول الخطيب ان العامة هي التي تدعي ذلك.

منحاه في الاجتهاد - مسلك ابي حنيفة في القرآن الكريم مسلك كل الائمة ان اختلفوا في شئ فيه فاختلاف في فهم مدلوله واشارته وطرق الاستنباط منه اما في الحديث فكان له مسلك خاص، وهو التشدد في قبول الحديث والتحري عنه وعن رجاله وحتي يصح وكان لا يقبل الخبر عن رسول الله (ص) الا اذا رواه جماعة عن جماعة، او كما يعبرون هم اذا كان خبر عامة عن عامة، أو كان خبراً اتفق فقهاء الامصار علي العمل به، أو روي واحد من الصحابة الحديث عن رسول الله في جمع منهم، فلم يخالفه احد، لان هذا يدل علي اقرارهم له ولو كانوا يخالفونه لردوا عليه، فكان هذا

بمثابة الحديث، يرويه جماعة، قال ابو يوسف فعليك من الحديث بما تعرف العامة، واياك والشاذ منه، فانه حدثنا ابن ابي كريمة عن أبي جعفر أن رسول الله دعا اليهود فحدثوه حتي كذبوا علي عيسي، فصعد النبي «ص» المنبر فخطب الناس فقال: أن الحديث سيفشو علي فما اتاكم عني والق القرآن فهو مني، وما اتاكم عني يخالف القرآن فليس مني" وكان عمر فيما بلغنا لايقبل الحديثن عن رسول الله «ص» الا يشاهدين وكان علي بن ابي طالب لايقبل الحديث عن رسول الله، والرواية تزداد كثرة ويخرج منها مالا يعرف ولا يعرفه اهل الفقه، ولايوالق الكتاب والسنة، فاياك وشاذ الحديث، وعليك بما عليه الجماعة من الحديث وما يعرفه الفقهاء فقس الاشياء علي ذلك، فما خالف القرآن فليس عن رسول الله «ص» وان جاءت به الرواية .. فاجعل القرآن والسنة المعروفة لك اماماً وقائداً، واتبع ذلك وقس عليه ما يرد عليك مما لم يوضح لك في القرآن والسنة.

فأبو يوسف رسم في هذا القول الخطة التي كان يسير عليها هو وشيخه ابو حنيفة نحو الحديث، وخلاصتها تضييق دائرة مايعمل به من الحديث والاقتصار منه علي المعروف المشهور الذي عرفه عامة الفقهاء، وعدم الأخذ بالاحاديث التي لم تستوف هذه

الشروط، وروي عن يحيي بن نصر أنه قال: "سمعت ابا حنيفة يقول: عندي صناديق من الحديث ما أخرجت منها الا اليسير الذي ينتفع به".

وروي عن أبي يوسف أنه قال:و"كان ابو حنيفة لايري أن يروي من الحديث إلا ماحفظه عن الذي سمعه منه" وقال: «ردي» علي كل رجل يحدث عن النبي «ص» خلاف القرآن ليس رداً علي النبي «ص» ولا تكذيباً له ولكنه ردا علي من يحدث عنه الباطل والتهمة دخلت عليه ليس علي نبي الله، وكل شئ تكلم به النبي «ص» فعلي الرأس والعين قد آمنا به، وشهدنا انه كما قال، ونشهد ايضا انه لم يأمر بشئ يخالف امر الله، ولم يبتدع، ولم يتقول غير ماقال الله، ولا كان من المتكلفين. وعلي الجملة فقد كان يشدد في الاخذ بالحديث وهذا - من غير شك - يضطره الي التوسع في القياس والاستحسان فيما لم يكن فيه اثر كتاب والا اثر صحيح، فليس فيه أمام المجتهد الا القياس والاستحسان.

كذلك كان من مبدئه اعمال عقله فيما اذا روي في المسألة قولان او أكثر للصحابة فيختار منها أعدلها أو أقربها إلي الأصول العامة، وعدم الاعتداد بأقوال التابعين الا ان يوافق اجتهاده، فقد

روي عنه أنه قال "أني أخذ بكتاب الله اذا وجدته فما لم أجده اخذت بسنة رسول الله (ص) والآثار الصحاح عنه التي فشت في ايدي الثقات فاذا لم اجد في كتاب الله ولا سنه رسول الله (ص) اخذت بقول اصحابه من شئت وادع قول من شئت، ثم لا أخرج من قولهم الي قول غيرهم، فاذا انتهي الأمر الي ابراهيم والشعبي والحسن وابن سيرين وسعيد ابن المسيب، فلي أن اجتهد كما اجتهدوا "وهذا المنهج يسلم الي عدم التزام العمل المأثور عن التابعين، ثم يسلم بعد الي القياس والاستحسان.

فهذا التشدد في قبول الحديث، وهذه الحرية فيوزن اقوال الصحابة والتابعين مضافا اليهما ماذكرنا قبل من أسباب، جعلت القياس أساساً كبيراً من أسس التشريع في فقه ابي حنيفة .

وفي الواقع كان ابو حنيفة قياساً، سلك في القياس مسلكاً فاق فيه كل من سبقه واعانته علي ذلك ملكاته الخلقية فكان دقيق النظر، سريع الخاطر في ادراك مابين الاشياء من فروقات وموافقات، قوي الحجة كان - كما قالوا لو اراد ان يقيم الحجة علي أن هذه السارية ذهب لفعل. وزاده ظهوراً في ذلك انه لم يكن يتحرج من الفتيات تحرج اهل الحديث، فليس يهمه أوقع الامر ام لم يقع،

وكان حقيقياً أم فرضياً، بل يقول كما قال لقتاده: "أن العلماء يستعدون للبلاء ويتحرزون منه قبل نزوله" . وذكر عنده مرة قول من قال: لا ادري نصف العلم، قال ابو حنيفة: فليقل "لا ادري" مرتين ليستكمل العلم. ولذلك كان كثيراً ماسئل وكثيراً ما اجاب، حتي روي أنه قال ستين الف مسألة، وقال بعضهم ثلاثة وثمانين الفا، وثمانية وثلاثين الفا في العبادات، وخمسة واربعين الفا في المعاملات، ومهما كان العدد مبالغا فيه فانه يدلنا علي كثرة ماسئل وما أجاب ومافرع وما علم، وهذا لايتأتي مع الصحة والضبط ودقة النظر الا من عقل قانوني كبير مرن، حتي كأن اصول الفقه الاربعة هي قواعد الحساب الاربع، تعرض فيها المسائل فيطبقها علي هذه القواعد، ويحلها في سهولة في مقتضاها، ثم هو يجادل ويعارض فيما يفتي فيقيم الحجج القوية علي مارأي وما افتي، وقد حكي عنه من هذا الشئ الكثير في كتب المناقب ان بولغ في بعضه فالاصل صحيح وقد نازله فقهاء عصره ونازلهم فانتصف منهم في الاغلب ونسوق لك امثلة قليلة مماروي سئل عن رجلين اشتركا في ثلاثة دراهم دفع احدهم درهمين والآخر واحداً واختلطت الدراهم ثم ضاع درهمان من الثلاثة، فقال ابو حنيفة: الدرهم الباقي بينهما اثلاثا ثلث لذي الدرهم، والثلثان لذي الدرهمين، وسئل فيها ابن شبرمة. فقال: أن الدرهم الباقي بينهما نصافا، لكل نصف حجة ابن شبرمة

ان درهما من الدرهمين الضائعين هو من مال دافع الدرهمين بيقين، والدرهم الثاني من الدرهمين الضائعين مشكوك فيه فيكون منهما، فيكون الدرهم الثاني مناصفة، وحجة ابي حنيفة ان الدراهم الثلاث لما خلطت اصبح كل درهم مشتركاً لصاحب الدرهم ثلثه ولصاحب الدرهمين ثلثاه، فاي درهم ذهب فهذا حكمه والدهرم الباقي هذا حكمه ايضا ثلثه لذي الدرهم او ثلثها لذي الدرهمين وفي هذا مثل من أمثلة الرأي الذي كان يستعمل وسئل ماقولك: في الشرب في، قدح أو كأس في بعض جوانبهما فضة؟ فقال: لابأس به، فقيل له أليس قد ورد النهي عن الشرب في اناء الفضة والذهب؟ فقال ابو حنيفة: ما تقول في رجل مر علي نهر، وقد اصابه عطش، وليس معه اناء فاعترف الماء من النهر فشربه بكفه وفي اصبعه خاتم؟ فقال مناظره: لابأس بذلك، قال ابو حنيفة فهذا كذلك.

وجاءه جماعة من اهل المدينة ليناظره في القراءة خلف الامام «وابو حنيفة يقول بعدم القراءة» فقال لهم لايمكنني مناظرة الجميع فولوا الكلام اعلمكم فاشاروا الي واحد، فقال: هذا اعلمكم؟ والمناظرة معه كالمناظرة معكم؟ قالوا: نعم، قال: والحجة عليه كالحجة عليكم؟ قالوا: نعم، قال: أن ناظرته لزمتكم الحجة لانكم اخترتموه فجعلتم كلامه كلامكم، وكذا نحن اخترنا الامام فقراءته قراءتنا.

ومثل هذا مئات من المسائل استعمل فيها الرأي أو القياس أو الاستحسان ذكرت في كتب الفقه وكتب المناقب، يطول بنا القول لو كثرنا منها، حتي ذكروا انه كان مولعاً بالقياس ايضا في حياته العادية ، فقد رووا انه أمر حجامه أن يلتقط الشعر الأبيض من رأسه أو لحيته، قال: أن لتقطتها كثرت، قال اذن التقط السود حتي تكثر وتنادروا عليه في استعمال القياس بانه كان في مبدأ امره يشتغل بالنحو، ويريد ان يجري القياس فيه، فجمع كلباً علي كلوب قياس علي قلب وقلوب.

وروي الجاحظ عن حماد بن سلمة قال: كان رجل في الجاهلية معه محجن يتناول به متاع الحاج سرقة، فاذا قيل له سرقت، قال لم أسرق إنما سرق محجني، فقال حماد: لوكان هذا اليوم حياً لكان من أصحاب ابي حنيفة.

وعلي الجملة فقد مهر في القياس، وطبقه تطبيقاً واسعاً اثر في الفقه اثرا كبيراً من كثرة الفروع وتحديد وجود المشابهات وتسالح المجتهد سلاحاً قوياً في الافتاء. وقد لاندرك كبير فرق

فيما لدينا من كتب الفقه في المذاهب المختلفة، كمذهب الشافعي ومالك وابي حنيفة، ومن اجل هذا قال بعض المستشرقين ان الفروق بين المذاهب قليلة، ولكن في رأيي أن هذه القلة انما كانت في كتب تلاميذ الائمة، لأن تلاميذ ابي حنيفة اخذوا ما احتاجوا اليه من الحديث، وتلاميذ مالك توسعوا في اقتباس ماهم في حاجه اليه من القياس فتقاربت المذاهب، أما في عصر أبي حنيفة ومالك أنفسهما فالفرق كان كبيراً ·

كذلك عرف ابو حنيفة بالمهارة في فقه الحديث، اعني انه كان يسمع الحديث ويصح عنده، فيستطيع ان يفرع منه الفروع، ويستخرج منه الاحكام الفقهية في مهارة · سأله الاعمش [وهو من كبار المحدثين] عن مسائل فافتاه، فقال له الأعمش بكذا، فقال الاعمش، معشر الفقهاء انتم الاطباء ونحن الصيادلة ·

ومن أجل هذا فرقوا بين المحدث والفقيه فقد يكون الرجل محدثاً لافقيهاً وقد يكون قليل الحديث وهو فقيه·

ومن الأمور الظاهرة في فقه أبي حنيفة الحيل الشرعية وقد اصبحت فيما بعد بابا واسعا من أبواب الفقه في مذهب ابي حنيفة

وغيره من المذاهب وان كانت في مذهب الحنفية اظهر والفت فيهما الكتب الخاصة، حتي لقد وضعت فيها بعد حيل للهروب من كل التزام فحيل لاسقاط الشفعة وحيل لتخصيص بعض الورثة بالوصية، وحيل في اسقاط حد للسرقة وهكذا وقد خصص ابن القيم، جزءاً كبيراً من كتابة اعلام الموقعين في الكلام في الحيل وفي قيمتها والتشنيع علي من توسع فيها وقد قال ان تجويز الحيل يضر بالشرائع لان الشارع يسد الطريق الي المفاسد بكل ممكن، والمحتال يفتح الطريق اليها بحيلة وقال: ان المتأخرين احدثوا حيلا لم يصح القول بها عن أحد الائمة ونسبوها الي الائمة وهم مخطئون في نسبتها اليهم. ومن عرف سيرة الشافعي وفضله ومكانه من الاسلام، علم انه لم يكن معروفاً بفعل الحيلة ولا بالدلالة عليها، ولاكان يشير علي مسلم بها، واكثر الحيل التي ذكرها المتأخرون المنتسبون الي مذهبه من تصرفاتهم تلقوها عن المشرقيين وادخلوها في مذهبه" وقد أطال في اقسام الحيل وما يجوز منها وما لايجوز، فما كان من الحيل لاخذ أموال الناس وظلمهم في نفوسهم وسفك دمائهم، وابطال حقوقهم وافساد ذات بينهم، فهي محرمة .. ولايختلف المسلمون ان تعلم هذه الحيل حرام والافتاء بها حرام، والشهادة علي مضمونها حرام، والحكم بها مع العلم بحالها حرام وهناك حيل للتوصل الي الحق او لدفع الظلم بطريق مباحة

وهذا جائز الي اخر ماقال. وقد ضرب امثلة كثيرة لذلك.

وقد رويت عن أبي هريرة مسائل في هذا الباب، أكثرها من باب الايمان والطلاق، منها ما يظهر أن سكان العراق تفننوا في الايمان والطلاق تفننا عجيباً، وكانوا يستفتون الائمة في هذه الايمان العجيبة التي يوقعونها فيحلف «الاعمش» بطلاق امرأته أن أخبرته بفناء الدقيق أو كتبت به، او ارسلته، أو ذكرت لاحد ليذكره له، أو أومأت في ذلك، فتسأل أمرأته ابا حنيفة فيحتال لمخرج لهذا، فيقول لها: أذا انتهي الدقيق فشدي جراب الدقيق علي ازاره او ثوبه وهو نائم، فاذا اصبح او قام من الليل علم خلاء الجراب وفناء الدقيق. ويحلف آخر ليقربن امرأته نهاراً في رمضان، فيفتيه ابو حنيفة ان يسافر بها فيقربها نهارا في رمضان، ويحلف رجل وقد رأي امراته علي السلم فيقول: انت طالق ثلاثاً ان صعدت وطالق ثلاثاً ان نزلت، فيفتيه ابو حنيفة أن تقف المرأة علي السلم ولا تصعد ولا تنزل، ويحتال جماعة يحملون السلم بالمرأة فيضعونها علي الارض. ويسأله رجل فيقول: لي ولد وليس لي غيره فان زوجته طلق، وان سريته اعتق وقد عجزت عن هذا فهل من حيلة؟ فقال له ابو حنيفة: اشتر الجارية - التي يرضاها هو - لنفسك، ثم زوجها منه فان طلق رجعت مملوكتك

اليه وان اعتق عتق مالايملك، الي امثال آخري ذلك من مجموع هذا ان الحيل التي افتي بها ابو حنيفة ليست من نوع التحايل علي ابطال الحق أو أكل الاموال بالباطل ونحو ذلك، انما هو استخراج فقهي للخروج من مأزق، مع عدم التعدي علي أحد في ماله ونفسه.

ويظهر ان هذا الباب استغل بعد من ناحيتين:

١- فبعد ان وقعت حوادث قليلة من هذا القبيل توسع فيها من طريق الفرض وسبح الخيال يستخرج فروضاً عديدة، خصوصاً في الايمان والطلاق ولم تحدث ولن تحدث، ولكن الخيال يتوهمها، والفقيه الفرضي يتمرن علي حلها.

الأمر الثاني ما اشار اليه ابن القيم من أن المتأخرين ارتكنوا علي هذه المسائل القليلة والواردة عن الائمة. وتوسعوا فيها حتي جعلوها في كل باب من أبواب الفقه، ولم يقفوا عند الحدود التي وقف فيها الائمة، بل جعلوا منها مايحتال به علي اضاعة الحقوق وافساد الالتزامات.

مما لاشك فيه أن ابا حنيفة خرج علي الناس بمذهب جديد، فيه

حرية للعقل بكثرة استعمال الرأي والقياس، وبما استتبع ذلك من كثرة الفروع ورجوعها الي اصول، وبمقدرة فائقة في الاستنباط، وبشجاعة في مواجهة المسائل في الحدود التيذكرناها، وبتقريب الفقه الي الاذهان، وحتي قال الجاحظ: وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن، يجالس الفقهاء خمسين عاماً، وهو لايعد فقيهاً ويجعل قاضياً، فماهو مقدار سنة أو سنتين، حتي تمر ببابة فتظن انه من بعض العمال وبالحري لا يمر عليه من الأيام الا اليسير حتي يصير حاكماً علي مصر من الأمصار او بلد من البلدان" .

وطبيعي ان تحدث هذه المبادئ ثورة فكرية عنيفة، وتقسم الناس الي قسمين: مؤيد لها وناصر، وهاج لها وقادح، وكذلك كان. فقد وقف العراق في امر ابي حنيفة معسكرين يتنازعان، ووقف المؤيدين لمذهب ابي حنيفة من العراقيين امام المدنيين كذلك يتنازعون ويترامون بالاقوال، هؤلاء ينصرون أبا حنيفة ويتبينون فضله ومزاياه، ووجوه تفضيل مذهبه علي غيره، وهؤلاء يضعون من شأنه ويروون انه خطر علي الدين، وان طريقته تخالف طريقة المتقدمين وخلف لنا كل معسكر تراثا من آرائه واقواله، وقد عقد الخطيب البغدادي فصلا طويلا نقل فيه اكثر ماقاله الفريقان، وكذلك-

فعل ابن عبد البر في كتابه الانتقاء .

وكان اكثر الذين عادوا من أصحاب الحديث، وطبيعي أن يكون ذلك لأن منهجه غير منهجهم، فهم يرون الحديث ويكتفون في تصحيحه بان الراوي غير مجرح، وهو يتشدد في روايته علي النحو الذي ذكرناه، فاذا رد آثارا ولم يعمل بها هاجوا عليه وقدحوا فيه، كذلك عاداه الفقهاء، من مدرسة الحديث لأنه كان يستعمل القياس مع وجود الحديث في نظرهم، مع أن الحديث لم يصح عنده فتركه الي القياس، فاذا رد الحديث ونطق بما يفيد أنه لم يثبت عنده شنعوا عليه بأن أكذب الحديث: فقد سأله رجل عن شئ، فأجاب فيه، فقال له الرجل: أنه يروي فيه عن النبي صلي الله عليه وسلم وكذا فقال أبو حنيفة : دعنا من هذا ، وحدثه ابو اسحاق الفزاري حديثاً ، فقال ابو حنيفة : هذا حديث خرافة ، وحدثه احدهم حديث: البيعان بالخيار مالم يتفرقا "فقال ابو حنيفة : أرأيت ان كان في سفينة؟ أرايت ان كانا في سجن ؟ ارايت ان كان في سفر؟ .

وروي له ان يهوديا وضع راس جارية بين حجرين، فوضع النبي «ص» رأسه بين حجرين، فقال ابوحنيفة : هذا هذيان- رووا هذا وأمثاله الظاهر منها ان ابا حنيفة كان ينكر هذه الاحاديث لأنها لم

تصح عنده، فتشنع المحدثون عليه، وقالوا: أنه ينكر قول الرسول ويقدم عليه رأيه. ويقولون مارأينا أجرا علي الله من ابي حنيفة، كان يضرب الأمثال لحديث رسول الله واحصوا عليه أنه افتي بنحو مائتي مسألة فخالف فيها الحديث، قال رسول الله "للفرس سهمان والرجل سهم" فقال ابو حنيفة: أنا لا اجعل سهم بهيمة اكثر من سهم المؤمن. وقال صلي الله عليه وسلم: "البيعان بالخيار مالم يتفرقا" قال ابو حنيفة: اذا وجب البيع فلا خيار. وكان النبي «ص» يقرع بين نسائه اذا اراد أن يخرج في سفر، فقال ابو حنيفة القرعة قمار.. الخ وواضح في هذا كله ان الشروط الدقيقة التي اشترطها في الأخذ بالحديث خالفت بين انظاره وأنظارهم، وجعلت الحديث يصح عندهم ولايصح عنده فاذا استعمل القياس لأن الحديث لم يصح عنده اتهموه بانه يقدم رأيه علي الحديث وقالوا: أنه استقبل الآثار واستدبرها برأيه، والي كثير من امثال هذا التشنيع وما من احد من الائمة الا كان له مثل هذا الموقف حين لايصح عنده حديث صح عند غيره فلا يأخذ به، وان كان ابو حنيفة في ذلك أكثر، للاسباب التي ابناها.

نقم عليه المحدثون والفقهاء المحدثون كثرة استعماله للرأي والقياس وشنعوا عليه بان ذلك من قبيل اتباع الهوي. وفرق كبير

بين اتباع الهوي واستعمال الراي بعد بذل الجهد. فاتباع الهوي دليل الي الرأي لتحصيل مصلحة خاصة من مال أو جاه.. اما الرأي بمعني بذل الجهد ثم الوصول بعد ذلك الي مايعتقده من الحق فليس من الهوي في شيء. وقدروي عن كثير من هؤلاء اقوال في تجريح ابي حنيفة، كمالك بن انس والأوزاعي وسفيان الثوري ومن الغريبان ينقل الينا عن بعضهم كسفيان الثوري وسفيان بن عيينه وعبد الله بن المبارك اقوال متناقضة بعضها في مدحه والاعتراف بفقهه وفضله، وبعضها في نقده من هذه النواحي ايضا. فاما ان يكون لهم راي به قد عدلوا عنه الي غيره، واما ان يكون الاقوال في احدي الناحيتين موضوعة مختلقة، والوقوف علي أصحها عسير. ويقول ابن عبد البر: ان ممن جرح أبا حنيفة ابا عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري وعده في الضعفاء والمتروكين. ولم يرو عنه ولاحديث واحد في صحيح البخاري ومسلم، ولكن روي له النسائي والترمذي، كما تعصب له آخرون من العلماء مثل شعبة بن الحجاج وابن جريج ويحيي بن معين وغيرهم.

كذلك نقده بعضهم في مسألة الحيل التي المعنا بها قبل، وعقد لذلك البخاري باباً في كتابه ألجامع الصحيح وعناه بقوله: "وقال بعض الناس ان احكام الله شرعت لجلب مصالح الينا او دفع

مضار، ومن امحل المحال ان يشرع من الحيل مايسقط شيئاً اوجبه او يحل شيئاً حرمه الخ" . وقد رأيت ان ابا حنيفة نفسه لم يتوسع في الحيل توسع من بعده، ولم يستجز الا ضرورياً محدودة منها ونقدوه كذلك لقوله بالارجاء وسنعرض لذلك بعد .

نري من كل هذا كيف كان أبو حنيفة وفقهه مبعثا لحركة فكرية عنيفة اقامها حوله رجال الحديث حينا، واقامها من ليسوا علي مذهبه في منهج التشريع واقامها اعداء له وخصوم، كابن ابي ليلي، وكان قاضي الكوفيين الأمويين والعباسين وكان معاصراً لابي حنيفة وكان ابو حنيفة يفتي أحياناً بغير رأيه ويجهله في بعض قضاياه ويبين خطأه، فاستعدي عليه الولاة . وخير ماقيل في هذا الباب ماقاله ابن عبد البر: "ان كثيراً من أهل الحديث استجازوا الطعن علي ابي حنيفة لرده كثيراً من اخبار الاحاد العدول، لانه كان يذهب في ذلك الي عرضها علي ما اجتمع عليه من الاحاديث ومعاني القرآن، فما شذ عن ذلك رد وسماه شاذا ، وكان مع ذلك ايضا يقول: الطاعات من الصلاة وغيرها لاتسمي ايماناً داي لأن الايمان اعتقاد بالقلب» وكل من قال من أهل السنه الايمان قول وعمل ينكرون قوله، ويبدعونه بذلك وكان مع ذلك محسوداً الفهمه وفطنته" . وتدخل الشعراء في النزاع، روي ابن قتيبة عن شقيق

البلخي انه أطري ابا حنيفة بمرو فقال له علي بن اسحاق لاتطره بمرو فانهم لايحتملون ذلك فقال شقيق: قدمدحه مساور الشاعر فقال:

اذا ما الناس يوما قايسونا　　بآبده من الفتيا طريفه
اتيناهم بمقياس صحيح　　تلاد من طراز ابي حنيفه
اذا سمع الفقيه بها دعاها　　واثبتها بحبر في صحيفة

فقال له قد أجابه بعض اصحابنا

اذا ذو الرأي خاصم في قياس　　وجاء ببدعة هنة سخيفة
أتيناهم بقول الله فيها　　وآثار مبرزة شريفة
فكم من فرج محصن عفيف　　احل حرامه بأبي حنيفة

وفضل شاعر أهل الكوفة علي أهل المدينة في الفقه فقال:

وليس يعرف هذا الدين تعلمه ... الا حنيفية كوفية الـــدور

لاتسألن مدينيا فتحرجـــه ... الا عن اليم والمثناه والزيـــر

فاجابه رجل من أهل المدينة:

لقد عجبت لغاو ساقه قـدر ... وكل امرا اذا ماحم مقـــدور

قال المدينة ارض لايكون بهـا ... الا الغناء والا اليم والزيـــر

لقد كذبت لعمر الله ان بهـا ... قبر الرسول وخير الناس مقبور

ومهما قيل فان هذه الحركة القوية وهذا النزاع الشديد بين اصحاب الرأي والحديث، رقيا الفقه في هذا العصر رقياً عظيماً وفتقا الاذهان واستخرجا منها احكاما ونظريات هي خير نتاج العصور الاسلامية .

لم يصل الينا اي كتاب في الفقه لابي حنيفة ، ويظهر انه لم يؤلف في ذلك وكل مارواه ابن النديم عن كتبه هي كتاب الفقه الاكبر، رسالته الي البستي، وكتاب العالم والمتعلم وكتاب الرد

علي التدرية، فيظهر انه لم يدون في الفقه ولكن تلاميذه كانوا يحفظون اقواله ويكتبونها عنه، فنقلوا الينا اقواله في كل باب من أبواب الفقه.

أما كتابه في الفقه الأكبر الذي ذكره ابن النديم فمختلفون فيه، ذلك أنه وصل الينا كتاب صغير في العقائد اسمه الفقه الاكبر في ورقات، روي بروايات مختلفة، وطبع في الهند مع شروحه، وبعض هذه الروايات غير صحيح، لانه يحتج علي الاشعرية ولهم، والاشعري كان بعد أبي حنيفة بنحو قرنين، وبعضهم يروي ان الفقه الاكبر ليس ما بين أيدينا، وانما هو كتاب في الفقه كبير حوي نحو ستين الف مسألة. والارجح عندي انه لم يدون في الفقه. لأن حركة التدوين في العصر العباسي ادركته وهو متقدم في السن، وان الفقه الاكبر كان في العقيدة، ولايعد هذا تدويناً لانه رسالة كالرسائل التي يرسلها العلماء بعضهم الي بعض، ولان الفقه الاكبر الذي كان بين ايدينا اساسه صحيح النسبة لابي حنيفة وان زيد عليه بعد، كما سنبحث ذلك عند الكلام في العقائد ومنها الارجاء ان شاء الله.

اتي بعد أبي حنيفة تلاميذه فجدوا في المحافظة علي مذهبه

بتدوينهم ولاستدلال له، وترتيب مسائلة وتوسيعها، كما ايتح لبعضهم فرصة رياسة القضاء فتقوي مذهبه وبثه وايده، وكان من أشهر هؤلاء التلاميذ ابو يوسف ومحمد وزفر، ويطول بنا القول لو استقصينا اخبارهم وآراهم فنكتفي في ذلك بلمحة يسيرة

ابو يوسف - عربي الأصل، جده سعد بن حبتة احد الصحابة من الانصار واخذ الفقه فيمن اخذ علي ابي حنيفة وكان من اقرب تلاميذه اليه، ولد سنة ١١٣ وتوفي سنة ١٨٢. ونشأ فقيراً وكان ابو حنيفة يمده بالمال ثم تولي القضاء لثلاثة من الخلفاء. المهدي ثم الهادي، ثم هارون الرشيد، وكان في ايام الرشيد قاضي القضاة. وكان عند الرشيد حظياً وكان موقفه هذا دقيقاً محرجاً، فحول الخلفاء اذ ذاك قادة ورؤساء يحتاجون الي مداراة وهم الذين قال فيهم ابو حنيفة للمنصور: "فلك حاشية يحتاجون الي من يكرمهم لك" فبقاء ابي يوسف في هذا المنصب هذا العهد الطويل يدل علي لباقة ومرونة فائقتين خصوصاً اذا اراد ان يجمع بين الدين والمنصب والجاه. ولعل مايمثل ابا يوسف خير تمثيل قوله: "رؤوس النعم ثلاثة: أولهما نعمة الأسلام التي لا تتم النعمة الا بها، ونعمة العافية التي لاتطيب الحياة الا بها، ونعمة الغني التي يتم العيش بها". لقد أراد إن يجمع بين الاسلام والعافية والغني،

وما ادق ذلك واشقه، لذلك نراه في خطبه كتاب الخراج يقف موقفاً من أحسن المواقف واشرفها، يعظ الخليفة هارون الرشيد في قوة وحزم وبجانب ذلك تروي عنه الأخبار الكثيرة في ابتداع الحيل للخروج من المأزق يقع فيها الخلفاء والقواد ان بولغ في بعضها الاساس صحيح، والجمع بين ذلك كله لايستطيع الا امثال ابي يوسف ان استطاعوا .

أفاد ابو يوسف فقه ابي حنيفة من وجوه:

١ - انه تولي القضاء عهداً طويلاً، وفي هذا فائدة للفقه كبيرة، ففي القضاء امتحان للنظريات العلمية وصهر لها في بوتقة العلم، ومواجهة لمشاكل عملية لايدركها من اقتصر علي النظر، وملاقاة الصعاب في طرق المرافعات ممن له البينة، ومن عليه اليمين ونحو ذلك، لايفكر فيها كثيراً من يستفتي او يؤلف الكتب. فلهذا كان ابو يوسف منظماً لمذهب ابو حنيفة ومغذياً له بالطرق العلمية، ومن أجل هذا قال الحنفية: أنه يعمل بقول ابي يوسف في باب القضاء، اضف الي هذا ان ابا يوسف في مثل مركزه يستطيع ان يعرف من شئون الدولة ومناحيها في التفكير والعمل، ومايعرض لها من مشاكل وكيف تحل مالايعرفه غيره، وكل هذا

يكسبه نظراً جديداً ورأياً في مسائل لايراها من يقيس أو يستحسن بين جدران اربعة أو في حلقة المسجد.

٢- تولي قضاء بغداد وكان من يتولاه يكون قاضي القضاة، فله نوع اشراف علي سائر القضاة وفي هذا تمكين لمذهب ابي حنيفة ونشر له ولمبادئه.

٣- كان ابو يوسف اوسع اتصالا بالمحدثين، أكثر رواية للحديث عنهم. قال ابن جرير الطبري: "كان ابو يوسف يعقوب بن ابراهيم القاضي فقيها عالماً حافظاً، ذكر انه كان يعرف يحفظ الحديث، وانه كان يحضر المحدث فيحفظ خمسين او ستين حديثاً، ثم يقوم ويمليها علي الناس، وكان كثير الحديث، وكان قد جالس محمد بن عبد الرحمن بن ابي ليل، ثم جالس ابا حنيفة، وكان الغالب عليه مذهب ابي حنيفة، وكان ربما خالفه احيانا في المسألة بعد المسألة". وقد رحل الي المدينة ولقي مالكا وناظره واخذ علمه ورجع عن بعض أرائه الي قول مالك واقوال الحجازيين، ومع هذا فقد رضي عنه بعض المحدثين كابن معين وابن حنبل، ولم يرضي عنه كثرهم فلم يروعنه شيئاً واحداً من أصحاب كتب الحديث الستة، قال ابن عبد البر: "كان ابن معين يثني عليه ويوثقه، أما

سائر اهل الحديث فهم أعداء لابي حنيفة واصحابه" . علي كل حال يسهل اتصاله بالمحدثين سبيل تقوية مذهب ابي حنيفة بالحديث ايضا وتطعيم المذهب ببعض آراء الحجازيين وبمخالفة ابي حنيفة الي ماصح عنده من حديث احياناً .

٤- بما الف في الفقه، فقد روي ابن النديم انه الف كتاب الصلاه كتاب الزكاة - كتاب الصيام - كتاب الفرائض - كتاب البيوع - كتاب الحدود - كتاب الوكالة - كتاب الوصايا - كتاب الصيد والذبائح - كتاب الغصب والاستبراء - كتاب اختلاف الامصار - كتاب الرد علي مالك بن أنس - كتاب رسالة في الخراج الي الرشيد - كتاب الجوامع، الفه ليحيي بن خالد «البرمكي» يحتوي علي اربعين كتاباً، ذكر فيه اختلاف الناس والرأي المأخوذ به ، امال املاها، رواها بشر بن الوليد القاضي، يحتوي علي ستة وثلاثنى كتابا مماتزعه ابو يوسف.

والذي بقي لنا من ذلك كله كتاب الخراج، واقول نقلها عنه الفقهاء من بعده وابواب نقلها عنه الشافعي في الأم.

كتاب الخراج - اسمه الخراج ولكنه يبحث في الواقع في اهم

ابواب مالية الدوله ويقول في اولها "أن أمير المؤمنين ايده الله تعالي سألني ان اضع كتاباً جامعاً يعمل به في جباية الخراج العشور والصدقات والجوالي. وغير ذلك مما يجب عليه النظر فيه والعمل به". ويعني بالخراج ضريبة الارض، فقد تركت الارض المفتوحة علي ملك اصحابها، وفرض عليهم دفع ضريبة هي الخراج ويعني بالعشور مايحصل من الاراضي التي أسلم أهلها كأرض المدينة واليمن ويعني بالصدقات الزكاه المفروضة علي المسلمين في مالهم، وبالجوالي الجزية علي رؤوس الذميين وامثالهم، لذلك هو يتعرض لضرائب الأرض وضرائب الرؤس، ويضطره ذلك الي البحث في الاراضي الاسلامية ايهما فتح عنوة وايهما فتح صلحاً، ويتوسع في هذا الباب في قسمة الغنائم التي يحرزها جيش المسلمين، وفي الارض الموات، وفيما يخرج من البحر، وفي شئون الري ومايعرض له وفي معاملته اهل الذمة من حيث الضرائب، وبناء الكنائس والبيع والصلبان. .الخ.

ونجد في كتاب الخراج مصداق كل ماذكرناه عن ابي يوسف، هو يتعرض لامور من أهم شئون الدولة المالية، لايستطيع الالمام بها والوقوف علي دقائقها يبيع الخز ويجلس في السوق، ويسمونه النعمان بن ثابت الخزاز، قال الاعمش وقد سئل عن مسألة: "انما

يحسن الجوانب في هذا ومثله النعمان بن ثابت الخزاز، أراه يورك له في علمه، وقد اكسبه هذا ايضا فائدة كبري اذ جعله يتصل بالحياة المالية العملية، فتعرف حقيقة مايجري في الاسواق ومعاملات الناس في البيع والشراء، والنقود والصرف والسلم والدين وما الي ذلك فاذا تكلم عن علم وخبرة ونظر وممارسة ومران.

الا من كان في مثل منصبه واتصاله بالخلفاء ومهام الدولة وهو واسع الاطلاع في الحديث، كثير الأخذ في الشيوخ في مختلف الامصار ومختلف الاتجاهات فهو يروي عن «بعض اشياخنا الكوفيين» و «عن بعض اشياخنا من أهل المدينة» وعن ابي حنيفة وعن مالك بن أنس، وعن الليث بن سعد، وعن عشرات غيرهم، وهو واسع الاطلاع علي اقوال الصحابة واعمالهم، ويتجلي في كتاب الخراج وقوله الدقيق علي تصرفات عمر بن الخطاب لانه كان العمدة في هذا الباب اذ ان عمر واجه هذه المشاكل المالية عند فتحه لبلاد الفرس والروم، وسن لمن بعده مايحتذونه وقد ورد اسمه في كتاب الخراج نحو ١٢٣ مرة.

ويظهر في الكتاب اثر النقل والعقل معاً فهو كثير النقل عن النبي «ص» والصحابة والتابعين وغيرهم، وهو مع هذا يخالف عمر

بن الخطاب فيما قدر علي الاراضي ويرد علي اعتراض علي ذلك فيقول "لم لم ترد الناس الي ما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه وضعه علي ارضهم ونخلهم وشجرهم، وقد كانوا بذلك راضين، وله محتملين، قال ابو يوسف: أن عمر رأي الارض في ذلك الوقت محتملة لما وضع عليها، ولم يقل حين وضع عليها ماوضع من الخراج ان هذا الخراج لازم لاهل الخراج، وحتم عليهم ولايجوز لي ولمن بعدي من الخلفاء ان ينقص منه ولايزيد فيه، بل كان فيما قال لحذيفه وعثمان حين اتياه بخبر ماكان استعملهما عليه من أرض العراق: "لعلكما حملتما الارض مالاتطيق دليل علي انهما لو اخبراه انهما لاتطيق ذلك الذي حملته من أهلها لنقص مما كان جعله عليهم من الخراج فلما رأينا ماكان جعله «عمر» علي ارضهم من الخراج يصعب عليهم، ورأينا اخذهم بذلك داعياً الي جلائهم عن ارضهم وتركهم لها، لم نحملهم ما يطيقون ولم نأخذهم من الخراج الا بما تحتمله ارضهم" .

ونراه يفاضل بين الاحاديث ويختار اشهرها واعمها، فيقول: "وابتعنا الاحاديث التي جاءت عن رسول الله «ص» في مساقاة خيبر لانها أوثق عندنا واكثره واعم ماجاء في خلافها" . يخالف ابا حنيفة في بعض أقواله، ويرجع الي الاثر فيقول :"وسألت يا أمير

المؤمنين عما يخرج من البحر من حلية وعنبر.. وقد كان ابو حنيفة وابن ابي ليل رحمها الله يقولان : ليس في شئ من ذلك شئ لانه بمنزلة السمك، واما أنا فاني أري في ذلك الخمس، واربعة اخماسه لمن اخرجه لاقد روينا فيه حديثاً عن عمر رضي الله عنه، ووافقه عليه عبد الله بن عباس فاتبعنا الاثر ولم نرخلافه" ..الخ.

محمد بن الحسن الشيباني - قال بعضهم ان أصلة من قرية في ضاحية دمشق تسمي "حرستا" وقال بعضهم ان ملة من الجزيرة "شمال العراق" وان اباه كان في جند الشام، واتفقوا علي انه من الموالي ونسبته الي شيبان بالولاء وانه ولد بواسط ونشأ بالكوفة ولد سنة ١٣٢ واخذ العلم عن ابي حنيفة ولكن الظاهر انه لم يصاحبه طويلا فقد مات ابو حنيفة وعمر محمد نحو ثمان عشر سنة وتتلمذ ايضا لابي يوسف، ورحل الي المدينة ، وسمع من مالك وسمع من الاوزاعي وغيرهما، فهو كأبي يوسف تفقه بفقه اهل الرأي في الكوفة ، وبفقه اهل الحديث في المدينة وغيرها، وقد جمع في دراسته أيضاً - كأبي يوسف - بين دراسة ادبية من نحو ولغة وشعر ودراسة دينية من قرآن وحديث وفقه. وقد أقام بالمدينة ثلاث سنين وبعض سنة يأخذ من مالك وشيوخ المدينة ،

ومن اجل هذا كان جيد اللغة، واسع الاطلاع في نواحي التشريع المختلفة، ويظهر انه نشأ في سعة من العيش لا كأبي يوسف، فقد روي انه انفق علي تعلمه النحو والشعر والحديث والفقه ثلاثين الف درهم، وكما روي أنه اعان الشافعي بماله وقد كان جميل المنظر حسن الملبس، فصيح القول جيد الفقه، قال فيه الشافعي "كان محمد بن الحسن يملاء العين والقلب" . وقد ولي القضاء، ولاه قضاء الرقة، ورويت عنه اخبار تدل علي أنه لم يكن يداري ويجامل كما كان ابو يوسف روي الخطيب البغدادي ان الرشيد اقبل يوماً، فقام الناس كلهم الا محمد بن الحسن فانه لم يقم، فخرج الآذن ونادي محمد بن الحسن، فجزع اصحابه له فلما خرج سئل عما كان قال: سألني مالك لم تقم مع الناس؟ قلت كرهت أن أخرج عن الطبقة التي جعلتني فيها، أنك اهلتني للعلم، فكرهت ان اخرج الي طبقة الخدمة الخ كما روي ا الرشيد سأله في أمان واعطاه لاحد الطالبين، واراد الرشيد ان يتحلل منه فقال محمد: هذا امان صحيح ودمه حرام، وقد تقدم الخبر بذلك وقد عزله الرشيد عن قضاء الرقة ثم استدعاه وقد مات محمد مع الرشيد في خرجته الي الري سنة ١٨٩ وقد كانت بينه وبين شيخه ابي يوسف وحشة استمرت بينهما الي الوفاة ولعل السبب اختلاف النزعتين.

وقد افاد محمد فقه ابي حنيفة من ناحيتين: ناحية اشترك فيها مع ابي يوسف من سماع المحدثين وسماع فقه المدينة وتطعيم فقه ابي حنيفة بذلك وناحية أخرى هامة جداً وهي تفريع المسائل من الاصول وقد عرف محمد بذلك وبمهارته في الحساب بما تحتاج اليه المواريث ونحوها، ثم تدوين الفقه في كتب كثيرة وهي عماد من أتي بعد في فقه ابي حنيفة، فمن أشهر كتبه الكتب الستة: المبسوط والزيادات، والجامع الصغير، والسير الصغير، والجامع الكبير، والسير الكبير ويسمي الحنفية هذه الكتب كتب ظاهر الرواية لانها رويت عن محمد برواية الثقات وقد جمع الحاكم الشهيد هذه الكتب الستة في كتاب سماه الكافي، وشرحه جماعة منهم السرخسي في كتابه المشهور «المبسوط» وقد وصل إلينا وطبع في ثلاثين مجلداً، كما وصل الينا كتاب الجامع الصغير لمحمد، يذكر في صدر كل باب "تمحمد عن يعقوب «ابي يوسف» عن ابي حنيفة" علي الجملة فقد كان محمد حلقة اتصال بين فقهاء الحديث وفقهاء الرأي، كما كان حلقة اتصال بين مذهب ابي حنيفة والشافعي، وكما كان له اكبر الفضل في تدوين مذهب ابي حنيفة وحفظه في الكتب، واغتراف الناس منه بعد، وتأثر المؤلفين به وبكتبه.

زفر - وأما زفر العربي من تميم كان من أشهر أصحاب أبي حنيفة وكان أمهرهم في القياس وأكثرهم لمسلكه التزاما في الرأي، كان ابوه هذيل واليا علي البصرة، وكانت امه امه فارسية، فورث وجهة من وجهة امه ولسانه من ابيه وكان قوي الحجه متقدما عند اصحاب ابي حنيفة قياساً، ولد سنة ١١٠ توفي ١٥٨.

ويعجبني في المقارنة بين الثلاثة ما روي عن المزني صاحب الشافعي انه جاءه رجل فسأل عن اهل العراق، قال: ماتقول في ابي حنيفة؟ قال: سيدهم قال" فأبي يوسف؟ قال: ابتعهم للحديث، قال: فمحمد بن الحسن؟ قال اكثرهم تفريعاً قال: فزفر؟ قال: احدهم قياساً.

وعلي الجملة فقد انتشر فقه ابي حنيفة في العراق، وكان طبيعياً ان يسود في العراق، ففيه نشأ ومذهب البلد أدري بما يعرض من المسائل واقدر علي حلها، وهو باعتماده علي الرأي والقياس - حيث لانص يصح - اكثر اسعافا للفتوي فيما يجد من أحداث تتطلب سرعة في البت، ثم قدر لأبي يوسف ان يكون في منصب رئيس يستطيع ان يخدم فيه هذا الفقه بسلطانه، كما حظي بمحمد يدونه ويسجله، ويذكر ابن النديم انه رزق كذلك بمحمد بن

شجاع الثلجي المتوفي سنة ٢٥٦ - وكان معتزليا فنتق فقه ابي حنيفة واحتج له وأظهر علله وقواه بالحديث وحلاه في الصدور" .
كما يصح ان نستنتج ان فقه ابي حنيفة تغير بعض الشئ علي يد ابي يوسف ومحمد والثلجي واضرابهم عما كان عليه في زمن ابي حنيفة نفسه، فرجعوا عن آراء له إلي الحديث الذي صح عندهم وضيقوا حدود الرأي والقياس عما كانت عليه زمن الامام، باتصالهم بأهل الحديث وفقهاء الحديث، وبالحملات الشديدة التي شنع بها هؤلاء علي اهل العراق، وتلاقت هذه النزعة بنزعة اخري تشبهها، وهي نزعة بعض فقهاء الحديث الي الاستفادة من اصحاب الرأي، وتجلت هذه النزعة في الشافعي كما سيأتي - وبذلك قلت مسافة الخلف التي كان يراها الرأي بين ابي حنيفة ومالك.

ب - مالك ومدرسته

هو مالك بن أنس الأصبحي المدني، والأصبحي نسبة الي ذي أصبح نسب عربي صحيح، وبذلك قال الواقدي، ولكن محمد بن اسحاق خالفه في ذلك، وزعم أن مالكا وجده واعمامه موالي لبني تيم بن مرة، وهذا هو السبب في تكذيب مالك لمحمد بن اسحاق والطعن عليه. ولد سنة ٩٣ أو ٩٧، وتوفي سنة ١٧٩، وعاش حياته بالمدينة، ولم أعرف أنه رحل عنها الا الي مكة حاجا.

وقد تزيد بعضهم في أخباره، كما فعل الحنفية وغيرهم، فزعموا أن أمه حملت به ثلاث سنين «ولا أدري قيمة هذا في فضل الرجل»، ورووا أن النبي صلي الله عليه وسلم قال: "يخرج الناس من المشرق والمغرب فلا يجدون عالماً أعلم من أهل المدينة" الخ.

ولسنا نعرف كثيراً عن نشأته الأولي، ودراسته العلمية في صباه، وقد ذكروا أنه أخذ عن نافع ابن نعيم، وسمع الحديث من كثير من شيوخ المدينة أشهرهم ابن شهاب الزهري، ونافع مولي ابن عمر، فابن شهاب الزهري أحد الفقهاء والمحدثين وكان من أعلم الناس في زمنه بالسنة، وقد روي عنه مالك في الموطأ [في بعض

نسخ الموطأ] مائة واثنين وثلاثين حديثاً، ونافع مولي عبد الله بن عمر اصله من الديلم، أصابه عبد الله بن عمر في غزوة غزاها فأسلم وأخذ عن ابن عمر حديثه، وكان من أشهر علماء المدينة، وقد روي عنه مالك في الموطأ ثمانين حديثاً كما أخذ عن هشام بن عروة بن الزبير، وقد روي عنه في الموطأ ستة وخمسين حديثاً، وهكذا لقي شيوخاً كثيرين وخاصة شيوخ المدينة، وأخذ عنهم.

ومن أشهر ماحدث له محنته أيام المنصور حين خرج محمد بن عبد الله بن الحسن وأخوه ابراهيم علي المنصور، وقد رويت في هذه الحادثة روايتان: أحدهما أن مالكا كان يفتي الناس بأنه لايقع طلاق المكره، ويحدث الناس بحديث "ليس علي مستكره طلاق" ولم تكن هذه الفتوي تعجب العباسيين، لأن هذا يستتبع أن من بايع العباسيين مكرها فله أن يتحلل من بيعته، وله أن يبايع محمد ابن عبد الله بن الحسن بالمدينة، فرووا أن المنصور نهي مالكا عن التحديث بهذا الحديث، ثم دس اليه من يسأله، فحدث به علي رؤوس الناس فضربه بالسياط، والرواية الأخري أن مالكا لما علا شأنه بالمدينة سعي حساده، ألي والي المدينة جعفر بن سليمان، وقالوا أنه لايري ايمان بيعتكم هذه بشيء، وهو بحديث ثابت بن الأحنف في طلاق المكره انه لايجوز، فغضب جعفر ثم جرد ومد

فضربه بالسياط، ومدت يده حتي انخلعت كتفه، قالوا : فمازال مالك بعد هذا الضرب في رفعه من الناس وعلوا من أمره حتي كانما كانت تلك السياط حليا حلي بها٠

كما روي عنه أنه سئل عن البغاه «يعني العصاة الخارجيين علي الخلفاء» أيجوز قتالهم؟ فقال: ان خرجوا علي مثل عمر بن عبد العزيز، فقيل، فان لم يكن مثله؟ فقال: دعهم ينتقم الله من ظالم بظالم، ثم ينتقم من كليهما، فكانت هذه الكلمة من أسباب محنته٠

علي كل حال تتفق الروايتان في ضربه، وفي اصل السبب، وتختلف في التفاصيل٠ وقد روينا قبل عن أبي حنيفة مثل هذا الموقف، وزيد عليه طلبه القضاء واباؤه فلعل رأي أبي حنيفة ومالك كان متفقا، وسياسة المنصور في الحالتين واحدة٠

تركزت مدرسة المدينة في مالك كما تركزت مدرسة الكوفة في ابي حنيفة، فان أردنا تصوير مدرسة المدينة كما فعلنا بمدرسة الكوفة فليكن هكذا:

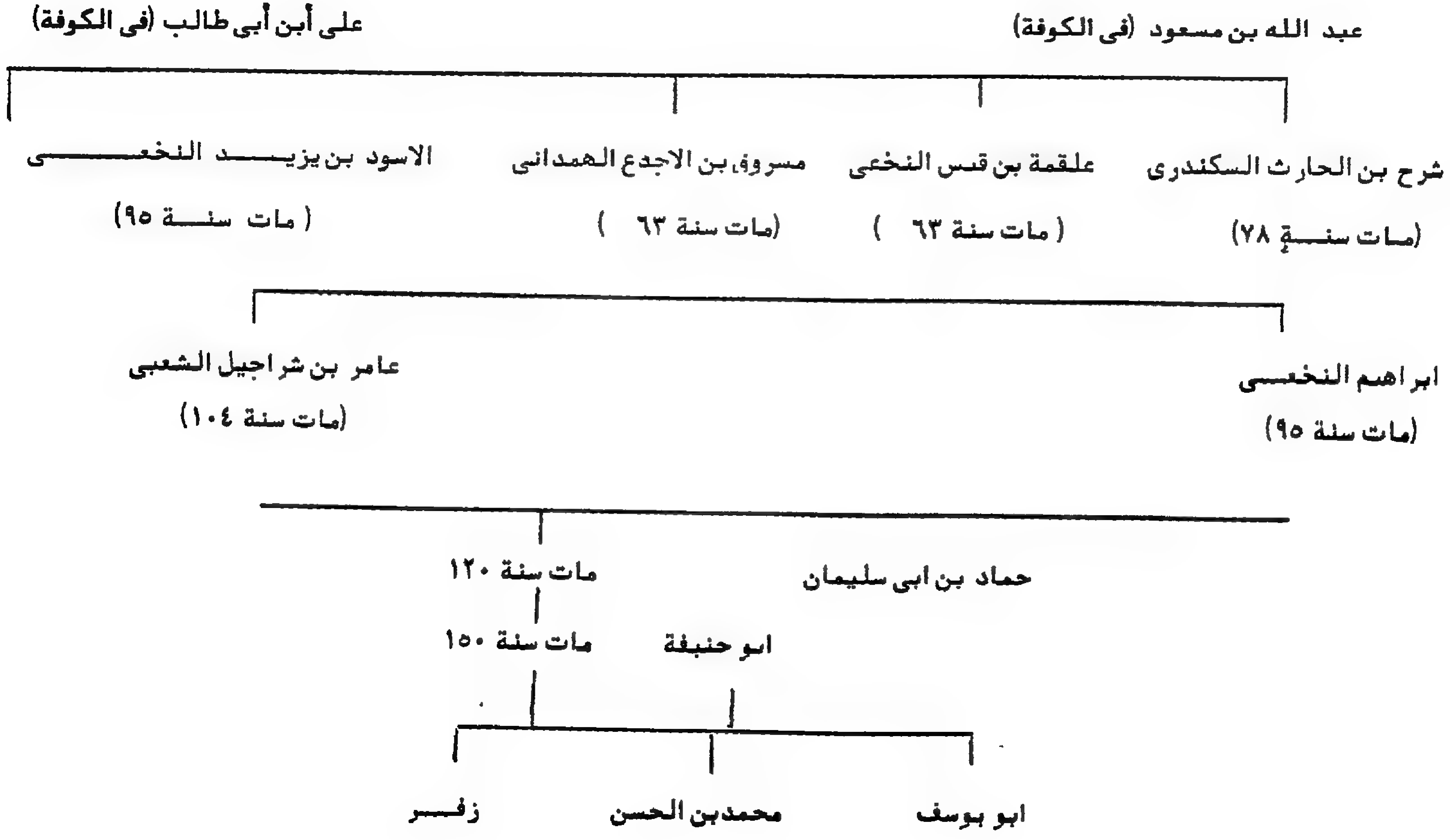
عبد الله بن مسعود (فى الكوفة)
على أبن أبى طالب (فى الكوفة)
شرح بن الحارث السكندرى
(مات سنة ٧٨)
علقمة بن قس النخعى
(مات سنة ٦٣)
مسروق بن الاجدع الهمدانى
(مات سنة ٦٣)
الاسود بن يزيد النخعى
(مات سنة ٩٥)
ابراهم النخعى
(مات سنة ٩٥)
عامر بن شراجيل الشعبى
(مات سنة ١٠٤)
حماد بن ابى سليمان
مات سنة ١٢٠
ابو حنيفة
مات سنة ١٥٠
ابو يوسف
محمد بن الحسن
زفر

واكثر رجال هذه المدرسة عرفوا بالحديث والفقه فيه فبعد عصر الصحابة كان رأس المدرسة من التابعين سعيد بن المسيب، وقد كان يعد وارث عمر في علمه في المدينة، وتصدر سعيد بن المسيب، وقد كان يعد وارث عمر في علمه في المدينة، وتصدر سعيد للفتوي، وكان لايهابها، فأثر عنه كثير من الفتاوي والآراء، وكان يقول "ماقضي رسول الله (ص) ولا أبو بكر ولاعمر ولاعثمان ولاعلي قضاء الا وقد علمته". وجاء في الطبقة التي بعده الزهري ونافع فكانا أعلم اهل المدينة حديثاً وفقهاً. كل هؤلاء كانوا يحفظون الحديث عن رسول الله، وطبيعي أن تكون المدينة أغني من أي عصر آخر في هذا، فالنبي كان فيها أكثر ايام التشريع، كما كان بها من الخلفاء الراشدين ابو بكر وعمر وعثمان، وكانت حاضرة الخلافة في ايامهم، ومنها تصدر الآراء في المسائل الدينية والسياسية، كما كان المدنيون اقدر علي مشاهدة التشريع العملي، فهم أعرف بما كان النبي يفعله في وضوئه وصلاته وزكاته، وماكان يفعله كبار الصحابة فكما كان كل جيل من العلماء يتلقي الاحاديث المروية عمن قبله كذلك كان يتلقي الاعمال وهيئاتها من الجيل الذي قبله، فكان طبيعياً أن تكون المدينة مقر مدرسة الحديث ولكن الذي قد يلفت النظر أن يكون بين كبار رجال المدينة ربيعه الرأي، وهو كما يدل عليه اسمه من اهل الرأي، ومن شيوخ مالك، وقد روي عنه في الموطأ اثني عشر حديثاً وهو فارسي

الاصل، وقد روي عنه انه جادل سعيد بن المسيب في دية الأصابع، وسعيد يتمسك بالسنة، وربيعه يعترض بالرأي، فقال له سعيد: أعراقي أنت؟ قال: لا بل عالم متثبت او جاهل متعلم، قال سعيد: هي السنة، وقد روي في ترجمته أنه كان في العراق أيام السفاح وأنه قربه واستعمله، فهل أخذ الرأي عن العراقيين ايام كان بينهم؟ ظن بعضهم ذلك، ولكن يظهر أنه غير صحيح، فقد رأينا هذه النزعه عنده قبل أن يكون في العراق، لأنه بهذه النزعة جادل سعيد بن المسيب المتوفي سنة ٩٣ قبل ولاية السفاح بزمن طويل، ولأنه قد روي الرواه ان ربيعه كان يكره العراق وأهله، واستعفي ابا العباس من أجل ذلك وعاد الي المدينة، فقيل له كيف رأيت العراق وأهلها؟: "رأيت قوماً حلالنا حرامهم، وحرامنا حلالهم، وتركت بها أكثر من أربعين الفا يكيدون هذا الدين" فالظاهر ان نزعة الرأي عنده وليدة المدينة نفسها، فالصحابة الذين كانوا بالمدينة منهم من كان يعمل العقل حيث لانص كما تقدم في سيره عمر بن الخطاب، ومنهم من لايميل الي ذلك كابنه عبد الله بن عمر، ولاشك ان النزعتين بقيتا، وتأثر بهذه ، قوم ، وهذه آخرون، ولكن كان لون الحديث ابيض واوضح، وكان وجود ربيعه الرأي بينهم علما علي اللون الآخر، وسنري اثر ذلك حتي في فقه مالك.

وكان طبيعياً كذلك ان تكون المسائل التي تعرض لفقهاء المدينة أقل عدداً لتحرج المدنيين من الفتوي اذا قيسوا بالعراقيين، ولأن المشاكل القانونية والمسائل الفقهية تدور مع المدينة، ولأن المدينة كانت أقرب الي بساطة العيش وأبعد عن تعقيدات الحضارة، وكان مأثر عندهم من حديث كثير كافياً في أغلب الاحيان كل مايعرض من اشكال.

منحي مالك في الاجتهاد - كان مالك لايشترط في الحديث ما اشترطه ابو حنيفة من الشهرة وغيرها، بل يعمل بخبر الواحد اذا صح أو حسن، وهذا المبدأ يجعل الاحاديث التي يتبني عليها مذهبه اكثر عدداً، فلا يتطلب في الحديث شهرة، وانما يتطلب صحة السند ونحوها، ولا يفهم من هذا تساهله في قبول الحديث من غير تحر أو تدقيق، بل هو شديد التحري ولكن لايشترط شهرة الحديث وعمومه، روي عنه أنه قال: "لقد أدركت سبعين ممن يقول قال رسول الله «ص» عند هذه الاساطين، «واشار الي مسجد رسول الله» فما أخذت عنهم شيئاً، وان أحدهم لو ائتمن علي بيت مال لكان أميناً، الا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن "وكان يقول: لا يؤخذ العلم من أربعة، ويؤخذ ممن سواهم، لايؤخذ من سفيه، ولايؤخذ من صاحب هوي يدعو الي بدعته، ولامن كذاب يكذب في

أحاديث الناس وان كان لايهتم علي حديث رسول الله «ص» ولامن شيخ له فضل وصلاح وعبادة اذا كان لايعرف مايحمل ومايحدث" ٠

وقد جمع الموطأ وظل سنين يحرره، ويحذف منه الحديث الذي يتبين له عدم صحته، ولكن مع هذا كله كانت دائرة الصحة عنده اوسع من دائرة ابي حنيفة ٠

ومسألة أخري هي عنده أساس للتشريع، وهي عمل أهل المدينة ٠ كان مالك يدل بعمل أهل المدينة، ويري أنهم أدري بالسنة وبالناسخ والمنسوخ ويقول في كتابه لليث بن سعد: " ان الناس تبع لأهل المدينة اذا اتفقوا علي عمل مسألة واتفق مع العمل علماؤها فهذا العمل حجة يقدم علي القياس، بل ويقدم علي الحديث الصحيح، أما اذا لمي كن عملا اجماعياً، بل عمله أكثرهم، فهذا العمل ايضا حجة يقدم علي خبر الواحد لان العمل بمنزلة الراوية، فعمل الاكثر بمنزلة رواية الأكثر، فاذا جاء خبر واحد يخالفهم كان الراجح أنه منسوخ، علي أن ينبغي التفرقة بين اجماعهم علي العمل النقلي والاجتهادي فالنقلي كنقلهم تعيين محل منبر النبي [ص] وقبره ومحل وقوفه للصلاة، وكتعيينهم مقدار المد والصاع والأوقية في عهد رسول الله [ص]، ونقلهم كيفية الأذان

والاقامة هل كانت مثني أو فرادي، والاجتهادي كأجتهاد المدنيين في بطلان خيار المجلس ونحوه، فالأول لاخلاف في حجته عند مفسري مذهب مالك، والثاني مختلف فيه عندهم، وهذه التفرقة معقولة، فالأعمال التي يجمع عليها أهل المدينة كتحديد المكاييل والموازين، وأشكال الأعمال التي عملها الرسول [ص] الأرجح فيها ان الجيل التالي من سكان المدينة نقلها عن الجيل الأول كما هي فان ضاقت دائرة الحديث واتسعت دائرة الرأي عند الاولين كان الأمر علي العكس عند الآخرين، اما عدد الدوائر نفسها فتكاد تكون واحدة٠

****

أكبر آثار مالك التي نقلت الينا "الموطأ" و"المدونة"

الموطأ - فأما الموطأ فكتاب الله مالك، فيه مظهر للحديث ومظهر للفقه، فمظهر الحديث أن أغلب ما فيه حديث عن رسول الله [ص] او الصحابة أو التابعين، أخذ هذه الاحاديث عن رجال عديدين بلغوا نحو خمسة وتسعين رجلا، كلهم مدنيون الا ستة: اثنان بصريان٠ ومكي واحد، وخرساني وجزري وشامي٠ والاحاديث التي يرويها عن

هؤلاء الستة قليلة جداً، فمنهم من يروي له الحديث ومنهم من يروي له الحديثين، وقد لقيهم مالك اما في المدينة او في مكة .

أما من عدا هؤلاء الستة فمدنيون يروي عنهم مالك، بعضهم يروي له كثيراً كابن شهاب الزهري، ونافع، ويحيي بن سعيد، وبعضهم يروي له الحديث الواحد أو الاثنين أو الثلاثة، وحتي الصحابة التي يروي لهم اكثرهم ممن أقام بالمدينة طويلا- حتي روي أن الرشيد قال لمالك لم لم نر في كتابك ذكراً لعلي وابن عباس، فقال: لم يكونا ببلدي، ولم ألق رجالهما وهذا الخبر مشكوك فيه، ولكن مما لاشك فيه أن روايته عنهما في الموطأ مسندة وبعضها مرسلة، ومتصلة ومنقطعة، وبعضها مما يسمي بلاغات، وهو مايقول فيها مالك بلغني أو نحوه من غير أن يعين من روي عنه فيقول: بلغني عن سعيد بن يسار عن سعيد بن يسار عن ابي هريرة أن رسول الله خصوصا اذا قرب العهد كما رجحوا عند الخلاف اعمال المكيين في مناسك الحج لانهم بها ادري، اما المسائل الاجتهادية فالأمر فيها سواء بين مجتهدي الصحابة والتابعين من المدنيين والكوفيين والشاميين والمصريين. وقد نقل مالك اجماع أهل المدينة في موطئه علي نيف وأربعين مسألة، وقد خالف مالكا في حجته عمل أهل المدينة الليث بن سعد في رسالته الي مالك والشافعي في الأم وناقشاه مناقشة قيمة ممتعة .

ومن مسلك مالك في التشريع، العمل بقول الصحابي أن صح نسبته اليه وكان من اعلام الصحابة - كالخلفاء الراشدين، ومعاذ بن جبل، وابن عمر وكان لم يرد في المسألة عينها حديث عن النبي صحيح. وقد رد عليه في ذلك بأن الصحابة ليسوا محل العصمة، ويجوز عليهم الغلط، وبأن قول الصحابة لو كان حجة لزم التناقض، لأن كثيراً ماصح في المسألة الواحدة آراء مختلفة للصحابة وقد رأينا قبل مسلك أبي حنيفة في أقوال الصحابة الخ.

ومن هنا نري أن هذين الاصلين، اعني عمل أهل المدينة وقول الصحابي قد غذيا فقه مالك بآثار كثيرة كان من شأنها تضييق دائرة الرأي، ومع هذا فلم ينكر مالك الرأي بتاتاً، فمن أصول مذهبه القول بالمصالح المرسلة او الاستصلاح، وقد تقدم الكلام فيه، ومن هذا القبيل ماقاله من الضرب عند التهمة للاعتراف بالسرقة، ورويت عنه اقوال دليلها الاستحسان، كتضمين الصناع وثبوت الشفعة في بيع الثمار فمن هنا نري ان مسالك الائمة من أصحاب الرأي وأصحاب الحديث تكاد تكون واحدة في العدد، ولكن الاختلاف انما هو سعة الدوائر وضيقها صلي الله عليه وسلم قال. الخ.

أو يقول عن الثقة عندي عن عمر بن شعيب الخ. وقد جمع مالك احاديث كثيرة، ثم كان يختار منها على مر السنين، فقد رووا ان مالكا "جمع في الموطأ اربعة الاف حديث أو اكثر، ومات وهي الف ونيف يخلصها عاما عاما بقدر مايري انه أصلح للمسلمين وأمثل في الدين". وقد رووا أنه شغل به نحو اربعين عاماً وأما ناحية الفقه فيه فانه رتبه ترتيب الفقه، فكتاب الطهارة، ثم كتاب الصلاة ثم كتاب الزكاة، ثم الصيام وهكذا، وفي كل كتاب من هذه فصول، كل فصل يجمع المسائل المتشابهة كصلاة الجماعة، وصلاة المسافر ..الخ.

وأيضاً يزيد علي الحديث احياناً استنتاجه الفقهي منه.

وطريقته في التأليف أن يذكر الاحاديث المتعلقة بالموضوع الواحد، وقد يعقب الحديث بتفسير كلمة لغوية فيه، وأحياناً يعقبه بأنه سئل في كذا فاجاب بكذا استنادا الي أية أو حديث أو قياس، سئل مالك عن الحائض تطهر فلا تجد ماء هل تتيمم؟ قال: نعم، لتتيمم فان مثلها الجنب اذا لم يجد ماء تيمم". وأحياناً يعقبه بتفريع مسائل وذكر حكمها، كأن يقول بعد أحاديث السرقة " وليس علي الاجير ولاعلي الرجل يكونان مع القوم [السارقين] قطع. لأن حالهما ليست بحال السارق، وانما حالهما حال الخائن، وليس علي

الخائن قطع "والامر عندنا في السارق يوجد في البيت قد جمع المتاع ولم يخرج به انه ليس عليه قطع وانما مثل ذلك كمثل رجل وضع بين يديه خمراً ليشربها فلم يفعل فليس عليه حد". الخ واحيانا لا يبدأ بالحديث، بل يذكر المسألة ويذكر حكمها ودليله علي هذا الحكم، واحياناً يذكر في المسألة حكم علماء المدينة، فيقول "الامر الذي لااختلاف فيه عندنا كذا"، الخ، الخ.

فهو لهذا كله كتاب حديث وفقه معا. وقد روي الموطأ روايات مختلفة تختلف في ترتيب الأبواب، وتختلف في عدد الأحاديث حتي عدها بعضهم عشرين نسخة وبعضهم ثلاثين، واختلافها رواياتها عن مالك، وسبب الإختلاف علي مايظهر - ان مالكاً لم ينته من نسخة يؤلفها ويقف عندها، بل قد كان دائم التغيير فيها لما روينا قبل من أنه كان دائم المراجعة للاحاديث وحذف مالم تثبت صحته، منها، فالذين سمعوا الموطأ سمعوه من مالك في أزمان مختلفة فكان من ذلك الاختلاف في النسخ. وقد بقي من هذه النسخ بين أيدينا رواية يحيي بن يحيي الليثي، وهي التي شرحها الزرقاني، ورواية محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة، وفيها اشياء كثيرة ليست في رواية يحيي، وهو يمزج ماروي عن مالك بأرائه، فكثيراً مايقول: "قال محمد".

وقد روي أن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون سبق مالكا فعمل كتابا ذكر فيه ما اجتمع عليه أهل المدينة، [ويعني آراءهم وفقههم] عمل ذلك من غير حديث، ورآه مالك فقال: "ماأحسن ماعمل، ولو كنت انا الذي عملت ابتدأت بالاثار، ثم سددت ذلك بالكلام". ويظهر أنه أنفذ فكرته بعد فالف الموطأ علي هذا المنهج رسمه: بدء بالحديث غالباً، ثم تثنيه بعمل أ.ل المدينة أو تفريع الفروع واستنتاج حكمها.

وعلي كل حال فكتاب الموطأ يعد من أوائل الكتب التي الفت في الحديث والفقه وقد نشره الآخذون عن مالك في الأمصار، فمحمد بن الحسن في العراق ويحيي بن يحيي الليثي في الأندلس، وعبد الله بن وهب وعبد الرحمن بن القاسم وعبد الله بن عبد الحكم وأشهب في مصر، وأسد بن الفرات في القيروان. الخ وكان له أثر كبير في الحركة العلمية الدينية علي اختلاف العصور.

المدونة - أما المدونة فهي مجموعة رسائل تبلغ نحو ستة وثلاثين الف مسألة، جمعها أسد بن الفرات النيسابوري الأصل التونسي الدار، وكان تلميذا لمالك سمع منه الموطأ ثم رحل الي

العراق، وفعل في العراق كما فعل محمد بن الحسن في المدينة كلاهما مزج الفقهين، وقرب بين المدرستين، فقد لقي أسد بن الفرات صاحبي ابي حنيفة أبا يوسف ومحمدا، وسمع منهما الفروع علي الطريقة العراقية، ثم ذهب الي مصر ولقي أصحاب مالك بها، ولاسيما ابن القاسم، وعرض عليهم هذه الفروع ونحوها، وسمع منهم حكمها علي مذهب مالك، اما حسب ماسمعوا من مالك، وأما اجتهاد علي أصوله ومنحاه، وجمع أسد بن الفرات ذلك كله في كتاب سمي المدونة، ثم رحل بها أسد الي القيروان فأخذها عنه سحنون الفقيه المغربي، وعاد بها الي مصر سنة ١٨٨ فعرضها علي ابن القاسم واصلح فيها مسائل، وكانت لما جمعها أسد بن الفرات غير مرتبة ولا مبوبة فرتبها سحنون وبوبها، واحتج لبعض مسائلها بالآثار، وعاد بها القيروان وانتشرت منها الي الاندلس، وكان لها الفضل في نشر مذهب مالك في قطري المغرب والاندلس.

فالمدونة كما تري متأثرة بالعراقيين في تفريع المسائل وتوليدها، وبالحجازيين في تطبيق مذهب مالك عليها، ومن هنا تري كيف كان الزمن والرجال والرحلات تعمل علي استفاده كل مذهب بما للآخر، فالمدونة ليست اذن من تأليف مالك، وانما هي جمع لفتاوي مالك في مسائل، واجتهاد من تلاميذه وتلاميذ تلاميذه في وضع

احكام لمسائل علي قواعده ومبادئه.

وقد كان لمالك اصحاب اكثر عظمائهم مصريون كعبد الله بن وهب وابن القاسم وأشهب وعبد الله بن عبد الحكم، ومن عظمائهم اندلسي كبير، وهو يحيي بن يحيي الليثي.

فالأربعة الأولون كانوا عماد المدرسة الدينية في مصر لعهدهم، وكانوا مع أخذهم عن مالك يجتهدون ويخالفون احياناً، كما خالف ابو يوسف ومحمد ابا حنيفة، وكما خالف المزني والبويطي الشافعي. واما يحيي بن يحيي الليثي فأصله من قبيلة بربرية يقال لها مصمودة، ونسب الي بني ليث بالولاء، رحل الي المدينة وسمع من مالك، ورحل الي مكة وسمع بمصر من الليث بن سعد وابن القاسم، ورجع الي الاندلس بعد ماكمل علمه، فكان عالم الاندلس وعظيمها ووجيهها، واليه الفضل في نشر مذهب مالك في الاندلس، فقد كان - كما قال ابن حزم - : "مكينا عند السلطان مقبول القول في القضاء، فكان لايلي قاض في أقطار بلاد الاندلس الا بمشورته واختياره. ولايشير الا بأصحابه ومن كان علي مذهبه، والناس سراع الي الدنيا، فأقبلوا علي مايرجون بلوغ أغراضهم به، علي ان يحيي ابن يحيي لم يل قضاء قط ولا أجاب اليه، وكان ذلك

زائدا في جلالته عندهم، وداعيا الي قبول رأيه لديهم" ، وهو صاحب الفتوي المشهورة لأمير الأندلس عبد الرحمن بن الحكم، فقد وقع علي جارية له في رمضان، فأفتي ان يكفر بصوم شهرين متتابعين. وسئل لم لم تفته بمذهب مالك، فعنده أنه مخير بين عتق رقبة وأطعام ستين مسكينا وصوم شهرين؟ فقال: لوفتحنا له هذا الباب لسهل عليه هذا العمل، ويعتق فيه رقبة ، ولكن حملته علي اصعب الأمور لئلا يعود - وتعد روايته للموطأ أصح رواية ، وهي التي بين أيدينا وقد خالف مالكا في مسائل ذهب فيها الي مذهب الليث بن سعد، فلم ير القضاء بالشاهد مع اليمين كما رأي مالك، وقال لابد من شاهدين رجلين أو رجل وأمرأتين أتباعا لليث، وكان يري جواز كراء الارض بجزء مما يخرج منها كما يري الليث" .

****

وعلي الجملة فان كانت مدرسة ابي حنيفة قد وسعت الفقه بكثرة الفروع، وبما يستلزمه ذلك من رأي وقياس واستحسان، ومواجهة المشاكل المعقدة التي قدمتها لها المدينة الضخمة ، والتي قدمتها لها بقايا الأمم الممدنة في العراق من أشوريين وكلدانيين

وفرس وغيرهم، فان مدرسة مالك قد اثرت في الفقه بما نقلت من أحاديث كانت وافرة فيها بحكم قيام الرسالة فيها. وكثرة الصحابة بها. وبما قدمت من أشكال وأوضاع تداولها سكان المدينة جيلا عن جيل، وأهل المدينة في ذلك أوثق، فقد شهد الاولون منهم النبي يتوضأ علي نحو خاص ويصلي علي نحو خاص، وعرفوا مقدار المكاييل والموازين التي كانت تستعمل لعهده. فنقلوا ذلك كله الي من بعدهم من طريق الأخبار احياناً، ومن طريق التوريث أحياناً أخري، وتسلل ذلك الي مالك ومدرسته، ثم كان من أصحاب المذهبين من ينتفع بمزايا كل، فيرحل محمد بن الحسن الحنفي الي المدينة يمكث فيها ثلاث سنين ويروي الموطأ،ويعود الي العراق مزوداً بالآثار، ويذهب اسد بن الفرات ويمكث في العراق طويلا، ويعود الي مصر والقيروان مزودا بكثرة الفروع، وبذلك وأمثاله تأثرت المدرستان، وتقارب المذهبان.

جـ - الشافعـي ومدرسـته

الشافعي هو محمد بن ادريس، قرشي من جهة الأب، يلتقي مع النبي «ص» في عبد مناف، وقد روي الجرجاني «وهو من الحنفية» عن أصحاب مالك أن شافعاً جد الشافعي والذي ينسب اليه لم يكن قرشي الأصل، وانما كان مولي لأبي لهب وعلي ذلك يكون الشافعي مولي، ولكن قوله هذا لم يقره عليه علماء الانساب، والظاهر انه حمله علي ذلك العصبية المذهبية فالصحيح انه قرشي، والراجح أن أمه ازدية، والأزد من اليمن، وكان ابوه خرج في حاجة الي الشام فولدت له الشافعي بغزة أو عسقلان سنة ١٥٠ ، ثم مات ابوه فحملته امه الي مكة وهو ابن لسنتين، وقد نشأ فقيراً كما حدث هو عن نفسه. وروي عنه انه قال كنت يتيما في حجر امي ولم يكن لها مال، وكان المعلم يرضي من امي أن اخلفه اذا ام، فلما جمعت القرآن دخلت المسجد، فكنت أجالس العلماء فأحفظ الحديث أو المسألة، وكانت دارنا في شعب الخيف، فكنت أكتب في العظم فاذا كثر طرحته في جرة عظيمة "وفي رواية" لم يكن لي مال فكنت اطلب العلم في الحداثة، فاذهب الي الديوان فاستوهب منهم الظهور فاكتب فيها" .

قال "وخرجت من مكة فلزمت هذيلا بالبادية اتعلم كلامها واخذ اللغة وكانت افصح العرب " وقد افادته الاقامة في البادية مع قرشيته معرفة واسعة باللغة والشعر، واعانته علي تفهم معاني القرآن والسنة، فتراه يستشهد علي أن السعي معناه العمل في قوله تعالي: «اذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الي ذكر الله» بقول زهير: سعي بعدهم قوم لكي يدركوهمـــو فلم يفعلوا ولم يليموا ولم يألوا وبأن السر معناه الجماع في قوله: "ولكن لاتواعد وهم سرا" بابيات لامرئ القيس وجرير الخ. كما أفادته قوة التعبير وعربية رصينة في الاسلوب وذوقا دقيقا، حتي لقد قرأ عليه رجل فلحن، فقال له الشافعي : "اضرستني " وقد روي ان الاصمعي اخذ عنه شعر الهذليين وشعر الشنفري ثم اتجه الي الحديث والفقه، فأخذ في مكة عن سفيان بن عيينة ومسلم بن خالد الزنجي، وحفظ الموطأ ثم رحل الي مالك في المدينة وسمع منه الموطأ، وأخذ عنه فقه، ولازمه الي ان مات مالك سنة ١٧٩ ثم خرج الي اليمن، وقد كر في رحلته اليها اسباب كثيرة أقر بها أن والي اليمن جاء مكة فكلمه بعض القرشيين أن يأخذ الشافعي ويولية بعض الأعمال، ففعل وولاه بعض الأعمال، ثم اتهم بالتشيع وامتحن، والروايات كذلك مختلفة: هل اتهم هذه التهمة وهو باليمن أو بعد أن عاد الي الحجاز فان ابن عبد البربردي انه اتهم

بالتشيع والميل الي مبايعة علوي وهو بالحجاز وابن حجر يروي روايات مختلفة كلها متفقة علي أنه اتهم بذلك وهو في اليمن، والكل متفقون علي النتيجة وهي انه حمل في هذه التهمة الي هارون الرشيد، فنفي الشافعي التهمة وعفا عنه الرشيد وكان ذلك نحو سنة ١٨٤، وسن الشافعي نحو اربع وثلاثين سنة ثم قدم بغداد سنة ١٩٥ واقام بها سنتين ثم رجع الي مكة ثم قدم بغداد سنة ١٩٨ فأقام فيها اشهرا، ثم خرج منها الي مصر سنة ١٩٩ وظل بها الي أن مات سنة ٢٠٤ وفي اثناء اقامته بالعراق اتصل بمحمد بن الحسن صاحب ابي حنيفة وأخذ عنه فقه العراقيين، وقال ابن حجر: "انتهت رياسة الفقه بالمدينة الي مالك بن انس حل اليه «الشافعي» ولازمه واخذ عنه، وانتهت رياسة الفقه بالعراق الي ابي حنيفة فأخذ «الشافعي» عن صاحبه محمد بن الحسن جملا ليس فيها شئ الا وقد سمعه عليه فاجتمع له علم اهل الرأي وعلم اهل الحديث فتصرف في ذلك حتي اصل الأصول، وقعد القواعد وأذعن له الموافق والمخالف واشتهر امره وعلا ذكره وارتفع قدره حتي صار منه ما صار".

وقد خلف لنا الشافعي في كتاب الام وصيته التي أوصي بها قبل ان يموت فتاريخها صفر سنة ٢٠٣ يقول فيها "هذا كتاب

كتبه محمد بن ادريس ابن العباسي الشافعي في صحة منه وجواز من أمره، ان الله رزق ابا الحسن (ابن الشافعي] مالا فاخذ منه بن ادريس من مال ابنه أربعمائة دينار جيادا صحاحا مثاقيل وضمنها. محمد بن ادريس لابنه " وفي هذه الوصية تصدق علي ابنه بثلاثة أعبد كان يملكها الشافعي وصيف اشقر خصي يقال له صالح ، ووصيف نوبي خباز يقال له بلال وعبد فراني، وتصدق عليه بأمه شتراء كانت له - وفي هذه الوصية ايضا تصدق بحلية وقد عددها في الوصية - وتصدق بمنزلين له في مكة وقفهما علي ابنه، ثم من بعده لأولاد ابنه الذكور والاناث الخ.

وله وصية أخري في شعبان من هذه السنة، أوصي فيها بماله وقسمه أسهما وبين مايفعل بعبيده وجواريه، ومايعطون من ماله، ومايعطي لفقراء آل شافع.

وهذه الوصايا تدل عل ان حالته المالية في مصر كانت لابأس بهاوان لم تبلغ درجة الغني.

واما صفاته العقلية واللسانية فيكاد المؤرخون يجمعون علي عذوبة منطقة وحسن بيانة وذكائه وقدرته الفائقة علي الجدل وقوته

في التفكير ومهارته في الاستنباط.

اذن ثقافته ثقافة في اللغة والأدب واسعة، وثقافة في الحديث وحل في طلبه الي بلاد كثيرة، وثقافة في الفقه علي نمط مدرسة الحجاز وثقافة في الرأي علي نمط مدرسة العراق، وثقافة اجتماعية في مشاهدته لحياة البدو في البادية والحضارة الاولية في الحجاز واليمن، والحضارة المعقدة المركبة في العراق ومصر وحياة الفقراء من البدو والزهاد من المحدثين، ومن أخذوا بحظهم من الدنيا كمحمد بن الحسن الشيباني في العراق، وابن عبد الحكم في مصر، ورؤية لأنماط من الحياة الاجتماعية والاقتصادية مختلفة، تتطلب أنواعاً من التشريع مختلفة فالمصريون يتعاملون أنواعاً من المعاملات لايتعاملها اهل العراق والمصريون والعراقيون يشتركون احيانا فيما لايشترك معهم فيه الحجازيون ونظام الري للنيل في مصر غير نظام دجلة والفرات في العراق، وذلك سيتتبع اختلافا في الخراج وما اليه كلاهما يختلف في ذلك عن بلاد لاتعرف أنهارا كالحجاز، كل هذا وأمثاله كان له اثر كبير في تكوين المذهب الشافعي، فان نحن أردنا ان نخطط رسماً بيانيا لمدرسته كما فعلنا من قبل كان هذا يسيراً سهلا.

مدرسة مالك (السابقة)   مدرسة ابي حنيفة (السابقة)

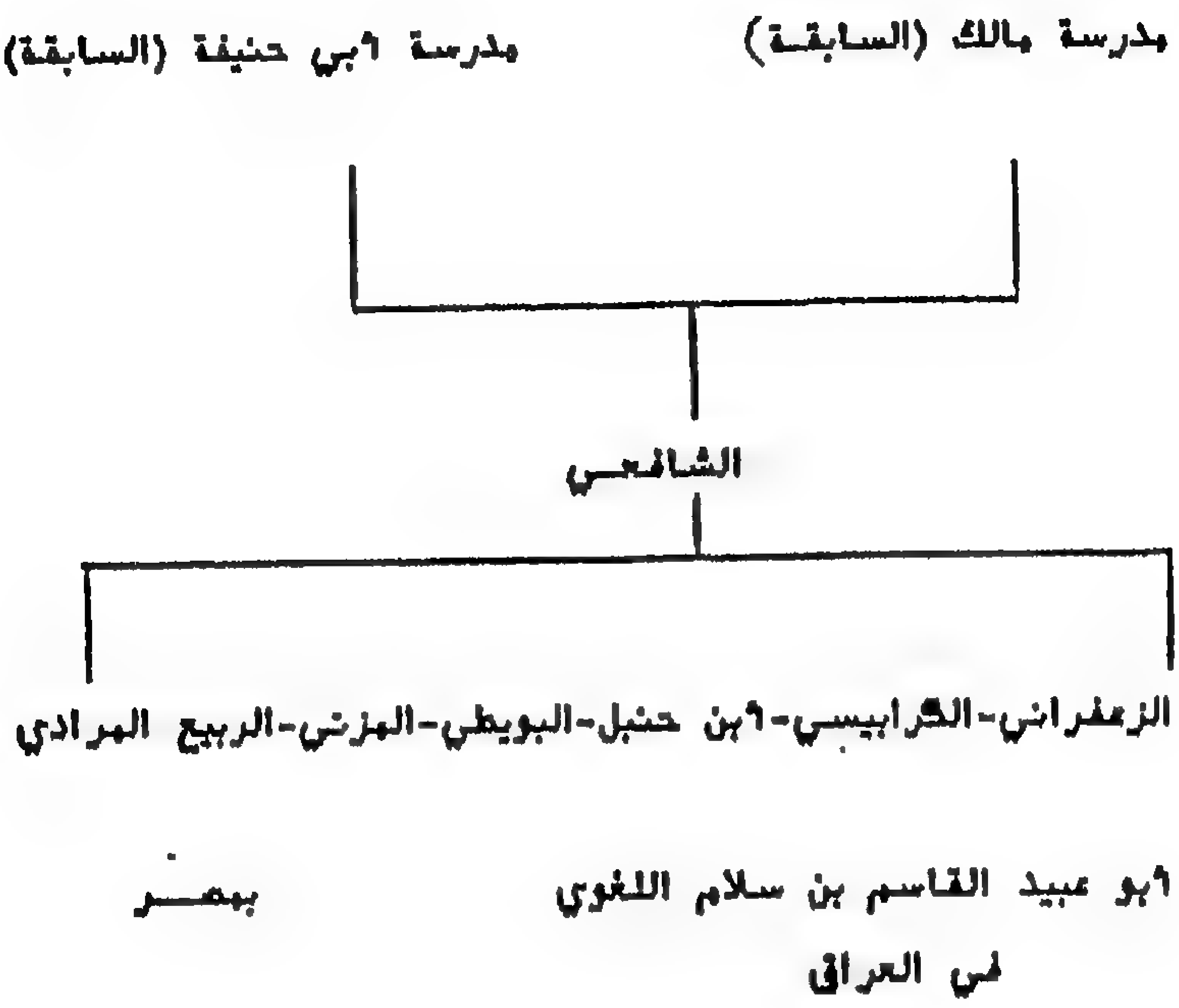

وكان الشافعي في أول أمره يعد تلميذا لمالك، ومتبعا لمذهبه وتعاليمه وأحد رجال مدرسته، ومازال كذلك الي سنة ١٩٥ حيث قدم بغداد قدمته الثانية فهناك بلغ مبلغ مؤسس مذهب يدعو اليه والظاهر ان أقوي ما أثر فيه اتصاله في قدمته الأولي باصحاب ابي حنيفة واستفادته من كتب محمد وعلمه بطريقة اهل العراق فقد

رأي من غير شك ان طريقتهم لايحسن اخذها كلها، ولاتركها كلها فعندهم القياس وهو منهج صحيح، لكنه في نظره ليس علي اطلاقه بل لابد أن يتأخر عن الأحاديث الصحيحة، حتي ماكان منها خبر آحاد، وعندهم طريقة التفريع وتوليد المسائل الكثيرة من أصولها وهي طريقة جيدة وعندهم الجدل والاستدلال بالعدالة والمصلحة، والحاق الشبيه بالشبيه وما بين الأشياء من فروق وموافقات والمناظرة في ذلك وتأليف الحجج وقد رأي ذلك حسنا، ورأي نفسه في استعداد جيد للدخول في هذا الباب والتفوق فيه، فاقتبس من ذلك أحسنه، واضافة الي ثروته الحجازية من اللغة والأدب اولا، والحديث واجماع اهل المدينة وطريقة الحجازيين في الاستنباط ثانيا.

هاتان الناحيتان قد استفاد منهما الشافعي، والف بينهما بشخصيته فاخرج مذهبا جيدا دعا اليه في العراق سنة ١٩٥ وتبعه عليه بعض اصحابه البغداديين مثل ابي علي الحسين بن علي الكرابيسي. وكان من مشاهير علماء العراق وله مصنفات كثيرة مات سنة٢٥٦ ومثل ابي ثور الكلبي وقد صحب الشافعي في بغداد وأخذ عنه، والف في مسائل الاختلاف بين مالك والشافعي، وكان أميل الي الشافعي فيكتبه، وكأبي علي الزعفراني كان يقرأ كتب

الشافعي التي الفها قبل قدومه مصر- ولكن يظهر ان الشافعي لم يجد لمذهبه في العراق نجاحاً كبيراً لمزاحمة الحنفية له ولما له من جاه وسلطان وقوة، فتحول الي مصر، قال الزعفراني: لما أراد الشافعي الخروج الي مصر أنشد لنفسه:

أخي أري نفسي تتوق إلي مصر ومـــن دونها أرض المهامة والقفر
فو الله ماأري اللفوز والغنـــــي أساق اليّها أم أساق إلي قبري

قال الزعفراني: فو الله لقد سبق اليهما جميعا وسأل الشافعي الربيع عن اهل مصر قبل ان يرحل اليهم فقال له الربيع: هم فرقتان: فرقة مالت الي قول مالك وناضلت عنه وفرقة مالت الي قول ابي حنيفة وناضلت عنه، فقال الشافعي ارجو أن أقدم مصر ان شاء الله فاتيهم بشئ اشغلهم به عن القولين جميعاً فقال الربيع: ففعل ذلك والله حين دخل مصر وقد اقام بمصر نحو أربع سنوات أملي فيها كثيراً من كتبه.

منحاه في الاجتهاد - لعل خيراً ما يلخص مسلكه ماذكره هو اذ قال: "الأصل قرآن وسنة فان لم يكن فقياس عليهما، واذا اتصل الحديث عن رسول الله (ص) وصح الاسناد منه فهو سنة،

والاجماع اكبر من الخبر المفرد والحديث علي ظاهرة، واذا احتمل معاني فما أشبه منها ظاهرة اولاها به واذا تكافأت الاحاديث فاصحها اسنادا اولاها وليس المنقطع بشئ ماعدا منقطع ابن المسيب ولا يقاس اصل علي اصل ولايقال للأصل لم وكيف وانما يقال للفرع لم فاذا صح قياسه علي الاصل وقامت به الحجة .

أظهر مزايا الشافعي انه علي اثر مارأي من صور مختلفة للتشريع، وتباين بين نمط الحجازيين والعراقيين، وماكان له من جدل ومناظرات بين هؤلاء وهؤلاء عمد الي ان يحدد موقفه تحديدا دقيقا امام هؤلاء وهؤلاء رأي موقف الحجازيين ازاء الحديث غير موقف العراقيين، فسأل نفسه، ومام موقفه؟ ورأي موقف الحجازيين ازاء القياس والاستحسان غير موقف العراقيين، فاراد ان يتعرف موقفه من ذلك، ورأي مثل هذا في اجماع اهل المدينة واجماع العلماء عامة فحاول ان يضبط ذلك كل هذا نقله من الفروع الي الاصول، وهذه من غير شك خطوة جديدة في التفكير فاذا فرغ من وضع خطة في اصل هاجم مخالفها ولافرق عنده بين ان يكون مخالفه حجازياً أو عراقياً . ولافرق بين ان يكون استاذه الذي أخذ عنه العلم، أو انساناً لايعرفه.

ولنسق لذلك بعض الأمثلة، فقد فكر في الحديث ورأي نفسه امام جماعة ينكرون الأخذ بالحديث بتاتا وجماعة يميلون به بشروط طويلة وجماعة يعملون به في سهوله فوضع لهم خطة خلاصتها: انه اذا حدث ثقة عن ثقة عن رسول الله ولم يكن هناك حديث يخالفه عمل به فاذا كانت هناك احاديث مختلفة نظر: هل فيها ناسخ ومنسوخ كأن يتأخر احدها في الزمن، ويثبت بدليل ان الحديث الاخير نسخ ماقبله فيعمل بالناسخ، فان لم يكن ناسخ ولامنسوخ نظر في اوثق الروايات وامعنها في الصحة فعمل بها فان تكافأت عرضها علي أصول القرآن والسنة الثابتة وعمل بما كان من الحديث اقرب الي ذلك، واذا ثبت الحديث عن رسول الله لايترك هذا الحديث لاى قياس ولا لأي أي ولا لأي أثر يروي عن صحابي كائنا من كان وتابعي كائنا من كان.

فلما وصل الي هذا الاصل استعرض موقف الحجازيين والعراقيين فرأي في كليهما مخالفة له فهاجمها. هاجم مالكا وانتقده لانه ترك احيانا حديثاً صحيحاً لقول واحد من الصحابة او التابعين او لرأي نفسه. وكان اشد نقد موجه له لمالك انه ترك قول ابن العباس في مسألة الي قول عكرمة مع ان مالكا يسئ القول في عكرمة ولايري لاحد أن يقبل حديثه. قال الشافعي: "والعجب ان يقول في عكرمة

مايقول ثم يحتاج الي شئ من علمه يوافق قوله فيسميه مرة ويسكت عنه أخري.

وهاجم بهذا المبدأ ايضا العراقيين، لانهم يشترطون في الحديث أن يكون مشهوراً، ويقدمون القياس علي خبر الآحاد وان صح سنده، وأنكر عليهم تركهم لبعض السنن لأنها غير مشهورة، وعملهم بأحاديث لم تصح عند علماء الحديث بدعوي أنها مشهورة، ومن أمثلة ذلك ايضا انه وقف في القياس موقفاً وسيطاً لم يتشدد فيه تشدد مالك ولم يتوسع فيه توسع أبي حنيفة فهو يقول: "أن جهة العلم الكتاب والسنة والاجماع والاثار، ثم القياس عليها.. ولايقيس الا من جمع الآلة التي له القياس بها- وهي العلم بأحكام كتاب الله عز وجل فرضه وأدبه وناسخه ومنسوخه وعامة وخاصة ..ولايجوز لأحد أن يقيس حتي يكون عالماً بما مضي قبله من السنن واقاويل السلف واجماع الناس واختلافهم، ولسان العرب، ولايكون له ان يقيس حتي يكون صحيح العقل، وحتي يفرق بين المشتبه ولايعجل بالقول به دون التثبت ولايمتنع من الاستماع ممن خالفه، لأنه قد يتنبه بالاستماع بترك الغفلة، ويزداد به تثبتاً فيما اعتقد من الصواب، وعليه في ذلك بلوغ غاية جهده والانصاف من نفسه حتي يعرف من أين قال مايقول وترك مايترك".

وهو علي هذا الاساس قد أنكر الاستحسان وهاجم القائلين به ويظهر من مجموع قوله انه يعني بالاستحسان مجرد الرأي من غير أن يكون مستنداً الي أصل شرعي، وشبه المستحسن في اثناء كلامه بالتاجر يقدر للشيء ثمناًمن غير ان يدخل السوق ويعرف أسعار اليوم. فتقديره لايبني علي اساس كذلك الفقيه يستحسن من غير أن يرجع في استحسانه الي اصول الشريعة ولذلك هاجم مالكاً في قوله بالمصالح المرسلة، وهاجم الحنفية في قولهم بالاستحسان.

وهكذا سار الشافعي علي هذا المنوال، حدد موقفه بقواعد، وهو عمل فيما نعلم لم يسبق اليه، وقد كان لرحلته الي المدينة ومكة واليمن والعراق مرارا ومصر أثر في ثروته اتساع ثروته في الحديث، فلم يقتصر علي الحديث الشائع في الحجاز كما فعل مالك، بل ضم اليه كثيرا من الحديث الشائع في هذه البلدان الاخري، وهذه الرحلات كذلك جعلته لايتعصب لاهل المدينة، ولا يعترف بالحجة التي جعلها مالك اصلا من اصول مذهبه، وهي اجماع اهل المدينة علي حين انه نفسه يروي أحاديث ضد الاجماع، فيقول مالك: "ان الناس أجمعوا علي أن لا سجده في سورة الحج الا مرة واحدة، مع انه يروي عن عمر وأبن عمر انهما سجدا في سورة الحج مرتين

الخ.

ولم يسلم الشافعي من تهجم بعض العلماء عليه في حديثه كابن معين فقد اكثر فيه القول وقال فيه ابن عبد الحكم: انه كان يروي عن الكذابين والبدعيين فروي عن ابراهيم بن يحيي مع انه كان قدريا، وروي عن اسماعيل بن عليه مع أنه طعن فيه، وقالوا: ان البخاري ومسلما لم يرويا عنه شيئاً في صحيحهما، ولولا انه كان ضعيفا في الرواية لرويا عنه، وان مذهبه ان المراسيل ليست بحجة وقد ملأ كتبه من قوله اخبرنا الثقة، أخبرني من لا اتهمه الخ. وقد دافع أصحاب الشافعي عن هذه الأقوال دفاعاً شديداً، ومع هذا كله فقد كان الشافعي اقرب الي المحدثين وهم اليه اميل. ولئن فاته بعضهم في معرفة الحديث وأسانيده ورجاله فقد فاتهم بفقه في الحديث حتي روي عنه انه قال لأحمد بن حنبل: انتم أعلم بالاخبار الصحاح منها، فاذا كان خبر صحيح فأعلمني حتي أذهب اليه. كان المحدثون أميل الي الشافعي لانه توسع في استعمال الحديث والاستدلال به اكثر مما فعل مالك وابو حنيفة وحد من الرأي والقياس وضيق سلطتها ولذلك كان من أنصاره احمد بن حنبل واسحاق بن راهوية وغيرهما من كبار المحدثين، كما أنه كان أقرب الي نفوس الحنفية من المحدثين وفقهائهم، لانه لم ينكر القياس

جملة بل قال به وقعد القواعد حتي لقد عدل بعض فقهاء العراق عن مذهب ابي حنيفة الي مذهبه، ولعل هذا الموقف - وهو تقريبه وجه النظر بين المدرستين: مدرسة الحجاز ومدرسة العراق، وانتخابه مارأي الحق في كلتيهما هو اوضح ظاهرة في مدرسة الشافعي:

قال الرازي:" ان الناس قبل الشافعي كانوا فريقين: أصحاب الحديث واصحاب الرأي، اما أصحاب الحديث فكانوا عاجزين عن المناظرة والمجادلة، عاجزين عن تزييف طريق أصحاب الرأي، فما كان يحصل بسببهم قوة في الدين ونصرة في الكتاب والسنة، واما أصحاب الرأي فكان سعيهم وجهدهم مصروفين الي تقرير ما استنبطوه برأيهم ورتبوه بفكرهم.. [فجاء الشافعي] وكان عارفا بالنصوص من القرآن والاخبار، وكان عارفا بأصول الفقه وشرائط الاستدلال.. وكان قويا في المناظرة والجدل.. فرجع عن قول اصحاب الرأي اكثر انصارهم واتباعهم.

اثار الشافعي - من أهم ماوصل الينا من عمل الشافعي رسالته في اصول الفقه، رواها عنه تلميذه المصري الربيع بن سليمان المرادي، وقد تكلم فيها فيما يحتاج اليه المجتهد وازاء القرآن من

العام والخاص، والناسخ والمنسوخ وتكلم في موقف المجتهد، وناسخه ومنسوخه، وماكان فيه من اختلاف ومايقبل منه ولايقبل، ثم تكلم في الاجماع. وان "من قال بما تقول به جماعة المسلمين فقد لزم جماعتهم، ومن خالف ماتقول به جماعة المسلمين فقد خالف جماعتهم "ثم تكلم في اثبات القياس والاجتهاد، وحيث يجب القياس وحيث لايجب، ومن له أن يقيس، ومن ليس له ونقد الاستحسان ورد علي القائلين به، وهو بهذا اول من وضع خطة في البحث في اصول الفقه جري عليه كل من اتي بعده من علماء المذاهب الاخري، قال الرازي" واعلم ان نسبة الشافعي الي علم الاصول كنسبة ارسطاليس الي علم المنطق وكنسبة الخليل بن أحمد الي علم العروض

وذلك لان الناس كانوا قبل ارسطا ليس يستدلون ويعترضون بمجرد طباعهم السليمة لكن [ما] كان عندهم قانون مخلص في كيفية ترتيب الحدود والبراهين، فلاجرم كانت كلياتهم مشوشة ومضطربة فان مجرد الطبع اذا لم يستعن بالقانون الكلي قلما افلح، فلما رأي ارسطا ليس ذلك اعتزل عن الناس مدة مديدة واستخرج...علم المنطق، وضع للخلق بسببه قانونا كليا يرجع اليه في معرفة ترتيب الحدود والبراهين، وكذلك الشعراء كانوا قبل الخليل بن احمد ينظمون اشعاراً، وكان اعتمادهم علي مجرد الطبع فاستخرج الخليل علم العروض فكان ذلك قانونا كليا في معرفة مصالح الشعر ومفاسده

وكذلك هاهنا - الناس كانوا قبل الامام الشافعي يتكلمون في مسائل اصول الفقه ويستدلون ويعترضون ولكن ماكان لهم قانون كلي مرجوع اليه في معرفة دلائل الشريعة ووضع للخلق قانونا كليا يرجع اليه في معرفة مراتب أدلة الشرع، فثبت ان نسبة الشافعي الي علم الشرع كنسبة ارسطاليس الي علم العقل.. واعلم ان الشافعي صنف كتاب الرسالة ببغداد، ولما رجع الي مصر اعاد تصنيف كتاب الرسالة وفي كل واحد منهما علم الكثير، والناس وان اطنبوا ذلك في علم اصول الفقه الا ان كلهم عيال الشافعي فيه، لأنه هو الذي فتح هذا الباب، والسبق لمن سبق.

نعم روي ابن النديم ان محمد بن الحسن الف كتابا في اصول الفقه ولكن لم يصل الينا هذا الكتاب حتي نستطيع ان نقارن بينه وبين رسالة الشافعي ونعلم ماذا استفاد الشافعي من أصول محمد وماذا اخترع من نفسه، وقد كان هناك طريقتان امام مخترع اصول الفقه: الأول ان يضع القواعد التي تعين المجتهد علي استنباط الأحكام من مصادر التريع، وهي الكتاب والسنة والاجماع والقياس والثاني استخراج القواعد العامة الفقيه لكل باب من أبواب الفقه ومناقشتها وتطبيق الفروع عليها، فيستنتج - مثلا - قواعد البيع العامة او قواعد الايجار ويحددها ويبين مسلك التطبيق عليها،

وكلا الطريقين يصح ان يسمي أصول الفقه، وقد سلك الثاني الفرنج علي النحو الذي تراه في اصول الشرائع لبنتام ومن حذا حذوه، وقد اختار الشافعي الطريق الأول، وألهمه ذلك ماكان من الجدل القوي بين المحدثين والفقهاء من جانب، وفقهاء العراق وفقهاء الحجاز من جانب آخر. فاضطره هذا الخلاف ان يضع القواعد التي رأي انها تحسمه، اضف الي ذلك ان الطريق الثاني اكثر ماينمو في التشريع الوضعي الذي يعتمد علي النظريات العقلية الطليقة وتعديلها وفق مايجد من نظريات فلسفية وآراء مدنية. علي ان هذا الضرب قد اتجه الي بعض المسلمين بعد كما تري في الاشباه والنظائر لابن نجيم وان لم يسر طويلا.

وليس تعرضه لاصول الفقه مقتصرا علي رسالته في الاصول، بل تعرض له ايضا في مواقع كثيرة من كتاب الام، فتعرض - مثلا - لمناقشة الفرقة التي تنكر العمل بالاحاديث بتاتاً، وكتب فصلا في ابطال الاستحسان فيظهر ان كثيرا من المسائل الفرعية كانت تعرض له فتثير في ذهنه اصولا متفرقة يفكر فيها ويطيل التفكير، ثم يضع لها القواعد، ثم جرد هذه القواعد واكملها ورتبها واخرجها في كتابه الرسائل وله الفضل خاصة في تنظيم الاجماع والعمل به ومايصلح منه ومالايصلح، وتنظيم القياس الذي

جري عليه الحنفية، ووضع قواعد له وتقسيمه اقساما وتوضيح علله وبيان مايجوز منه ومالايجوز.

وقد خطا بكتابه خطوات في الفقه من حيث وضع القواعد للمجتهد والزامه الاخذ بها أو بنظائرها، وحتي لايأتي اجتهاده متناقضاً، يوما يستدل بالعام ويوما يقول ان دلالته ظنية، ويوما يستدل بالخاص ويوما يحتمل انه خصوصية الخ ولايخفي مايترتب علي وضع هذه المبادئ من انتظام سير الفقه وتوحيد مجاريه وعدم الاضطراب في التفريع.

الأم - وهو أكبر أثر للشافعي بين ايدينا وقد ثار الخلاف حديثا في مصر هل الام كتاب الفه الشافعي أو الفه البويطي؟ وأظن انه لوحدد موضع النزاع في دقة لكان الأمر سهلا حلا، فليس يستطيع احد أن يقول ان ما بين دفتي الكتاب الذي بين ايدينا هو من تأليف الشافعي، وانه عكف علي كتابه وتأليفه في هذا الوضع النهائي: وأهم دليل علي ذلك ان مطلع كثير من الفصول العبارة الاتية" اخبرنا الربيع قال قال الشافعي" وهي عبارة لايمكن ان يكتبها الشافعي وهو يؤلف الكتاب، وفي ثنايا الكتاب نجد اخبارا يعدول الشافعي عن هذا الرأي كان يجئ في سير الكلام: قال الربيع

قد رجع الشافعي عن خيار الرؤية وقال لايجوز خيار الرؤية "ومحال ان تصدر من الشافعي هذه العبارة وأمثالها، كما لايستطيع احد ان ينكر ان في الأم مذهب الشافعي بقوله وعبارته فالظاهر انها أملاها الشافعي في حلقته كتبها عنه تلاميذه وادخلوا عليها تعليقات من عندهم واختلفت روايتهم بعض الاختلاف، والذي بين أيدينا منها رواية الربيع المرادي عن الشافعي.

علي كل حال بين أيدينا مجموعة في سبعة اجزاء أغلبها من كلام الشافعي رواها عنه تلميذه وأدخل فيها بعض تعليقات أفردها وبينها حتي لاتلتبس بكلام الشافعي ومجموع ذلك هو الذي اطلق عليه "كتاب الأم" وقد بوب علي أبواب الفقه كما فعل مالك في الموطأ، ولكن فيه فصول في أصول الفقه اشرنا الي ذلك من قبل.

وقد امليت هذه الأبواب في مصر، والعلماء يقسمون فقه الشافعي الي مذهبين: قديم وجديد. فاما القديم فهو ماكتبه وقال به في العراق، واما الجديد فهو كتبه وقال به في مصر، وذلك انه لماجاء مصر عدل عن بعض أقوال له كان قالها من قبل وسببه انه خالط علماء مصر وسمع ماصح عندهم من حديث وسمع تلاميذ الليث بن سعد ينقلون عنه اراءه وفقهه، وراي بعض حالات اجتماعية

تخالف تلك التي رآها في الحجاز والعراق، فغير ذلك من فقه الشافعي في بعض اقواله، واطلق عليه المذهب الجديد·

وفي "الأم" مصداق لجميع ماذكرنا عن الشافعي، فهو فيه فصيح العبارة قوي الأداء، تشوب عبارته بلاغة الابدية وفصاحتها، وقوة القرشية وايجازها أخذ عليه بعض المتعقبين له اشياء عدوها غلطا كقوله: ماء عذب وماء مالح بدل ملح، وقوله: الطهور هو المطهر، ومع ان الطهور هو الطاهر علي سبيل المبالغة، وقوله: وليست الاذنان من الوجه فيغسلان بدلا فيغسلا، الي امثال ذلك، وهي في الحقيقة ليست اخطاء بل اجازها اللغويون والنحويون وعلي كل حال فليس يستطيع ان ينكر أحد مافي عبارة الشافعي من دقة وقوة وبلاغه·

وفي الكتاب تظهر قوة الشافعي في الجدل، فاسلوب الكتابة كله تقريبا اسلوب جدلي، حتي لنفترض مجادلا يجادله فيرد عليه· ثم يعترض فيجيب فان قال قائل كنا رددنا عليه بكذا " قال المتبايعان بالخيار مالم يتفرقا في الكلام قلت : فالذي ذهبت اليه محال، ولايجوز في اللسان· قال وما احالته وكيف يحتمله اللسان؟ قلت الخ " وهكذا يسير في كثير من المواضع علي هذا الحوار

السقراطي مماكان متأثرا فيه بنمط العراقين وحججهم واكثارهم من "أرايت ثم هو في الكتاب محدث يكثر من الاستدلالات بالحديث، وهو قياس كثير من استعمالات القياس. فيقول :"وبهذا نأخذ هو قول الأكثر من أهل الحجاز والأكثر من أهل الاثار بالبلدان "ويقول " وقتلنا في الكلب ما أمر به رسول الله [ص] وكان الخنزير ان لم يكن في شر من حالة لم يكن في خير منها فقتلنا به قياسا عليه " الي كثير من أمثال ذلك.

ثم هو متأثر بالمصرية احيانا فاذا أراد أن يمثل بصيغة لوقفية مثل لذلك بوقف بيت في الفسطاط من مصر ويتكلم في الطين الذي يعرف بالطين الارمني والطين الذي يقال له طين البحيرة وهما مما يدخلان في الادوية ويقارن بين الطين الارمني وطين رآه في الحجاز ويتكلم في القراطيس [وهي مصرية] ويبين متي يجوز ان تسلف ومتي لايجوز ويتكلم في شهادة الشعراء في مصر الي امثال ذلك.

وعلي الجملة فالكتاب ثروة كبيرة من حيث دلالته علي مناحي الشافعي في الاجتهاد، وعلي فقهه وعلي ماكان من اثر مصر في القول بالمذهب الجديد الخ.

وكان للشافعي اصحاب اخذوا عنه وتتلمذوا له، وحفظوا مذهبه ونشروه بعضهم في العراق وبعضهم في مصر، ومن اشهرهم في مصر البويطي والمزني والربيع المرادي فالبويطي هو يوسف بن يحيي، والبويطي نسبة الي بويط قرية من قري صعيد مصر، وكان أكبر اصحاب الشافعي واعلمهم وقد خلف الشافعي في رياسة حلقته، وكان في حياته يفتي علي مذهبه، وتتلمذ له كثيرون نشروا مذهب الشافعي، والف كتابه المختصر اختصر فيه كلام الشافعي· قال ابن عبد البر: " وكان ابن ابي الليث الحنفي قاضي مصر يحسده ويعاديه فأخرجه في وقت المحنة في القرآن فيمن اخرج من اهل مصر الي بغداد، ولم يخرج من اصحاب الشافعي غيره، وحمل الي بغداد وحبس فلم يجب الي مادعي اليه في القرآن، وقال هو كلام الله غير مخلوق، وحبس ومات في السجن يوم الجمعة قبل الصلاة سنة ٢٣١·

واما المزني فهو اسماعيل بن يحيي، كان اقدر اصحاب الشافعي علي المناظرة والجدل والغوص علي المعاني الدقيقة، وقد كان يخالف

الشافعي في بعض اقواله فيقول بعد أن يحكي كلام الشافعي في مسألة: "ليس هذا عندي بشئ" ويظهر انه امتحن في مسألة خلق القرآن فقال كلاما نجابه من الاضطهاد لشنع عليه اعداؤه من المصريين حتي قل الناس في حلقته، ثم مازال في نفوسهم منه وعظمت حلقته حتي اخذت اكثر الجامع، وهو اكثر من دون فقه الشافعي والف فيه الكتب الكثيرة، منها المختصر المطبوع علي هامش الام وانتشرت كتبه ومختصراته في الأقطار فخدمت مذهب الشافعي ومات سنة ٢٦٤هـ .

واما الربيع المرادي مولي قبيلة مراد، فكان مؤذنا بمسجد عمرو بالفسطاط وربما كان أبطأ تلاميذ الشافعي فهما، وقيل كانت فيه سلامة صدر وغفلة ولكنه ثقة صادق فيما يرويه، وحتي لو تعارضت روايته مع رواية المزني، فاصحاب الشافعي يقدمون روايته. وقد حمل عن الشافعي الكثير من علمه، والنسخة المطبوعة من الأم وروايته، مات سنة ٢٧٠هـ.

وعلي الجملة فقد كان البويطي افقه والمزني افصح وامهر وأذكي والمرادي أروي، ولكل فضل.

ومايلاحظ ان اصحاب الشافعي لم يكونوا يخالفونه كثيراً، ولماكان أصحاب ابي حنيفة يخالفونه. فالمسائل التي خالفت فيها اصحاب الشافعي امامهم تكاد تكون معدومة وكثير منها تخريج علي اصول ، وهذا بخلاف اصحاب ابي حنيفة فقد خالفه ابو يوسف ومحمد وزفر، في الاصول والفروع. وهذا يرجع - فيما أري - الي سببين : الأول ان مذهب ابي حنيفة لم يقيده ابو حنيفة، وانما قيده ورتبه اصحابه، وله العذر في ذلك فقد ازهر ابو حنيفة قبيل عصر التدوين، وكان السابق والمبكر في صبغ الفقه صبغته الجديدة، وترك لتلاميذه تدوينه، وهذا يجعل اصحابه في حل من المخالفة عند مقارنة المسائل بعضها ببعض، وتطبيقها علي الاصول والسبب الثاني ان مذهب ابي حنيفة - كما علمنا - أميل الي الرأي من مذهب الشافعي، والرأي يمنح اصحابه حرية لاتكون لاصحاب الحديث ومن نحا منحاهم ومن قرب منهم.

****

ويطول بنا القول علي هذا النمط في ترجمة اصحاب المذاهب الثلاثة عشر الذين عددناهم قبل ، ويحتاج ذلك الي كتاب مستقل، فنكتفي بهؤلاء الذين ذكرنا اذ كانوا يمثلون المناحي المختلفة في التشريع، ولكن لابأس من ان نلم الماماً خفيفا ببعض من كان لهم

اثر كبير او لون في مختلف في الفقه فمنهم

أحمد بن حنبل - وهو احمد بن محمد بن حنبل، عربي الاصل من شيبان واصله من مرو، ولد ونشأ ببغداد سنة ١٦٤ ورحل الي الكوفة والبصرة ومكة والمدينة والشام واليمن والجزيرة في جمع الحديث وقد صحب الشافعي واخذ عنه، والشافعية يعدونه شافعياً، ولكنه في الواقع يستقل عنه. وقد امتحن في مسألة خلق القرآن فضرب وحبس، وظل علي قوله بان القرآن غير مخلوق وصبر علي مالحقه من اذي، فكان ذلك ممازاد رفعه في نظر الناس، وكان ضربه وحبسه سنة ٢٢٠ في خلافة الواثق فلما جاء المتوكل افرج عنه ولما الغي القول بخلق القرآن كما سيجئ الكلام في هذه المسألة مفصلا ان شاء الله، وتوفي ببغداد سنة ٢٤١هـ .

ولاخلاف في عدة من كبار المحدثين، ولكن الخلاف في عدة من الفقهاء فابن جرير الطبري لم يعد مذهبه في الخلاف بين الفقهاء، وكان يقول انما هو رجل حديث لارجل فقه، وثارت عليه الحنابلة من اجل ذلك، ولم يذكره ابن قتيبة في كتابه المعارف بين الفقهاء، وذكره المقدسي في المحدثين لا في الفقهاء واقتصر ابن عبد البر في كتابه الانتقاء علي الائمة الثلاثة، ابي حنيفة ومالك

والشافعي وخالفهم في ذلك غيرهم وخاصة المتأخرين.

والواقع ان فقهه اكثر مايبني على الحديث، فاذا وجد حديثا صحيحا لم يلتفت الي غيره، واذا وجد فتوي من الصحابة عمل بها، واذا وجد فتاوي لهم تخير أقربها الي الكتاب والسنة، واحيانا يختلف الصحابة في المسألة علي قولين فيروي علي ابن حنبل في المسألة روايتان، واذا وجد حديثا مرسلا او ضعيفا رجحه علي القياس ولايستعمل القياس الا عند الضرورة القصوي، ويكره الفتوي في مسألة ليس فيها اثر ولم يضع ابن حنبل كتبا في الفقه علي نمط خاص به وكل ماروي له في الفقه مسائل سئل عنها فأفتي فيها، وانما رتب المذهب وبوبه ودونه واتباعه.

فان نحن نظرنا من ناحية النظريات القانونية ونظمها ورقيها وجدنا ابن حنبل اكبر اثرا في الحديث منه في الفقه.

وممن له لون خاص في التشريع داود بن علي الاصبهاني، المعروف بداود الظاهري، ولد بالكوفة نحو سنة ٢٠٠، ونشأ ببغداد وتوفي بها سنة ٢٧٠ درس مذهب الشافعي وتعصب له والف في مناقبه، ثم استقل بمذهب يعرف بمذهب الظاهرية وتبعه

كثير من الناس خصوصا في فارس والاندلس.

وموقفه في الفقه موقف النقيض من الحنفية، ينكر القياس، ويري ان في القرآن والحديث، وعموماتها مايكفي لبيان الأحكام، فهو يتمسك بظاهر الكتاب والسنة، ومن هنا اشتق اسم الظاهرية، ويري ان القول بالقياس تشريع عقلي والدين الهي، ولو كان الدين بالعقل لجرت احكام علي خلاف ماأتي به الكتاب والسنة، فوجب ان نتقيد بهما بل بظاهرهما ولانبيح القياس الا اذا ورد نص بتحريم او بتعليل وبين في علته، فحينئذ يجوز لنا ان نشرك في الحكم الاشياء التي لم ينص عليها ولكن لم تتحد في العلة، اما إذا لم ينص علي العلة فليس المجتهد ان يقول بها من عنده ثم يقيس عليها، فالله تعالي يقول: " وما اختلفتم فيه من شئ فحكمه الي الله" ولم يقل الي الرأي والقياس. وقد هاجم القياسيين وبين ما ألجأهم اليه القياس من خطأ في الاحكام، واداه هذا المنحي الي مخالفة المذاهب الاخري في كثير من المسائل.

وعلي الجملة فقد كان مجال التشريع عندهم اضيق من غيرهم، لأن اكبر منحي للاجتهاد هو القياس وقد انكروه

كذلك مما لايسعنا اغفاله ما للشيعة والخوارج من فقه وسنتكلم في فقههما عند الكلام في عقائدهما ان شاء الله.

******

وبعد، فنستطيع بعد هذا الاستعراض للتشريع ومناحيه المختلفة ان نسجل النتائج الاتية:

١- كان هذا العصر الذي نؤرخه اكثر عصور الاسلام نشاطا في التشريع واكثر عدداً من الفقهاء المجتهدين، كل ماكان فيه من وئام وخصام سبب صهر المسائل الفقهية، والجد في تحريرها وتصفيتها، وكان العلماء احرارا في مناحيهم ونزعاتهم واجتهادهم، لاتتدخل سلطة فيما بينهم من خصام ونزاع، ولاتحجر علي حريتهم في الاجتهاد والتفكير مادامو بعيدين عن مسائل الخلافة وما اليها، لهم ان يجتهدوا في غيرها ماشاءوا، ولهم ان يستنتجوا الاحكام من الكتاب والسنة أو القياس ماشاءوا لاتتعرض لمن وسع علي نفسه فاستعمل الرأي الي غاية مداه كما لاتتعارض لمن ضيق علي نفسه فالتزم الاحكام من الكتاب والسنة وحدهما ولم تلتزم الحكومة قانونا بعينه تفرضه علي الدولة كلها، ولامذهبا معينا تفرضه علي الأمصار

فرضاً، بل اختارت القضاة من مناح مختلفة في الاجتهاد وتركت لهم الحرية في الأحكام علي حسب اجتهادهم، فربما حكم في المسألة بحكمين مختلفين في مصريين مختلفين، بل ربما حكم بحكمين مختلفين في بلد واحد اذا كان لهما قاضيان، كما ذكر ابن المقفع، ولم تتدخل الحكومة في حسم الخلاف وتوحيد القضاء ولا في عاصمتها نفسها. أمامن عدا القضاة من الفقهاء المجتهدين فحريتهم في التشريع اظهر.

وكما كثر الفقهاء المشرعون وكثر اجتهادهم كثرت المسائل القانونية واحكام الجزئيات كثرة لايقاس بها ماكانت عليه قبل هذا العصر ففرعت الفروع وفرضت الفروض ووضع لها الاحكام، وعرضت كل العادات والتقاليد والعرف في الأمصار المختلفة من عراق وحجاز وشام ومصر علي الفقه وواجهها الفقهاء وشرعوا لها الاحكام، او اقروها علي ماهو عليه اذا لم تصطدم بنص، وتوسعوا في بابي الأجماع والقياس، حتي دخلت فيها العادات العرفية والشامية والمصرية واقرت علي ماهي عليه احيانا وعدلت اذا خالفت اصول الاسلام واصبحت جزءاً من الفقه الاسلامي.

ذلك بأنهم جعلوا العرف اساسا من اسس التشريع، واستندوا

في ذلك علي حديث " ماراه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن" وجاء في المبسوط "الثابت بالعرف كالثابت بالنص" وقسموا العرف الي قسمين: عرف عملي كتعارف قوم علي صرف النفضة باللفضة، وعرف قولي كتعارفهم علي اطلاق لفظ علي معني بحيث لايتبادر عند سماعه غيره، وكلا المعنيين اخذ به الفقهاء، فاجازوا كثيرا من المعاملات لجريان العرف بها وحملوا في كثير من الاحيان الفاظ الوقف والطلاق والايمان علي ماجري العرف في تفسيرها فدخل الفقه في هذا الباب كثير من العادات المستعملة من الامصار مثل ذلك الاستصناع وهو ان يقول شخص لرجل من اهل الصنائع اصنع له الشئ الفلاني، ويصفه بثمن قدره كذا فقد اجازه الحنفية لجريان لاعرف مع ورود النص في النهي عن بيع ماليس عند الانسان فخصصوا النص بالعرف، واجاز مشايخ بلخ ان يدفع الرجل للحائك غزلاً وعلي ان ينسجه بالثلث، وقال ان هذه اجازة صحيحة لتعامل اهل بلدهم بها " والتعامل حجة يترك به القياس ويخص به الاثر" الي كثير من امثال ذلك. وقد اشترطوا في المجتهد معرفة عادات الناس " لان كثيرا من الاحكام تخلف باختلاف الزمان" لتغيير العرف" ومن ذلك ماروي الكردري في المناقب ان محمد بن الحسن "كان يذهب الي الصباغين ويسأل عن معاملتهم ومايديرونها فيما بينهم " وكتب الفقه مملوءة بمسائل الخلاف بين الائمة مماكان سبب

اختلاف العرف في امصار الائمة او زمانهم وكل الذي اريد هنا ان من هذا الطريق - طريق العرف والعادات - دخل كثير من عادات الامم ودون في الفقه، وكان ائمة كل مصر يستعرضون ماعندهم من عادات فيعرضونها علي قواعد الاسلام فمالم يخالف منها نصا صريحا اجازوه بل احيانا يجيزونه. ويخصصون النص كما رأيت ومن امثلة ذلك ايضا اجازة بعضهم بيع ثمار البستان اذا كان بعضها قد خرج وبعضها لم يخرج، لأن العرف جري بذلك. وقال شمس الائمة "استحسن ذلك لتعامل الناس فانهم تعاملوا بيع ثمار الكرم بهذه الصفة ولهم في ذلك عادة ظاهرة وفي نزع الناس من عاداتهم حرج " مع ان هذا ايضا ينطبق علي انه بيع الانسان ماليس عنده وهو مانهي عنه لأن الثمار التي تتلاحق ليست موجودة كلها، فخصصوا النص ايضا بالعرف وافتوا فيما يدخل في المبيع تبعا ومالا يدخل بعرف كل بلد، فقالوا ان السلم المنفصل يدخل في بيع البيت في القاهرة لأن بيوتهم طبقات لاينتفع بها الا به، ولايدخل في البلاد التي بيوتها طبقة واحدة الخ.

وقد كان لكل امة عرف وعادات في بيعها وشرائها وفي لغتها، ودلالة الفاظها علي معانيها، وفي الزواج ومايكون جهازا ومالايكون، وفي الاراضي هل يدفع العشر المؤجر أو المستأجر الخ وكل هذه

العادات عرضت علي الأئمة فادخلوها في الفقه وكانت من اكبر مصادره، لأن كثيرا من عادات الامم لم تعرف في عهد النبي [ص] فلم يرد فيها نص من كتاب ولاسنة، ورجوع الناس عن عاداتهم التي جروا عليها اجيالا ليس بالامر الهين، لذلك اجاز الفقهاء الكثير منها واقروها وعدوها اسلامية، وكان هذا سببا من أسباب تضخم الفقه.

٢- كان المسلمون قبل هذا العصر، وفي اول هذا العصر لاينحازون الي مذاهب بل المسلم احد رجلين، اما عالم مجتهد فهو يدرس ويجتهد لنفسه في تعرف الاحكام، ويعلم ذلك لتلاميذه، واما عامي اوشبه عامي اذا عرضت له مسألة استفتي فيها من صادفه من المجتهدين كائنا من كان فيعمل بما يفتيه والمجتهدون كثيرون مختلفون فلما تقدم الزمن في العصر العباسي راينا المذاهب تتبلور ولكنها مع تبلورها كثيرة، واشتهر منها ثلاثة عشر مذهبا اويزيد

ورأينا الكتب توضع في كل مذهب ورأينا الناس ينحازون الي هذه المذاهب ثم رأينا بعض المذاهب يقدر لها الانقراض فيفني اصحابها، أو يقل اتباعها وبعضها يقدر له البقاء والنماء، حتي يصبح بعد

عصرنا هذا . والمذاهب أربعة فقط حنفي ومالكي وشافعي وحنبلي، هذا عدا الشيعة والخوارج، واذا بالناس ينحازون الي هذه المذاهب لا الي غيرها، وتنقسم البلاد هذه المذاهب فيسود كل قطر مذهب قطرا وتقل بجانبه المذاهب الاخري [كما سيأتي بيانه في حينه] واذا عرض لعامي امر استفتي فيه علماء مذهبه غالبا، وتعبد عليه في الصلاة والزكاة والصيام والحج، وسار الزواج والطلاق علي مذهب امامه.

٣- اذا تتبعنا ماكان بين مدرسة الرأي ومدرسة القياس، ونظرنا الي الفقهاء من حيث مقدار حريتهم في الرأي، وأردنا ان نضع لهم قائمة تبين درجتهم في ذلك، وجدنا أن اول القائمة طائفة رأت عدم العمل بالحديث، والاكتفاء بالقرآن، قالوا : لأنكم ترون الحديث عن رجل آخر، وليس احد الا وهو عرضه للخطأ أو النسيان، فلسنا نقبل منهم شيئا اذا كانت عرضة للوهم، ولانقبل الاكتاب الله الذي لايسع احد الشك في حرف منه وقد حكي الشافعي في الام عنهم انهم انقسموا قسمين، قسم قالوا : مالم يكن فيه كتاب الله فليس علي احد فيه فرض، وقسم قالوا : يقبل الحديث اذا كان فيه قرآن.

ومثل هؤلاء القوم يصح ان يوضعوا في أعلي قائمة الحرية اذا

كان مذهبهم ان نلتزم فقطما جاء في القرآن، أما ماعداه فنعمل فيه بالرأي والعدالة وهذا هو الأقرب من قولهم. كما يصبح أن يوضعوا في اسفل القائمة حتي بعد الظاهرية ان قالوا لانعمل الا بما ورد في كتاب الله. ومايؤسف له أنا لم نجد نصا صريحا يعين اتجاه مذهبهم فان كانوا قد ذهبوا الي الاتجاه الاول كانوا - من غير شك - اكثر الفقهاء حرية لانهم لايلتزمون الا ماورد في الكتاب من احكام اما ماعدا ذلك فهم احرار في استعمال الرأي فيه كما ان ممايؤسف له انا لانعلم لذلك زعيما دعي الي هذا الرأي ووضع له قواعده واصوله وفرع عليه، بل لم يسمي الشافعي في الام اسم من ذهب هذا المذهب .

يلي هؤلاء - ان كان مذهبهم كما فسرنا - مذهب ابي حنيفة، فقد قيد الحديث الذي يعمل به وضيق دائرته ووسع القياس ثم الشافعي فقد وسع الحديث وقلل دائرة القياس ثم مالك فلم يتوسع في القياس كما توسع الشافعي، ثم احمد بن حنبل فقد ابي استعمال القياس الا عند الضرورة القصوي، وفضل عليه الحديث الضعيف ثم داود الظاهري وقد انكر القياس الا مانص عليه فيه علي العلة .

والذي يستعرض هذه الاراء يري ان دائرة الحرية التي كان يسبح فيها مذهب ابي حنيفة اخذت في الضيق، حتي ان تلاميذه انفسهم كأبي يوسف ومحمد كانا من عوامل هذا التضييق، فقد أخذ

من مدرسة الحجاز حديثا كثيرا عدلا بمذهب ابي حنيفة وخالفا به شيخهما، ولئن اثر مذهب ابي حنيفة في المذاهب الأخري من ناحية الرأي والقياس، لقد كان تاثير مدرسة الحديث في مذهب ابي حنيفة أقوي وأكثر.

لو فكر مفكر في ذلك العصر ربما توقع غلبة مذهب ابي حنيفة وسيادته علي مذهب الحديث لتأييد الحكومة العباسية له بعض الشئ، ولغلبة مذهب الاعتزال نحو خمسين عاما ختمت ببدء خلافة المتوكل، ومذهب الاعتزال هو القائل بالتحسين والتقبيح العقليين، ولظهور الفلسفة في العراق وهي أدعي الي الحرية الفكرية. ولكن مع كل هذا كانت الغلبة في الفقه لمدرسة الحديث، والسبب في هذا - علي مايظهر - ان قوة المحدثين كانت اكبر وجمهور المسلمين كان لهم انصر، وان حركة الاعتزال وحركة الفلسفة كانتا حركتين ارستقراطيتين يعتنقها في الغالب استقراطيتين الشعب لاجمهوره، ولذلك هوجم القول بخلق القرآن الذي قال به المعتزلة هجوما عنيفا من الشعب. ورفع جمهور الناس الذين يقفون في واجهه ويتحرجون من القول به ويتحملون العذاب في سبيله الي درجة عليا الي ان قضي عليه. وكذلك هوجمت الفلسفة من الشعب، ولم ينفع كثيرا تأييد الحكومة العباسية مذهب ابي حنيفة بعض

الشيء، لان اكبر هذا التأييد مصدره وجود ابي يوسف علي راس القضاة، وابو يوسف نفسه كما رأينا كان من عوامل ادخال الحديث الكثير في فقه ابي حنيفة وتعديله. لهذا كله ضاقت دائرة الرأي والقياس واتسعت دائرة الحديث، يضاف الي ذلك ايضا ان المحدثين قد نشطوا نشاطا كثيرا في هذا العصر، فجمعوا الاحاديث المتفرقة في الامصار المختلفة صحيحها وضعيفها وكثير من هذه الاحاديث تتعلق بالاحكام فاضطر الفقهاء امام هذه الاحاديث وأمام قوة المحدثين ان يخضعوا انفسهم للحديث، ولهذا نري كتب الفقه حتي كتب الحنفية تستدل علي اكثر الاحكام بالحديث وان كان بعضها ضعيفا، وتري ان الفروق بين المدارس المختلفة قلت، فلم تعد بين تلاميذ أبي حنيفة والشافعي ومالك فروق كالتي كانت بين مالك ابي حنيفة انفسهما، حتي ليظن الظان لاول وهلة ان منحي التشريع عند الجميع واحد ولم يكن ذلك صحيحا عند تأسيس هذه المدارس، وانما أظهره بهذا المظهر شيء واحد: هو "غلبة رجال الحديث" [١]

(١) انظر، احمد امين، ضحى الاسلام ص١٥١-٢٤٢.

الملاحــــق

بغـــــداد

وانما ابتدات بالعراق لأنها وسط الدنيا وسرة الارض. وذكرت بغداد لانها وسط العراق والمدينة العظمي التي ليس لها نظير في مشارق الأرض ومغاربها سعة وكبرا وعمارة وكثرة مياة وصحة هواء لانه سكنها من اصناف الناس وأهل الامصار والكور وانتقل اليها من جميع البلدان القاصية والدانية وأثرها. جميع أهل الافاق علي اوطانهم فليس من اهل بلد الاولهم فيها محلة ومتجر ومتصرف. فاجتمع بها ماليس في مدينة في الدنيا ثم يجري في حافيتها النهران الأعظمان دجلة والفرات فيأتيها التجارات والميربرا وبحرا بايسر السعي حتي تكامل بها كل متجر يشمل من المشرق والمغرب من أرض الاسلام وغير ارض الاسلام فانه يحمل اليها من الهند والسند والصين والتبت والترك والديلم والخزر والحبشة وسائر البلدان حتي يكون بها من تجارات البلدان اكثر مما في تلك البلدان التي خرجت التجارات منها ويكون مع ذلك أوجد وامكن حتي كأنما سيقت اليها خيرات الأرض وجمعت فيها ذخائر الدنيا وتكاملت بركات العالم مع هذا مدينة بني هاشم ودار ملكهم ومحل سلطانهم لم يبدأ بها احد قبلهم ولم يسكنها ملوك سواهم ولان سلفي كانوا القائمين بها وأحدهم تولي امرها ولها الاسم المشهور والذكر الذائع ثم هي وسط الدنيا لانها علي ما اجمع عليه قول

الحساب وتضمنته كتب الأوائل من الحكماء في الاقليم الرابع وهو الاقليم الاوسط الذي يعتدل فيه الهواء في جميع الأزمان والفصول فيكون الحر بها شديدا في ايام القيظ والبرد شديدا في ايام الشتاء ويعتدل الفصلان الخريف والربيع في اوقاتهما ويكون دخول الخريف الي الشتاء غير متباين الهواء ودخول الربيع الي الصيف غير متباين الهواء وكذلك كل فصل ينتقل من هواء الي هواء ومن زمان الي زمان فلذلك اعتدل الهواء وطاب الثري وعذب الماء وزكت الاشجار وطابت الثمار واخصبت الزروع وكثرت الخيرات وقرب مستنبط معينها وباعتدال الهواء وطيب الثري وعذوبة الماء حسنت اخلاق اهلها ونضرت وجوهم وانفتقت اذهانهم حتي فضلوا الناس في العلم والفهم والادب والنظر والتمييز والتجارات والصناعات والمكاسب والحذق بكل مناظرة واحكام كل مهنة واتقان كل صناعة فليس أعلم من عالمهم ولا أروي من راويتهم ولاأجدل من متكلمهم، ولاأعرب من لغويتهم ولاأصح من قارئهم ولا أمهر من متطببهم ولاأحذق من مغنيهم ولاالطف من صانعهم ولااكتب من كاتبهم ولا ابين من منطقهم ولااعبد من عابدهم ولااورع من زاهدهم ولاافقه من حاكمهم ولااخطب من خطيبهم ولااشعر من شاعرهم ولاافتك من ماجنهم ولم تكن بغداد مدينة في الايام المتقدمة اعني ايام كاسرة والاعاجم وانما كانت قرية من قري طسوج بأوربا وذلك أن مدين الاكاسرة التي أن مدينة الاكاسرة التي خاروها من مدن العراق

المدائن وشي من بغداد علي سبعة فراسخ وبها ايوان كسري انوشروان ولم يكن ببغداد الادير علي موضع مصب الصراه الي دجلة الذي يقال له قرن الصراة وهو الدير الذي يسمي الدير العتيق قائم بحاله الي هذا الوقت نزله الجاثليق رئيس النصاري النسطورية ولم تكن ايضا بغداد في ايام العرب لما جاء الاسلام لان العرب اختطت البصرة والكوفة فاختطت الكوفة سعد بن ابي وقاص الزهري في سنة سبع عشرة وهو عامل عمر بن الخطاب واختط البصرة عبتة بن غزوان المازني مازن قيس في سنة سبع عشرة وهوى يومئذ عامل عمر بن الخطاب فاختط العرب في هاتين المدينتن خططها الا أن القوم جميعا قد انتقل وجوهم وجلتهم ومياسيرتجارهم الي بغداد ولم ينزل بنو امية العراق لانهم كانوا نزولا بالشام وكان معاوية بن ابي سفيان عامل الشام لعمر بن الخطاب لعثمان بن عفان عشرين سنة وكان ينزل مدينة دمشق واهله معه فلما غلب علي الامر وصار اليه السلطان جعل منزله وداره دمشق اذ بها كان سلطانه وانصاره وشيعته ثم نزل بها ملوك بني أمية بعد معاوية لانهم بها نشئوا لايعرفون غيرها ولايميل اليهم الا اهلها فلما افضت لخلافة الي بني عم رسول الله صلي الله عليه وسلم وآله من ولد العباس بن عبد المطلب عرفوا بحسن تمييزهم وصحة عقولهم وكمال ارائهم فضل العراق وجلالتها وسعتها ووسطها للدنيا وانها ليست كالشام الوبية الهواء، الضيقة المنازل الحزنة الارض المتصلة الطواعين الجافية

الاهل ولاكمصر المتغيرة الهواء الكثيرة الوباء التي انما بين بحر رطب كثير البخارات الردية التي تولد الأدواء وتفسد الغذا وبين الجبل اليابس الصلد الذي لبيسه وملوحته وفساده ينبت فيه خضر ولاينفجر منه عين ماء ولاكافريقية البعيدة عن جزيرة الاسلام وعن بيت الله الحرام الحامية الاهل النائية البادرة الصردة الحزنة اذ يحيط بها الاعداء ولامثل كور الجبل الحزنة الخشنة المثلجة دار الاكراد الغليظي الاكباد ولاكارض خراسان الطاعنة في مشرق الشمس اذ يحيط بها من جميع اطرافها عد وكلب ومحارب حرب ولاكالحجاز النكدة المعاش الضيقة المكسب اذ قوت أهلها من غيرها وقد أخبانا الله عزو وجل في كتابه ابراهيم خليلة عليه السلام فقال رب اني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع ولاكالتبت التي بفساد هوائها وغذائها تغيرت الوان اهلها وصغرت ابدانهم وتحققت شعورهم، فلما علموا انها افضل البلدان نزلوها مختارين لها فنزل ابو العباس امير المؤمنين وهو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الكوفة أول مرة ثم انتقل الي الانبار فبني مدينة علي شاطئ الفرات وسماها" الهاشمية" وتوفي ابو العباس رضه قبل ان يستتم المدينة فلما ولي ابوجعفر المنصور الخلافة وهو ايضا عبد الله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبد المطلب بني مدينة بين الكوفة والحيرة سماها الهاشمية وأقام بها مدة الي ان عزم علي توجيه ابنه محمدالمهدي لغزو الصقالبة في

سنة أربعين ومائة فصار الي بغداد فوقف بها وقال ما اسم هذا الموضع قيل له بغداد قل هذه والله المدينة اذا اعلمني ابي محمد بن علي اني ابنيها وانزلها وينزلها ولدي من بعدي ولقد غفلت عنها الملوك في الجاهلية والاسلام حتي يتم تدبير الله ولي وحكمه في وتصح الروايات وتبين الدلائل والعلامات والا فجزيرة بين دجلة والفرات دجلة شرقيها والفرات غربيها مشرعة للدنيا كل مايأتي في دجلة من واسط والبصرة والابلة والاهواز وفارس وعمان واليمامة والبحرين ومايتصل بذلك فاليها ترقي وبها ترسي وكذلك مايأتي من الموصل وديار ربيعة واذربيجان وارمينية مما يحمل في السفن في دجلة ومايأتي من ديار مصر والرقة والشام والثغور ومصر والمغرب مما يحمل في السفن في الفرات فيها يحتط وينزل ومدرجة أهل الجبل واصبهان وكورخراسان فالحمد لله الذي ذخرها لي وأغفل عنها كل من تقدمني والله لابنينها ثم اسكنها ايام حياتي ويسكنها ولدي من بعدي ثم لتكونن اعمر مدينة في الارض ثم لابنين بعدها أربع مدن لامخرب واحدةمنهن ابدا، فبناها وهي الرافقة ولم يسمها فبني ملطية وبني المصيصة وبني المنصورة بالسند ثم وجه في احتشار المهندسين وأهل المعرفة بالبناء والعلم بالذرع والمساحة وقسمة الارضين حتي اختط مدينته المعروفة بمدينة ابي جعفر واحضر البنائين والفعلة والصناع من النجارين والحدادين والحفارين فلما اجتمعوا وتكاملوا جري عليهم الارزاق وقام لهم الاجرة وكتب

الي كل بلد في عمل من فيه ممن يفهم شيئا الينا فحضره مائة الف من أصناف المهن والصناعات خبر بهذا جماعة من المشايخ. ان ابا جعفر المنصور لم يبتد البناء حتي تكامل له من الفعلة وأهل المهن مائة الف ثم اختطها في شهر ربيع الأول سنة احدي واربعين ومائة وجعلها مدورة ولاتعرف في جميع اقطار الدنيا مدينة مدورة غيرها ووضع أساس المدينة في وقت اختاره نوبخت المنجم وماشاء الله بن سارية وقبل وضع الاساس وماضرب اللبن العظام وكأن في اللبنة التامة المربعة ذراع في ذراع وزنها مائتا رطل واللبنة المنصفة طولها ذراع وعرضها نصف ذراع ووزنها مائة رطل وحفرت الآبار للماء وعملت القناة التي تأخذ من نهر كرخايا وهو النهر الآخذ من الفرات فاتقنت القناة واجريت الي داخل المدينة للشرب ولضرب اللبن وبل الطين وجعل للمدينة اربعة أبواب باب سماه باب الكوفة وباب سماه باب البصرة وباب سماه باب خراسان وبابا سماه باب الشام وبين كل بابا منها الي الاخر خمسة الاف ذراع بالذراع السوداء من خارج الخندق وعلي كل باب منها باب حديد عظيمان جليلان ولايغلق الباب الواحد منها ولا يفتحه الاجماعة رجال يدخل الفارس بالعلم والرامح بالرمح الطويل من غير ان يميل العلم ولايثني الرمح وجعل سورها باللبن العظام اذ لم ير مثلها قط علي ماوصفنا من مقدارها والطين وجعل عرض اساس السور تسعين ذارعا بالسوداء ثم ينحط حتي يصير في اعلاه علي خمس

وعشرين ذراعا وارتفاعه ستون ذراعا مع الشرافات وحول السور فصيل جليل عظيم بين حائط السور وحائط الفصيل مائة ذراع بالسوداء والفصيل ابرجة عظام وعليه الشرافات المدورة وخارج الفصيل كمايدور مسناه بالآجر والصاروج متقنة محكمة عالية والخندق بعد المسناه قد أجري فيه الماء من القناة اذ تأخذ من نهر كرخايا وخلف الخندق الشوارع العظماء وجعل لابواب المدينة اربعة دهاليز عظاما ازاجا، كلها طول كل دهليز ثمنون ذراعا كلها معقودا بالآجر والجص فاذا دخل من الدهليز الذي علي الفصيل وافي رحبة مفروشة بالحصر ثم دهليز علي السور الاعظم عليه بابا حديد جليلان عظيمان لايغلق كل باب ولايفتحه الاجماعة رجال والابواب الاربعة كلها علي ذلك فاذا دخل من دهليز السور الاعظم سار في رحبة الي طاقات معقودة بالآجر والجص فيها كواء رومية يدخل منها الشمس والضوء ولايدخل منها المطر وفيها منازل الغلمان ولكل باب من الابواب الاربعة طاقات وعلي كل باب من ابواب المدينة التي علي السور الاعظم قبة معقودة عظيمة مذهبة وحولها مجالس ومرتفقات يجلس فيها فيشرف علي كل مايعمل به يصعد الي هذه القباب علي عقود مبنية بعضها بالجص والآجر وبعضها باللبن العظام قد عملت ازاجا بعضها اعلي من بعض فداخل الازاج للرابطة والحرس وظهورها عليها المصعد الي القباب التي علي الابواب علي الدواب وعلي المصعد أبواب تغلق فاذا خرج الخارج من الطاقات خرج

الي رحبة ثم الي دهليز عظيم ازج معقود بالاجر والجص عليه بابا حديد يخرج من الباب الي الرحبة العظمي وكذلك الطاقات الاربعة علي مثال واحد وفي ربط الرحبة القصر الذي سمي بابه باب الذهب والي جنب القصر المسجد الجامع وليس حول القصر بناء ولادار ولامسكن لاحد الا دار من ناحية باب الشام للحرس وسقيفة كبيرة ممتدة علي عمد مبينة بالاجر والجص يجلس في احداهما صاحب الشرطة وفي الاخري صاحب الحرس وهي اليوم يصلي فيها الناس وحول الرحبة كما تدور منازل اولاد المنصور الاصاغر ومن يقرب من خدمته ومن عبيده وبيت المال وخزانة السلاح وديوان الرسائل وديوان الخراج وديوان الخاتم وديوان الجند وديوان الحوائج وديوان الاحشام ومطبخ العامة وديوان النفقات من الطاقات الي الطاقات السكك والدروب تعرف بقواده ومواليه وبسكان كل سكة فمن باب البصرة الي باب الكوفة سكة الشرط وسكة الهيثم وسكة المطبق وفيها الحسين الاعظم الذي يسمي المطبق وثيق البناء محكم السور وسكة النساء وسكة سرجس وسكة الحسنى وسكة عطية وسكة مجاشع وسكة العباس وسكة غزوان، وسكة ابي حنيفة والسكة الضيقة ومن باب البصرة الي باب خراسان سكة الحرس وسكة وسكة النعيمية وسكة سليمان وسكة الربيع وسكة مهلهل، وسكة شيخ بن عميرة وسكة المروروزية وسكة واضح وسكة السقائين وسكة ابن بريهة بن عيسي بن المنصور وسكة ابي احمد والدرب

الضيق ومن باب الكوفة الي باب الشام سكة العكي وسكة ابي قرة
وسكة عبدوية وسكة العلاء وسكة نافع وسكة اسلم وسكة منارة
ومن باب الشام الي باب خراسان سكة الموذنين وسكة دارم وسكة
اسرايل وسكة تعرف في هذا الوقت بالقواريري قد ذهب علي
اسم صاحبها وسكة الحكم بن يوسف وسكة سماعة وسكة صاعد
مولي ابي جعفر وسكة تعرف اليوم بالزيادي وقد ذهب عني اسم
صاحبها وسكة غزوان هذه السكك بين الطاقات والطاقات داخل
المدينة وداخل السور، وفي كل سكة من هذه السكك جلة القواد
الموثوق بهم في النزول معه وجله مواليه ومن يحتاج اليه في الامر
المهم وعلي كل سكة من طرفيها الابواب الوثيقة ولاتتصل سكة
منها بسور الرحبة التي فيها دار الخلافة لان حوالي سور
الرحبة كما تدور الطريق، وكان الذين هندسوها عبد الله بن محرز
والحجاج بن يوسف وعمران بن الوضاح وشهاب بن كثير بحضرة
نوبخت وابراهيم بن محمد الفزاري والطبري المنجمين اصحاب الحساب
وقسم الارباض اربعة ارباع وقلد القيام بكل ربع رجلا من
المهندسين واعطي اصحاب كل ربع مبلغ مايصير لصاحب كل قطيعة
من الذرع ومبلغ ذرع ماالعمل الاسواق في ربض ربض فقلد الربع من
باب الكوفة الي باب البصرة وباب المحول والكرخ وما اتصل بذلك
كله المسيب بن زهير والربيع مولاه وعمران بن الوضاح المهندس
والربع من باب الكوفة الي باب الشام وشارع طريق الانبار الي حد
ربض حرب بن عبد الله سليمان بن مجالد وواضحا مولاة وعبد الله

بن محرز المهندس والربع من باب الشام الي ربض حرب وماتصل بربض حرب وشارع باب الشام وماتصل بذلك الي الجسر علي منتهي دجلة حرب بن عبد الله وغزوان مولاة والحجاج بن يوسف المهندس ومن باب خراسان الي الجسر الذي علي دجلة ماذا في الشارع علي دجلة الي البغيين وباب قطربل هشام بن عمرو التغلبي وعمارة بن حمزة وشهاب بن كثير المهندس ووقع الي كل اصحاب ربع مايصير لكل رجل من اللرع ولمن معه من اصحابه وماقدره للحوانيت والاسواق في كل ربض وامرهم أن يوسعوالي الحوانيت ليكون في كل ربض سوق جامعة تجمع التجارات وأن يجعلوا في كل ربض من السكك والدروب النافذة وغير النافذة مايعتدل بها المنازل وان يسموا كل درب باسم القائد النازل فيه او الرجل النبيه الذين ينزله اواهل البلد الذي يسكنونه و حد لهم ان يجعلوا عرض الشوارع خمسين ذراعا بالسوداء والدروب ست عشرة ذراعا وان يبتنوا في جميع الارباض والاسواق والدروب من المساجد والحمامات مايكتفي بها من في كل ناحية ومحله وامرهم جميعا ان يجعلوا من قطائع القواد والجند ذرعا معلوما للتجار يبنونه وينزلونه ولسوقه الناس واهل البلدان وكان اول من أقطع خارج المدينة من اهل بيته عبد الوهاب بن ابراهيم ابن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بازاء باب الكوفة علي الصراة السفلي التي تأخذ من الفرات فريضة يعرف بسويقة عبد الوهاب وقصره هناك قد خرب وبلغني ان السويقة ايضا قد خربت واقطع العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن

العباس بن عبد المطلب الجزيرة التي بين الصراطين فجعلها العباس بستانا ومزدرعا وهي العباسية المذكورة والمشهورة التي لاتنقطع غلاتها في صيف ولاشتاء ولافي وقت من الاوقات واستقطع العباس لنفسه لماجعل الجزيرة بستانا في الجانب الشرقي وفي اخر العباسية تجتمع الصراتان والرحا العظمي التي يقال لها رحا البطريق وكانت مائة حجر تغل في كل سنة مائة الف الف درهم هندسها بطريق قدم عليه من ملك الروم فنسبت اليه واقطع الشروية وهم موالي محمد بن علي بن عبد الله بن العباس دون سويقه عبد الوهاب ممايلي باب الكوفة وكانوا بوابية رئيسهم حسن الشروي واقطع المهاجر بن عمرو صاحب ديوان الصدقات في الرحبة التي تجاه باب الكوفة فهناك ديوان الصدقات وبازائه قطيعة ياسين صاحب النجائب وخان النجائب ودون خان النجائب اصطبل الموالي واقطع المسيب بن زهير الضبي صاحب الشرطة يمنة باب الكوفة الداخل الي المدينة ممايلي باب البصرة فهناك دار المسيب ومسجد المسيب ذو المنارة الطويلة واقطع ازهر بن زهير اخا المسيب في ظهر قطيعة المسيب ممايلي القبلة وهو علي الصراة وهناك دار ازهر وبستان ازهر الي هذه الغاية ويتصل بقطيعة المسيب واهل بيته قطيعة ابي العنبر مولي المنصور ممايلي القبلةوعلي الصراة قطيعة الصحابة وكانوا من سائر قبائل العرب من قريش والانصار وربيعة ومضر ويمن وهناك دار عياش المنتوف وغيره ثم قطيعة يقطين بن موسي احد رجال الدولة واصحاب الدعوة ثم تعبر الصراة العظمي اجتمعت فيها

الصراتان الصراة العليا والصراة السفلي وعليها القنطرة المعقودة بالجس والآجر المتحكمة الوثيقة التي يقال لها القنطرة العتيقة لانها أول شئ بناه وتقدم في احكامه فتعرج من القنطرة ذات اليمين الي القبلة الي قطيعة اسحاق بن عيسي بن علي وقصوره ودوره شارعه علي الصراط العظمي من الجانب الشرقي والطريق الاعظم بين الدور والصراة ومن قطيعة عيسي بن علي الي قطيعة ابي السري الشامي مولي المنصور، ثم الطاق المعقود عليه الباب المعروف بباب المحول فتصير منه الي ربض حميد بن قحطبة الطائي وربض حميد شارع علي الصراة العليا وهناك دار حميد واصحابه وجماعة من ال قحطبة بن شبيب ثم يتصل ذلك بقطيعة الفراشين وتعرف بدار الروميين وتشرع علي نهر كرخايا ثم تعود الي الشارع الاعظم وهو شارع باب المحول وفيه سوق عظيمة فيها اصناف التجارات ثم يتصل ذلك بالحوض العتيق وهناك منازل الفرس اصحاب الشاه ثم يستمر المسير الي الموضع المعروف بالكناسة فهناك مرابط دواب العامة ومواضع نخاسي الدواب ثم المقبرة القديمة المعروفة بالكناسة مادة الي نهر عيسي بن علي الذي يأخذ من الفرات والدباغين وبازاء قطيعة الروميين علي نهر كرخايا الذي عليه القنطرة المعروفة بالروميين دار كعيوية البستانيان الذي غرس النخل ببغداد ثم بساتين متصلة غرسها كعيوبة البصري الي الموضع المعروف ببراثا ثم رجعنا الي القنطرة العتيقة فقبل ان تعبر القنطرة مشرقا الي ربض ابي الورد كوثر بن اليمان خازن

بيت المال وسوق فيها سائر البياعات تعرف بسويقة ابي الورد الي باب الكرخ وفي ظهر قطيعة ابي الورد كوثر بن اليمان قطيعة حبيب بن رغبان الحمصي وهناك مسجد ابن رغبان ومسجد الانبار بين كتاب ديوان الخراج، وقبل ان تعبر الي القنطرة العتيقة وانه مقبل من باب الكوفة في الشارع الأعظم قطيعة سليم، مولي امير المؤمنين صاحب ديوان الخراج وقطيعة ايوب عيسي الشردي ثم قطيعة رباوة الكرماني واصحابه وتنتهي الي باب المدينة المعروف بباب البصرة وهو مشرف علي الصراة ودجلة وبازائه القنطرة الجديدة لانها اخر مابني من القناطر وعليها سوق كبيرة فيها سائر التجارات مادة متصلة ثم ربض وضاح ومولي امير المؤمنين المعروف بقصر وضاح صاحب خزانة السلاح واسواق وهناك واكثر من فيه في هذا الوقت الوراقون اصحاب الكتب فإنه به اكثر من مائة حانوت للوراقين ثم الي قطيعة عمرو بن سمعان الحراني وهناك طاق الحراني ثم الشرقية وانما سميت الشرقية لانها قدرت مدينة للمهدي قبل ان يعزم علي أن يكون نزول المهدي في الجانب الشرقي من دجلة فسميت الشرقية وبها المسجد الكبير وكان يجمع فيه يوم الجمعة وفيه منبر وهو المسجد الذي يجلس فيه قاضي الشرقية ثم اخرج المنبر منه، وتنعرج من الشرقية مارا الي قطيعة جعفر بن المنصور علي شط دجلة وبها دار عيسي بن جعفر وتقرب منها دار جعفر بن جعفر بن المنصور ثم تخرج من هذه الطرق الاربعة التي ذكرنا الي شارع باب الكرخ فلولها عند باب النخلين قطيعة

سويدة مولي المنصور ورحبة سويد في ظهر النخاسين ثم الاسواق مادة في جانبي الشارع وتتدرج من باب الكرخ ميتامنا الي قطيعة الربيع مولي امير المؤمنين التي فيها التجار تجار خراسان من البرازين واصناف مايحمل من خراسان من الثياب لايختلط بهاشئ وهناك النهر الذي ياخذ من نهر كرخايا عليه منازل التجار يقال له نهر الدجاج لانه كان يباع عليه الدجاج في ذلك الوقت وفي ظهر قطيعة الربيع منازل التجار واخلاط الناس من كل بلد يعرف كل درب باهله وكل سكة بمن ينزلها والكرخ للسوق العظمي مادة من \قصر وضاح الي سوق الثلثاء طولا بمقدار فرسخين ومن قطيعة الربيع الي دجلة عرضا مقدار فرسخ فلكل تجار وتجارة شوارع معلومة وصفوف في تلك الشوارع وحوانيت وعراص وليس يختلط قوم بقوم ولاتجارة بتجارة ولايباع صنف مع غير صنفه ولايختلط اصحاب المهن من سائر الصناعات بغيرهم وكل سوق مفردة وكل اهل منفردون بتجارتهم وكل أهل مهنة معتزلون عن غير طبقتهم وبين هذه الارباض التي ذكرنا والقطائع التي وصفنا منازل الناس من العرب والجند والدهاقين والتجار وغير ذلك من أخلاط الناس ينتسب اليهم الدروب والسكك فهذا ربع من ارباع بغداد وهو الربع الكبير الذي تولاه المسيب بن زهير والربيع مولي امير المؤمنين وعمران بن الوضاح المهندسين وليس ببغداد ربع اكبر ولااجل منه ومن باب الكوفة الي باب الشام ربض سليمان بن مجالد لانه كان يتولي هذا الربع فنسب اليه وفيه قطيعة واضح، ثم قطيعة عامر بن اسماعيل

المسلي ثم ربض الحسن بن قحطبة ومنازله ومنازل اهله شارعة في الدرب المعروف بالحسن ثم ربض الخوارزمية، اصحاب الحارث بن رقاد الخوارزمي وقطيعة الحارث في الدرب ثم قطيعة مولي امير المؤمنين وصاحب الركاب وهي الدار التي صارت لاسحاق بن عيسي بن علي الهاشمي ثم اشتراها كاتب لمحمدبن عبد الله بن طاهر يقال له طاهر بن الحارث ثم ربض الخليل بن هاشم البارودي ثم ربض الخطاب بن نافع القلحاوي ثم قطيعة هاشم بن معروف وهي في درب الاقفاص ثم قطيعة الحسن بن جعفرات وهي في درب الاقفاص ايضا متصل بدرب القصارين ومن شارع طريق الانبار فاول القطائع قطيعة واضح مولي امير المؤمنين وولده ودرب ايوب بن المغيرة الفزازي بالكوفة والدرب يعرف بدرب الكوفيين ثم قطيعة سلامة بن سمعان البخاري واصحابه ومسجد البخارية والمنارة الخضراء فيه، ثم قطيعة اللجلاج المتطبب ثم قطيعة عرف بن نزار اليماني ودرب اليمامية النافذ الي دار سليمان بن مجالد وقطيعة الفضل ابن جعونة الرازي وهي التي صارت لداود بن سليمان الكاتب كاتب ام جعفر المعروف بداود النبطي ثم السيب ودار هبيرة بن عمرو وعلي السيب قطيعة صالح البلدي في درب صياح النافذ الي سويقة عبد الوهاب وقطيعة قابوس بن السميدع وبازائه قطيعة خالد بن الوليد التي صارت لابي صالح يحيي بن عبد الرحمن الكاتب صاحب ديوان الخراج في ايام الرشيد فتعرف بدور ابي صالح ثم قطيعة شعبة بن يزيد الكابلي ثم ربض القس مولي المنصور وبستان القس المعروف به ثم ربض

الهيثم بن معوية ويعرف بشار سوق الهيثم وهناك سوق كبيرة متصلة ومنازل ودروب وسكك كله ينسب الي شارسوق الهيثم ثم قطيعة المروروذية ال أبي خلد الانباري ثم ربض ابي يزيد الشروي مولي محمد بن علي واصحابه ثم قطيعة موسي ابن كعب التميمي وقد ولي شرطة المنصور ثم قطيعة بشر بن ميمون ومنازله ثم قطيعة سعيد بن دعليج التميمي ثم قطيعة الشخير وزكريا بن الشخير، ثم ربض ابي ايوب سليمان المعروف بابي ايوب الخوزي المورياني وموريان قرية من كورس الاهواز يقال لها مناذر ثم قطيعة رداد بن راذان المعروفة بالردادية ثم المعدادار ثم حد ربض حرب ودونه الرملية وهذا الربع الذي تولاه سليمان بن مجالد وواضح موالي امير المؤمنين والمهندسين عمران بن الوضاح والربع من باب الشام فاول ذلك قطيعة الفضل بن سليمان الطوسي والي جنبه السجن المعروف بسجن باب الشام والاسواق المعروفة بسوق باب الشام وهي سوق عظيمة فيها جميع التجارات والبياعات ممتدة ذات اليمين وذات الشمال اهلة عامرة الشوارع والدروب والعراص وتمتد في شارع عظيم فيه الدروب الطوال كل درب ينسب الي اهل بلد من البلدان ينزلونه في جنبته جميعا الي ربض حرب بن عبد الله البلخي وليس ببغداد ربض اوسع ولااكبر ولااكثر دروبا وأسواقا، في الحال منه وأهله واهل بلخ واهل مرو واهل التحتل وأهل بخارا وأهل اسبيشاب وأهل اشتاخنج واهل كابل شاه واهل خوارزم ولكل أهل مرو بلد قائد ورئيس وقطيعة الحكم بن يوسف البلخي صاحب

الحراب وقد كان ولي الشرطة ومن باب الشام فى الشارع الاعظم الماد الي الجسر الذي علي دجلة سوق ذات اليمين وذات الشمال ثم ربض يعرف بدار الرقيق كان فيه رقيق ابي جعفر الذين يباعون من الافاق وكانوا مضمومين الي الربيع مولاه ثم ربض الكرمانية والقائد بوزان بن خلد الكرماني ثم قطيعة الصغد ودار خرفاش الصغدي، ثم قطيعة ماهان الصامغاني واصحابه ثم قطيعة مرزبان ابي اسد بن مرزبان الفاريابي واصحابه اصحاب العمد ثم تنتهي الي الجسر فهذا الربع الذي تولاه حرب بن عبد الله مولي امير المؤمنين والمهندس والحجاج بن يوسف والربع من باب خراسان الي الجسر علي دجلة ومابعد ذلك بازائها الخلد وكان فيه الاصطبلات وموضع العرض وقصر يشرع علي دجلة لم يزل ابو جعفر ينزله وكان فيه المهدي قبل ان ينتقل الي قصره بالرصافة الذي بالجانب الشرقي من دجلة فاذا جاوز موضع الجسر فالجسر ومجلس الشرطة ودار صناعة للجسر فاذا جاوزت ذلك فاول القطائع قطيعة سليمان بن ابي جعفر في الشارع الاعظم علي دجلة وفي درب يعرف بدرب سليمان والي جنب قطيعة سليمان في الشارع الاعظم قطيعة صالح بن امير المؤمنين المنصور وهو صالح المسكين مادة الي دار نجيح مولي المنصور التي صارت لعبد الله بن طاهر واخر قطيعة صالح قطيعة عبد الملك بن يزيد الجرجاني المعروف بابي عون واصحابه الجرجانية ثم قطيعة تميم الباذغيسي متصلة بقطيعة ابي عون ثم قطيعة عباد الفرغاني واصحابه الفراعنة ثم قطيعة عيسي بن نجيح المعروف بابن

روضة وغلمان الحجابة ثم قطيعة الافارقة ثم قطيعة تمام الديلمي مما يلي قنطرة التبانين وقطيعة حنبل بن مالك ثم قطيعة البغيين اصحاب حفص بن عثمان ودار حفص هي التي صارت لاسحاق بن ابراهيم ثم السوق علي دجلة في الفرضة ثم قطيعة لجعفر ابن امير المؤمنين المنصور صارت لأم جعفر ناحية- باب قطربل وتعرف بقطيعة ام جعفر، ومما يلي القبلة قطيعة مرار العجلي وقطيعة عبد الجبار بن عبد الرحمن الازدي وقد كان يلي الشرطة ثم عزله وولاه خراسان فعصي هناك فوجه اليه المهدي في الجيوش فحاربه حتي ظفر به فحمله الي ابي جعفر فضرب عنقه وصلبه وفي هذه الارباض والقطائع مالم نذكره لان كافة الناس بنوا القطائع وغير القطائع وتوارثوا واحصيت الدروب والسكك فكانت ستة الاف درب وسكة واحصيت المساجد فكانت ثلثين الف مسجد سوي مازاد بعد ذلك واحصيت الحمامات فكانت عشرة الاف حمام سوي مازاد بعد ذلك وجر القناة التي تأخذ من نهر كرخايا الاخذ من الفرات في عقود وثيقة من اسفلها محكمة بالصاروج والاجر من اعلاها معقودة عقدا وثيقا فتدخل المدينة وتنفذ في اكثر شوارع الارباض تجري صيفا وشتاء قد هندست هندسة لاينقطع لها ماء في وقت وقناة اخري من دجلة علي هذا المثال وسماها دجيل وجر لاهل الكرخ وما اتصل به نهرا يقال له نهر الدجاج وانما سمي نهر الدجاج لان اصحاب الدجاج كانوا يقفون عنده ونهراه يسمي نهر طابق بن الصمية ولهم نهر عيسي الاعظم الذي يأخذ من معظم الفرات تدخل فيه السفن

العظام التي تأتي من الرقة ويحمل فيها الدقيق والتجارات من الشام ومصر تصير الي فرضه عليها الاسواق وحوانيت التجار لا تنقطع في وقت من الاوقات فالماء لاينقطع ولهم الابار التي يدخلها الماء من هذه القنوات فهي علبة شرب القوم جميعا منها وانما أحتيج الي هذه القنوات لكبر البلد وسعته والانهر بين دجلة والفرات من جميع النواحي تدفق عليهم المياه حتي غرسوا النخل الذي حمل من البصرة فصار ببغداد اكثر منه بالبصرة والكوفة والسواد وغرسوا الاشجار واثمرت الثمر العجيب وكثرت البساتين والاجنة في ارباض بغداد من كل ناحية لكثرة المياه وطيبها وعمل فيها كل مايعمل في بلد من البلدان لان حذاق اهل الصناعات انتقلوا اليها من كل بلد واتوها ممنكل افق ونزعوا اليها من الاداني والاقصي فهذا الجانب الغربي من بغداد وهو جانب المدينة وجانب الكرخ وجانب الارباض في كل طرف منه مقبرة وقري متصلة وعمارات مادة ٠

والجانب الشرقي من بغداد نزله المهدي بن المنصور وهو ولي عهد ابيه وابتدا بناءه في سنة ثلث واربعين ومائة فاختط المهدي قصره بالرصافة الي جانب المسجد الجامع الذي في الرصافة وحفر نهرا يأخذ من النهروان سماه نهر المهدي يجري في الجانب الشرقي واقطع المنصور اخوته وقواده بعد مااقطع من بالجانب الغربي وهو جانب مدينته وسمت القطائع في هذا الجانب وهو يعرف بمعسكر المهدي كماقسمت في جانب المدينة وتنافس الناس في النزول علي

المهدي لمحبتهم له ولاتساعه عليهم بالأموال والعطايا ولأنه كان اوسع الجانبين ارضا لأن الناس سبقوا الي الجانب الغربي وهو جزيرة بين دجلة والفرات فبنوا فيه وصار فيه الأسواق والتجارات فلما ابتدئ البناء في الجانب الشرقي امتنع علي من اراد سعة البناء فأول القطائع علي راس الجسر لخزيمة بن خازم التميمي وكان علي شرطة المهدي ثم قطيعة اسمعيل بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ثم قطيعة العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب لانه جعل قطيعتة في الجانب الغربي بستانا، ثم قطيعة السري بن عبد الله بن الحرث بن العباس بن عبد لمطلب ثم قطيعة قثم بن العباس بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب عامل بن جعفر علي اليمامة، ثم قطيعة الربيع مولي امير المؤمنين لانه جعل قطيعته بناحية الكرخ اسواقا ومستغلات فاقطع مع المهدي وهو قصر الفضل بن الربيع والميدان ثم قطيعة جبريل، بن يحيي البجلي ثم قطيعة اسد بن عبد الله الخزاعي ثم قطيعة ملك بن الهيثم الخزاعي ثم قطيعة سلم بن قتيبة الباهلي ثم قطيعة سفيان بن معاوية المهلبي ثم قطيعة روح بن حاتم ثم قطيعة ابان بن صدقة الكاتب، ثم قطيعة حموية الخادم مولي المهدي، ثم قطيعة نصير، الوصيف مولي المهدي، ثم قطيعة سلمة الوصيف صاحب خزانة سلاح المهدي، ثم قطيعة بدر الوصيف مع سوق العطش وهي السوق العظمي الواسعة، ثم قطيعة العلاء الخادم مولي المهدي ثم قطيعة يزيد بن منصور الحميري ثم قطيعة

زياد بن منصور الحارثي ثم قطيعة ابي عبيد معاوية ابن برمك البلخي علي قنطرة بردان ثم قطيعة عمارة بن حمزة بن ميمون ثم قطيعة ثابت بن موسي الكاتب علي خراج الكوفة وماستقي الفرات ثم قطيعة عبد الله بن زياد بن ابي ليلي الخثعمي الكاتب علي ديوان الحجاز والموصل والجزيرة وارمينية واذربيجان ثم قطيعة عبيد الله بن محمد بن صفوان القاضي ثم قطيعة يعقوب ابن داود السلمي الكاتب الذي كتب للمهدي في خلافته -ثم قطيعة منصور مولي المهدي وهو الموضع الذي يعرف بباب المقير ثم قطيعة ابي هريرة محمد بن فروخ القائد بالموضع المعروف بالمخرم ثم قطيعة معاذ بن مسلم الرازي جد اسحق بن يحيي بن معاذ ثم قطيعة الغمر بن العباس الخثعمي صاحب البحر ثم قطيعة سلام مولي المهدي بالمخرم وكان يلي المظالم ثم قطيعة عقبة بن سلم الهنائي ثم قطيعة سعيد الحرشي في مربعة الحرشي ثم قطيعة مبارك التركي ثم قطيعة سوار مولي امير المؤمنين ورحبة سوار ثم قطيعة نازي مولي امير المؤمنين صاحب الدواب واصطبل نازي ثم قطيعة محمد بن الاشعث الخزاعي ثم قطيعة عبد الكبير عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب اخي عمر بن الخطاب ثم قطيعة ابي غسان مولي امير المؤمنين المهدي وبين القطائع منازل الجند وسائر الناس من التناء ومن التجار ومن سائر الناس في كل محله وعند كل ربض وسوق هذا الجانب العظمي التي تجتمع فيها اصناف التجارات والبياعات والصناعات علي راس الجسر مارا من راس

الجسر مشرقا ذات اليمين وذات الشمال من أصناف التجارات والصناعات، وينقسم طرق الجانب الشرقي وهو عسكر المهدي خمسة اقسام، فطريق مستقيم الي الرصافة الذي فيه قصر المهدي والمسجد الجامع وطريق في السوق التي يقال لها سوق خضير وهي معدن طرائف الصين ونخرج منها الي الميدان ودار الفضل بن الربيع وطريق ذات اليسار والي باب البردان وهناك منازل جلد بن برمك وولده، وطريق الجسر من دار خزيمة الي السوق المعروفة بسوق يحيي بن الوليد الي الموضع المعروف بالدور الي باب بغداد المعروف بالشماسية ومنه يخرج من اراد الي سر من رأي، وطريق عند الجسر الاول الذي يعبر عليه من اتي من الجانب الغربي ياخذ علي دجلة الي باب العقير والمخرم وما اتصل بذلك، وكان هذا اوسع الجانبين لكثرة الأسواق والتجارات في الجانب الغربي كما وصفنا فنزله المهدي وهو ولي عهد وفي خلافته ونزله موسي الهادي ونزله هارون الرشيد ونزله المأمون ونزله المعتصم وفيه اربعة الاف درب وسكة وخمسة عشر الف مسجد سوي مازاده الناس وخمسة الاف حمام سوي مازاده الناس بعد ذلك وبلغ أجره الأسواق ببغداد في الجانبين جميعا مع رحا البطريق وما اتصل بها في كل سنة اثني عشر الف الف درهم ونزل ببغداد سبعة خلفاء المنصور والمهدي وموسي الهادي وهارون الرشيد ومحمد الامين وعبد الله المأمون والمعتصم فلم يمت بها منهم واحدا الامحمد الامين بن هارون الرشيد فانه قتل خارج باب الانبار عند بستان طاهر .

وهذه القطائع والشوارع والدروب والسكك التي ذكرتها علي مارسمت في ايام المنصور وقت ابتدائها وقد تغيرت ومات المتقدمون من اصحابها وملكها قوم بعد قوم وجيل وبعد جيل وزادت عمارة بعض المواضيع وملك قوم ديار قوم وانتقل الوجوهوالجلة والقواد واهل النباهة من سائر الناس مع المعتصم الي سر من راي في سنة ثلث وعشرين ومائتين، ثم اتصل بهم المقام في ايام الواثق والمتوكل ولم تخرب بغداد ولا نقصت اسواقها لانهم لم يجدوا منها عوضا ولانه اتصلت العمارة والمنازل بين بغداد وسرمن راي في البر والبحر أعني في دجلة وفي جانبي دجلة . [١]

رسالة في فضل علي بن أبي طالب
وآله من بني هاشم

رسالة في علي بن ابي طالب
وآله من بني هاشم

تقدمـــــة :

هذه اولي رسالتين، تضمنهما كتاب بهاء الدين ابي الفتح، علي ابن عيسي الاربلي كشف الغمة في معرفة الائمة، وصدرنا بهما عنه.

وعلي بن عيسي هذا هو احد شعراء القرن السابع وكتابه المترسلين ولد في اربل الواقعة بين الزاب الكبير والزاب الصغير في اقليم الجزيرة قريبا من اذربيجان وعمل في ديوانها كما عمل من بعد في ديوان بغداد.

اما كتابه فهو من الكتب التي تمثل غلبة التشيع في هذا الأفق الشرقي من آفاق العالم الاسلامي بما بناه عليه من ذكر تاريخه. والترجمة لائمتة ومن ذلك كان من أوائل الكتب التي عني بطبعها في ايران، وانما استجزنا ان نصدر بهاتين الرسالتين عنه، لانه وان كان مطبوعا كان في اعتبارنا في حكم المخطوط وذلك لندرة نسخه، وصعوبة الحصول عليه، اذا كان انما طبع في سنة

اربع وتسعين ومائتين والف، للهجرة التي توافق في التاريخ الميلادي سنة سبع وسبعين وثمانمائة والف. واذا كان قد انفرد، فيما وقفنا عليه بما اورد من الآثار المنسوبة لابي عثمان.

وعلي ان هاتين الرسالتين اللتين اوردهما منسوبتين الي الجاحظ متفاوتتان تفاوتا بعيدا في تحقيق هذه النسبة .

فاما الأولي التي ذكر انه اوردها مختصرا لها بعد ان وقف عليها بخط عبد الله بن الحسين الطبري، فهي في جملتها، فيما يغلب علي ظننا صحيحة بالنسبة الي الجاحظ وان امتدت اليها يد ابي الفتح بالاختصار الذي يشير اليه والذي لا يبعد عندنا ان يكون قد حذف به منها اشياء لها خطرها في التاريخ الادبي والفكري وبما اضافه كما هو واضح الي علي وبنيه من الالقاب التي جرت عادة الشيعة بالحاقها باسمه واسماء سلالته وهي القاب «السلام عليه» مما لانجد له اثرا فيما عدا هذه النسخة من الرسالة من كتب الجاحظ ورسائله اذ لا تزيد ان هي فعلت الا عبارة «رضي الله عنه» أو «كرم الله وجهه».

أما فيما عدا ذلك فالذي نكاد نقطع به انها من اثار الجاحظ، كما يغلب علي الظن انها تنتمي الي رسائله الهاشميات، التي ذكرها في مقدمة الحيوان بقوله.

وعبتني برسائلي الهاشميات، واحتجاجي فيها، واستقصائي معانيها وتصويري لهد في احسن صورة لها في اتم حلية وزعمت اني قد خرجت بذلك من حد المعتزلة الي حد الزيدية ومن حد الاعتدال في التشيع والاقتصاد فيه الي حد السرف والافراط وزعمت ان مقالة الزيدية خطبة مقالة الرافضة، وان مقالة الرافضة خطبة مقالة الغالبة الي اخر ما قاله في هذا النمط، مشققا الكلام علي عادته متطرقا من الجزئي الي الكلي ومن المسائل الخاصة الي القضايا العامة.

ولعل هذه الصفات التي وصف بها الجاحظ رسائله الهاشميات هذه كانت مما اغري علي بن عيسي بأن ينقلها او ينقل احداها الي كتابه بعد ان يتصرف فيها بما تحمله عليه شيعته وماقدره حجم كتابه وطبيعته وقد اتاح له ذلك ما يمتاز به اسلوب الجاحظ من بسط وما يلتزمه كثيرا من مزاوجه. وقد استطاع ان يحتفظ الي حد غير قليل فيما اداه الينا من رسالته بسمات هذا الأسلوب.

وكما استطاع ان يحتفظ بمثل هذه السمات من أسلوبه استطاع ان يحتفظ بالطابع الاعتزالي في تحقيق الغاية التي يجري اليها وهي الانتصار لبني هاشم وبيان مناقبهم. وكان من اول معالم هذا الطابع واظهرها، اصطناع المناظرة في الاحتجاج للمسائل التي يتناولها

المعتزلة منذ تحولت قضايا الدين اليهم، فتحول معها اسلوب الاقناع من الخطابة التي كان يصطنعها اسلافهم ، يتجهون بها الي وجدان الناس الي هذا النمط الذي يتجه الي العقل يصطنع له ما يلائمه ويساير طبيعته وهو الحوار الذي لم يلبث ان غلب عليهم يتخذونه فيما يريدون الاقناع به ويتجاوزن به في بعض الاحيان هذه الغاية فيتخذونه نوعامن الرياضة العقلية ، يزجون بها اوقات فراغهم.

ويبدو هذا فيما اشار اليه الجاحظ في هذه الرسالة من وجوه الخصومة التي كانوا يتصدون لها بين البصرة والكوفة وبين العرب والشعوبية وبين عدنان وقحطان وفيما كانوا يعالجونه من قضايا الوعد والوعيد والقدر والتشبيه والاسماء والاحكام، وغير ذلك مما كان المجتمع البصري يضطرب به ويدفع اليه.

وقد كان من ذلك ماكان يتورط فيه هذا المجتمع المعقد اشد التعقيد من الكلام عن الرجال مفاضلة بينهم وتمييزا بين طبقاتهم ومما قد يؤدي اليه هذا من الغلو في التقدير والخروج عن القصد وذلك مما ينبغي للمعتزلة ان يتجنبوه فلا ينزلقوا اليه. فيلتزموا النهج الأوسط الذي يري الاطراف المختلفة ولاتدفعهم الخصومة الي مثل ما دفعت اليه اليهود والنصاري في دعاواهم والي مالمحه علي بن ابي طالب في مثل قوله: يهلك في رجلان ، محب مفرط ومبغض

مفرط ..

وكذلك كان مذهب الجاحظ في هذه الرسالة التي بناها علي بيان درجة بني هاشم اذ يقول "والرأي كل الرأي الا يدعوك حب الصحابة الي بخس عترة رسول الله صلي الله عليه وسلم حقوقهم وحظوظهم وكان هذا المذهب الذي اخذ نفسه به الذي عرضه لما اتهمه به خصومه من أنه خرج بذلك من حد المعتزلة الي حد الزيدية .

ومهما يكن من أمر فان هذه الرسالة التي لانقصد غير التقدمة لها تعرض لنا نمطا من الادب الجاحظي يختلف اختلافا كبيرا عن النمط الذي رأيناه من قبل، بقدر مايعبر عن شخصية الجاحظ في غير ناحية من نواحيه وما تجلوه به في صورة الرجل السمح الواسع الافق البعيد من التزمت القريب من النهج الاوسط في رويته للامور وتناوله لها ووضعها في أقدارها .

اعلم - حفظك الله - أن أصول الخصومات معروفة بينه، وأبوابها مشهورة، كالخصومة بين الشعوبية والعرب والكوفي والبصري والعدناني والقحطاني، فهذه الابواب الثلاثة انقض للعقول السليمة ، وأفسد للاخلاق الحسنة ، من المنازعة في القدر والتشبيه، وفي الوعد والوعيد، وفي الاسماء والاحكام وفي الاثار وتصحيح

الاخبار ·

وأنقص من هذه للعقول تمييز للرجال وترتيب الطبقات، وذكر تقديم علي وابي بكر رضوان الله عليهما · فأولي الاشياء بك القصد وترك الهوي فان اليهود نازعت النصاري في المسيح، فلج بهما القول، حتي قالت اليهود أنه ابن يوسف النجار، وأن لغير رشده وانه صاحب نيرنج وخدع ومخازيق، وناصب شرك وصياد شص وشبك فما يبلغ عن عقل صياد وربيب نجار؟ وزعمت النصاري انه رب العالمين، وخالق السماوات والارضين واله الأولين والاخرين· فلووجدت اليهود أسسوا من هذا القول مقالته فيه· وعلي هذا قال علي "عليه السلام" يهلك رجلان، محب مفرط ومبغض مفرط· والرأي كل الرأي الايدعوك حب الصحابة الي بخس عترة الرسول صلي الله عليه وسلم وحقوقهم وحظوظهم فان عمر لما كتبوا الدواوين وقدموا ذكره فأنكر ذلك، وقال ابدءوا بطرفي رسول الله، صلي الله عليه وسلم واله، وضعوا آل الخطاب حيث وضعهم الله قالوا: فانت امير المؤمنين فابي الاتقديم بني هاشم علي نفسه· فلم ينكر عليه منكر وصوبوا رأيه وعدوا ذلك من مناقبة ·

وأعلم أن الله لو أراد ان يسوي بين بني هاشم وبين الناس لما ابانهم بسهم ذوي القربي ولما قال "انذر عشيرتك الاقربين" وقال تعالي "وانه لذكر لك ولقومك" واذا كان لقومه في ذلك ماليس لغيرهم فكل من كان أقرب كان ارفع· ولوسواهم بالناس لما حرم عليهم الصدقة وماذلك التحريم الا لاكرامهم علي الله· ولذلك قال

للعباس، حيث طلب ولاية الصدقات: "لااوليتك غسالات خطايا الناس واوزارهم بل اوليك سقاية الحاج والانفاق علي زوار الله. ولهذا كان رباه اول ربا وضع ودم وربيعة بن الحارث واول دم أهدر لانهما القدوة في النفس والمال.

ولهذا قال علي، عليه السلام علي منبر الجماعة نحن أهل البيت لايقاس بنا أحد وصدق صلوات الله عليه. كيف يقاس بقوم منهم رسول الله صلي الله عليه وسلم، والأطيبان: علي وفاطمة والسبطان الحسن والحسين، والشهيدان اسد الله حمزة وذو الجناحين جعفر وسيد الوادي عبد المطلب وساقي الحجيج العباس، وحليم البطحاء والنجد والخير فيهم، والانصار انصارهم والمهاجر من هاجر اليهم ومعهم والصديق من صدقهم والفاروق بن الحق والباطل فيهم والحواري حواريهم، وذو الشهادتين لانه شهد لهم ولاخير فيهم ولهم ومنهم ومعهم.

وقال عليه السلام فيما ابان به اهل بيته. "اني تارك فيكم الخليفتين احدهما اكبر من الاخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء الي الارض، وعترتي، أهل البيت. نبأني الخبير انهما لن يفترقا حتي يردا علي الحوض.

ولو كانوا كغيرهم لما قال عمر، حين طلب مصاهرة علي: اني

سمعت رسول الله صلي الله عليه وسلم ويقول: كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة الاسببي ونسبي" .

واعلم ان الرجل قد ينازع في تفضيل ماء دجلة علي ماء الفرات فان لم يتحفظ وجد في قلبه علي شارع ماء دجلة «رقة» لم يكن يجدها ووجد في قلبه غلظة علي شارب ماء الفرات لم يكن يجدها .

فالحمد لله الذي جعلنا لانفرق بين أبناء نبينا، ورسلنا . نحكم لجميع المراسلين بالتصديق ولجميع السلف بالولاية ونخص بأي هاشم بالمحبة ونعطي كل امرئ قسطة من المنزلة .

فاما علي بن ابي طالب، عليه السلام فلو افردنا لايامه الشريفة ومقاماته الكريمة ومناقبه السنية كلاما لافنينا في ذلك الطوامير الطوال. العرق صحيح، والمنشأ كريم والشأن عظيم والعمل جسيم والعلم كثير، والبيان عجيب، واللسان خطيب والصدر رحيب، فاخلاقه وفق أعراقه. وحديثه يشهد لقديمه، وليس التدبير في وصف مثله الا بذكر جمل قدره واستقصاء جميع حقه فاذا كان كتابنا لايحتمل تفسير جميع أمره، ففي هذه الجملة بلاغ من اراد معرفة فضله.

وأما الحسن والحسين، عليهما السلام، فمثلهما مثل الشمس والقمر. فمن اعطي مافي الشمس والقمر من المنافع العامة والنعم

الشاملة التامة؟ ولو لم يكونا ابني علي من فاطمة. عليهم السلام ورفعت من وهمك كل رواية وكل سبب توجيه القرابة لكنت لاتقرن بهما احدا من جلة اولاد المهاجرين والصحابة الا اراك فيهما الانصاف من تصديق قول النبي صلي الله عليه وسلم انهما سيدا شباب اهل الجنة جميع من هما سادته سادة. والجنة لاتدخل الابالصدق والصبروا لا بالحلم والعلم والا بالطهارة والزهد والا بالعبادة والطاعة الكثيرة والأعمال الشريفة والاجتهاد والأثره الاخلاص في النية فدل علي أن حظهما في الاعمال المرضية والمذاهب الزكية فوق كل خط.

واما محمد بن الحنفية فقد اقر الصادر والوارد والحاضر والبادي انه كان واحد دهره وعصره رجل وكان اتم الناس تماما وكمالا .

واما علي بن الحسين عليه السلام فالناس علي اختلاف مذاهبهم مجمعون عليه لايمتري احد في تدبيره ولايشك احد في تقديمه وكان اهل الحجاز يقولون لم نرثلاثة في دهر، يرجعون الي اب قريب كلهم يسمي عليا، وكلهم يصلح للخلافة لتكامل خصال الخير فيهم يعنون علي بن الحسين بن علي عليهم السلام وعلي بن عبد الله بن جعفر وعلي بن عبد الله بن العباس رضي الله عنه.

ولو غزونا بكتابنا هذا ترتيبهم لذكرنا اولا عليا لصلبه وولد الحسين وعلي بن الحسين ومحمد بن عبد آلله بن جعفر ومحمد بن

علي بن عبد الله بن العباس. الا انا ذكرنا جملة من القول فاقتصرنا من الكثير علي القليل.

فاما النجدة فقد علم اصحاب الاخبار وحمال الاثار أنهم لم يسمعوا بمثل نجده علي ابن ابي طالب عليه السلام، وحمزة رضي الله عنه ولابصبر جعفر الطيار، رضوان الله عليه وليس في الارض قوام اثبت جنانيا، ولا اكثر مقتولا تحت ظلال السيوف ولا اجدر ان يقاتلوا وقد فرت الاجناد وذهبت الصنائع، وخام ذو البصيرة وحاد اهل النجدة، من رجالات بني هاشم وهم كما قيل

وتام الكمي، وطاح اللـــواء ولاتأكل الحرب الاسمينا

وكذلك قال دعقل حين وصفهم "انجاد امجاد ذو السنة حداد" وكذلك قال علي عليه السلام حين سئل عن بني هاشم وبني امية نحن انجد وامجد واجود وهم انكر وامكر واغدر" وقال ايضا "نحن اطعم للطعام، واضرب للهام" .

وقد عرفت جفاء المكيين وكيس المدنيين، واعراق بني هاشم مكية ومناسبهم ومدينية ثم ليس في الارض احسن اخلاقا. ولااظهر بشرا ولا ادوم دماثه ولا ألين عريكة ولا اطيب عشرة ولا ابعد من كبر منهم والحدة لايكاد يعدمها الحجّازي والتهامي، الا ان حليمهم لا

يشق عبارة وذلك في الخاص والجمهور علي خلاف ذلك حتي تصير الي بني هاشم فالحلم في جمهورهم وذلك يوجد في الناس كافة ولكنا نضمن انهم اتم الناس فضلا واقلهم نقصا ٠وحسن الخلق في البخيل اسرع، وفي الذليل اوجد وفيهم مع فرض وجوهم وظهور عزهم من البشر الحسن والاحتمال وكرم التفاضل مالايوجد مع البخيل الموسر والذليل المكثر اللذين يجعلان البشروقاية دون المال٠

وليس في الارض خصلة تدعو الي الطغيان والتهاون بالامور وتفسد العقول، وتورث السكر، والا وهي تعتريهم وتعرض لهم دون غيرهم، اذ قد جمعوا من الشرف العالي والمغرس الكريم ، والعزة والمنعة ، مع ابقاء الناس عليهم والهيبة لهم وانهم في كل أوقاتهم وجميع اعصارهم فوق من هم في مثل ميلادهم في الهيئة الحسنة والمروءة الظاهرة والاخلاق المرضية وقد عرف الحدث الغرير من فتيانهم وذو العرامة من شبابهم انه ان اثتري لم يفتر عليه وان ضرب لم يضرب، ثم لانجده الاقوي الشهوة بعيد الهمة كثير المعرفة مع خفة ذات اليد وتعذر الامور ثم لانجد عند افسدهم شيئا عند المنكر الا رايت من غيره من الناس اكثر منه من مشايخ القبائل وجمهور العشائر٠ اذا كان فاضلهم فوق كل فاضل، وناقصهم انقص نقصانا من كل ناقص فاي دليل ادل اي برهان أواضح مماقلته٠

وقد علمت ان الرجل منهم يلعت بالتعظيم «يشار اليه» بالرواية

في دخول الجنة بغير حساب، ويتأول القران له ويزداد في طمعه بكل حيلة وينقص من خوفه، ويحتج له بأن النار لاتمسه وأنه ليشفع في مثل ربيعه ومضر وانت تجد لهم مع ذلك العدد الكثير من الصوام والمصلين والتالين الذين لايجاريهم احد ولا يقاربهم.

كان ابوسفيان بن الحارث بن عبد المطلب يصلي في كل ليلة الف ركعة، وكذلك علي بن الحسيّن بن علي وعلي بن عبد الله بن جعفر وعلي بن عبد الله العباس عليهم السلام، مع الحلم والعلم، وكظم الغيظ والصفح الجميل، والاجتهاد الصبر. فلوا ان خصلة من هذه الخصال اوداعية من هذه الدواعي عرضت لغيرهم، لهلك واهلك.

اعلم انهم لم يمتحنوا بهذه المحن، ولم يتحملوا هذه البلوي الا لما قدموا من العزائم التامة والادوات الممكنة ولم يكن الله ليزيدهم في المحنة الا وهم يزدادون علي شدة المحن خيرا وعلي التكشف تهذيبا.

وجملة اخري مما لعلي بن ابي طالب عليه السلام خاصة الاب ابو طالب والجد عبد المطلب بن هاشم والام فاطمة بنت اسد بن هاشم والزوجة فاطمة بنت رسول الله صلي الله عليه وسلم وسيد نساء اهل الجنة والولد الحسن والحسين سيدا شباب اهل الجنة والاخ جعفر الطيار في الجنة والعم العباس وحمزة سيد الشهداء في الجنة

والعمة صفية بنت عبد المطلب وابن العم رسول الله صلي الله عليه وسلم واله. واول هاشمي بين هاشميين كان في الارض ولد ابي طالب والاعمال التي يستحق بها الفخر اربعة: التقدم في الاسم والذب عن رسول الله صلي الله عليه وسلم وعن الدين والفقه في الحلال والحرام الزهد في الدنيا وهي مجتمعة في علي بن ابي طالب متفرقة في الصحابة.

وفي علي يقول اسد بن زنيم يحرض عليه قريشا وانه بلغ منهم علي حداثة سنة مالم يبلغه ذوو الاسنان.

في كل مجمع غاية اخزاكـــم   جـــذع ابر علي المذاكي القرح
للـــه دركم الما تنكــــــروا   قد ينكر الضيم الكريم ويستحي
هذا ابن فاطمة الذي افناكم   ذبحـــات، ويمشي امنا لم يجــرح
اين الكهول؟ واين كل دعامة   للمعضلات واين زين الابطـــح؟
افناكــم ضربا بكل مهنــــد   صلــت وحد غرارة لم يصفـــح

واما الجود فليس علي ظهر الارض جواد جاهلي ولا اسلامي ولاعربي ولا عجمي ولا وجوده يكاد يصير بخلا اذا ذكر وجود علي بن ابي طالب، وعبد الله بن جعفر وعبد الله بن العباس والمذكورون بالجود منهم كثير لكنا اقتصرنا.

ثم ليس في الارض قوم انطق خطيبا، ولااكثر بليغا، من غير

تكلف ولا تكسب من بني هاشم وقال ابو سفيان بن الحارث:

لقد علمت قريش غير فخـــر   بأنا نحن اجرؤهم جنانـــا
واكثرهم دروعا سابغـــــات   وامضاهم اذا طعنوا سنانا
وادفعهم عن الضراء فيهــــم   وابينهم اذا نطقوا بيانـــا

ومما يضم الي جملة القول في فضل علي بن بن طالب، عليه السلام أنه اطاع الله قبلهم ومعهم وبعدهم وامتحن بما لم يمتحن به ذو عزم وابتلي بما لم يبتل به ذو صبر.

واما جملة القول في ولد علي فان الناس لايعظمون الناس الا بعد ان يصيبوا منهم، وينالوا من فضلهم والا بعد ان تظهر قدرتهم وهم معظمون قبل الاختيار، وهم بذلك واثقون به موقنون. فلولا أن هناك سرا كريما، وخيما عجيبا وفضلا مبينا. وعرقا ناميا لاكتفوا بذلك التعظيم ولم يعانوا تلك التكاليف الشداد والمحن الغلاظ.

واما المنطق والخطب، فقد علم الناس كيف كان علي بن ابي طالب عند التفكير والتحبير وعند الارتجال وعند الاطناب والايجاز في وقتهما وكيف كان كلامه قاعدا وقائما وفي الجماعات ومنفردا مع الخبرة بالاحكام والعلم بالحلال والحرام. وكيف كان عبد الله بن عباس رضوان الله عليه فالذي كان يقال له الحبر والبحر، ومثال عمر بن الخطاب يقول له "غُص ياغواص" شنشنه اعرفها من اخزم، قلب عقول

ولسان قوول "ولو لم يكن لجماعتهم الا لسان زيد بن علي بن الحسين وعبد الله بن معاوية بن جعفر لفرعوا بهما جميع البلغاء وعلوا بهما علي جميع الخطباء ولذلك قالوا "واجواد امجاد السنة حداد" ٠

وقد القيت اليك جملة من ذكر ال الرسول يستدل بالقليل منها علي الكثير وبالبعض علي الكل والبغية في ذكرهم انك متي عرفت منازلهم ومنازل طاعاتهم ومراتب اعمالهم وأقدار افعالهم وشدة محنتهم واضفت ذلك الي حق القرابة كان أدني مايجب علينا الاحتجاج لهم وجعلت بدل التوقف في امرهم الرد علي من اضاف اليهمْ مالايليق بهم وقد تقدم من قولنا فيهم، متفرقا ومجملا .وما اغني عن الاستقصاء في هذا الكتاب٠

المصادر والمراجع

المصادر والمراجـــــع

١- ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم الخزرجي، توفي سنة ٦٦٧هـ/١٢٧٠م.

- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، جزءان، نشر وتحقيق الدكتور نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.

٢- ابن الاثير، أبو الحسن علي بن محمد الجزري، توفي سنة ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م

- الكامل في التاريخ، طبعة القاهرة، ٤ اجزاء.
- أسد الغابة في معرفة الصحابة، ٥ أجزاء، طبعة المعارف، القاهرة ١٢٨٥هـ.
- أسد الغابة في معرفة الصحابة، ٥ أجزاء، طبقة المعارف، القاهرة ١٢٨٥هـ.

٣- ابن تغري بردي، جمال الدين يوسف، توفي سنة ٨٧٤هـ/١٤٦٩م.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج١، طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة.

٤- ابن حزم، أبو محمد علي بن احمد حزم الظاهري، توفي سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٤م.
- جوامع السيرة وخمس رسائل أخري، تحقيق الدكتور احسان عباسي،

والدكتور ناصر الدين الأسد، طبع دار المعارف، مصر [مجموعة تراث الاسلام]٠
- جمهرة انساب العرب، تحقيق ليفي بروفنسال، طبع دار المعارف، سنة ١٩٤٨٠ [مجموعة ذخائر العرب]٠
- الفصل في الملك والأهواء والنحل، ٤ أجزاء، القاهرة، سنة ١٣١٧هـ٠

٥- ابن حوقل، أبو القاسم محمد، توفي سنة ٣٦٧ هـ/ ٩٧٧م٠
- كتاب صورة الارض، نشر Kramers ليدن ١٩٣٨، في جزئين٠

٦- ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله عبد الله توفي ٢٧٢هـ/٨٨٥م
- كتاب المسالك والممالك، طبعة دجويه، ليدن ١٨٨٩، وبذيله نبذة من كتاب "الخرج وصنعه الكتابة، لأبي الفرج قدامه بن جعفر الكاتب البغدادي٠

٧- ابن خلدون، ابو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون ولي الدين التونسي الحضرمي الاشبيلي المالكي، توفي في سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م٠
- العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ٧ أجزاء، بولاق ١٣٨٤هـ٠
- مقدمة ابن خلدون، طبعة التجارية٠
- التعريف بابن خلدون رحلته شرقاً وغربا، نشر محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة- ١٣٧٠هـ/ ١٩٥٠م٠

٨- ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد، توفي سنة

٦٨٢هـ/١٢٨٢م.
- وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان، نشر محمد محيي الدين عبد الحميد، ٦ أجزاء، طبع القاهرة. ١٣٦٧- ١٣٦٩هـ/ ١٩٤٨-١٩٥٠م.

٩ - ابن سعد، أبوعبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهري، توفي سنة ٢٣٠هـ/٨٤٥م.
- كتاب الطبقات الكبير، تحقيق ادوارد سخو، ٨ أجزاء، ليدن ١٩٠٤-١٩١٧.

١٠ - ابن سعيد، علي بن موسي المغربي، توفي سنة ٦٧٣هـ/١٢٧٦م.
- المغرب في حلي المغرب، تحقيق الدكتور شوقي ضيف، طبع دار المعارف، القاهرة [مجموعة ذخائر العرب].

١١ - ابن الشباط، محمد بن علي بن محمد المصري التوزري، توفي سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م.
- صلة السمط وسمة المرط نشر القسم الخاص بالأندلس، أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الاسلامية، مدريد، ١٩٧١م.

١٢ - ابن عبد البر القرطبي، يوسف النمري توفي سهلة ٤٥٩هـ/١٠٦٦م.
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، نشر علي هامش الاصابة لابن بن حجر، ٤أجزاء النسخة المصورة بالأوفست، المثني بغداد.

١٨- ابن القوطية، محمد بن عمر، توفي سنة ٣٦٧هـ/٩٧٧م.
- تاريخ افتتاح الاندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، طبع بيروت ١٩٥٧.

١٩- ابن الكردبوس، [آخر القرن السادس الهجري ١٢م]
- تاريخ الأندلس، تحقيق أحمد مختار العبادي، مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ١٩٧١.

٢٠- ابن النديم، محمد بن اسحاق، توفي ٣٨٣هـ/ ٩٩٣م.
- الفهرست، طبعة التجارية

٢١- ابن هشام، ابو محمد عبد الملك بن هشام بن ايوب الحميري، توفي سنة ٢١٨هـ.
- السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقاره، ابراهيم الابياري، عبد الحفيظ شلبي، ٤ اجزاء، طبع دار احياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

٢٢- ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم الخزرجي الافريقي، توفي سنة ٧١١هـ/ ١٣١١م.
- لسان العرب، طبع بولاق ١٢٩٩- ١٣٠٨هـ، في عشرين مجلداً.

٢٣- أحمد أمين، ضحي الاسلام، جزءان، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر، طبعة ثالثة، القاهرة ١٣٧١هـ/١٩٥٢.
- طبع دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة العاشرة.

٢٤- الاصطخري، أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي، توفي سنة ٣٤٠هـ/٩٥١٠
- كتاب المسالك والممالك نشر دجويه ليدن ١٩٢٧٠

٢٥- الأصفهاني [أبو الفرج]، توفي سنة ٣٥٦هـ/ ٩٦٧م ٠
- كتاب الأغاني، ٢١ جزءاً، طبع القاهرة ١٩٢٧- ١٩٣٦٠

٢٦- بروفنسال، تاريخ أسبانيا الاسلامية، بالفرنسية طبع الجمعية الفرنسية للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٤٨٠

٢٧- الخطيب البغدادي، الحافظ ابو بكر احمد بن علي بن علي، توفي سنة ٤٦٣هـ/١٠٧٠-١٠٧١م٠
- تاريخ بغداد أومدينة السلام، ١٤جزءاً، طبع القاهرة ١٣٤٩هـ/١٩٣١م٠

٢٨- البغدادي، أبومنصور عبد القاهر بن طاهر، توفي سنة ٤٢٩هـ/١٠٣٧م
- الفرق بين الفرق، طبع القاهرة ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م٠

٢٩- البكري، أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز توفي سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م٠
- المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب نشر دسلان، باريز ١٩١١٠

٣٠- البلاذري، أبو العباس احمد بن يحيي بن جابر، توفي سنة ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م٠

- كتاب فتوح البلدان، طبع ليدن ١٨٦٦م.

٣١- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك، توفي سنة ٤٢٩هـ/١٠٣٧م.
- يتيمة الدهر، أربعة أجزاء، طبع القاهرة ١٣٥٣هـ/١٩٣٤.

٣٢- الجاحظ، أبوعثمان عمرو بن بحر، توفي سنة ٢٥٥هـ/ ٨٦٩م.
- كتاب التـــاج في أخلاق الملوك، تحقيق أحمد زكي باشا، القاهرة، ١٣٣٢هـ/١٩١٤م.
- كتاب البيان والتبيين، ٤ أجزاء، القاهرة ، ١٩٢٨م.
- كتاب التبصر بالتجارة، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م.

٣٣- الجهشياري، أبوعبدالله محمد بن عبدوس، توفي ٣٣١هـ/٤٢-٩٤٣م.
- الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا، ابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي طبع القاهرة ١٩٣٨.

٣٤- حاجي خليفة، مصطفى كاتب جلبي، توفي ١٠٦٧هـ، ١٦٥٧م.

- كشـف الظنون عنـد أسامـي الكتـب والفنـون، طبع ليبزج ولندن ١٨٣٥-١٨٥٨.

٣٥- خليفة بن خياط، توفي سنة ٢٤٠هـ/ ٩٥١م.
- تاريخ خليفة بن خياط [رواية بقي بن محمد] تحقيق سهيل زكار، في

قسمين، منشورات وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي، دمشق ١٩٦٧-١٩٦٨.

٣٦- ديموميين [جودفروا]، النظم الاسلامية، ترجمة الدكتور فيصل السامر، الدكتور صالح الشماع، دار النشر للجامعيين، بيروت ١٩٦١.

٣٧- الذهبي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد، توفي سنة ٧٨٤هـ/١٣٤٧-١٣٤٨.
- تذكرة الحفاظ، جزءان، الطبعة الثانية، حيدر أباد - الدكن الهند، ١٣٣٣هـ.
- تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام، وثلاثة أجزاء، نشر مكتبة القدس، طبع القاهرة ١٣٦٧-١٣٦٨هـ.
- كتاب دول الاسلام، جزءان طبع حيدر أباد الدكن الهند- الطبعة الثانية، سنة ١٣٦٤-١٣٦٠هـ.
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، ٤ اقسام، تحقيق محمد البجاوي، طبع عيسى البابي الحلبي ، القاهرة سنة ١٩٦٣م.

٣٨- الرقيق القيرواني، أبو القاسم ابراهيم، توفي بعد سنة ٤١٧هـ/ ١٠٢٦م.
- تاريخ أفريقية والمغرب، تحقيق المنجي الكعبي، تونس ١٩٦٨.

٣٩- الزبيري، أبوعبد الله الزبير بن بكاربن أحمد بن مصعب، توفي

سنة ٢٥٦هـ/٨٧٠م.
- كتاب نسب قريش، تحقيق ليفي بروفنسال، نشر دار المعارف، مصر ١٩٥٣ [مجموعة ذخائر العرب].

٤٠- سعد زغلول، التاريخ العباسي، والأندلسي، طبع دار النهضة العربية، بيروت.
- تاريخ الدولة العربية، طبع دار النهضة العربية، بيروت.

٤١- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين، توفي سنة ٩١١هـ /١٥٠٩م.
- حسين المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة، جزءان، طبع القاهرة، سنة ١٣٢٧.
- تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة، طبع القاهرة، سنة ١٣٠١هـ.

٤٢- الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم، توفي سنة ٥٤٨هـ/
- الملل والنحل، ٥ أجزاء، القاهرة ١٣١٧هـ.

٤٣- الطبري، أبوجعفر محمد بن جرير، توفي سنة ٣١٠هـ/٩٢٣م.
- تاريخ الأمم والملوك، طبعة دار المعارف ١٠ أجزاء [مجموعة ذخائر

العرب]٠

٤٤- طيفور، ابو الفضل أحمد بن أبي طاهر، توفي سنة ٢٨٠هـ/ ٨٩٣-٨٩٤م٠
- تاريخ بغداد، الجزء السادس، طبعة هـ٠ كلر، لابنرج ١٩٠٨٠

٤٥- القاضي عياض، ابوالفضل بن موسي اليحصبي، توفي سنة ٤٧٦هـ/

-ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة اعلام مذهب مالك، تحقيق أحمد بكير محمود، ٤ أجزاء، طبع بيروت٠

٤٦- فاروق عمر:
- طبيعة الدعوة العباسية [٩٨هـ/٧١٦م- ١٣٢هـ/٧٤٩م]، دراسة تحليلية لواجهات الثورة العباسية وتفسيراتها، طبع دار الارشاد بيروت ، طبعة أولي، سنة ١٩٧٠م٠
- بحوث في التاريخ العباسي، الطبعة الأولي، بيروت، لبنان، ١٩٧٧م٠

٤٧- القالي، أبو علي اسماعيل بن القاسم البغدادي، توفي ٣٥٦هـ/ ٩٦٦م٠
- كتاب الأمالي، جزءان، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان٠
- كتاب ذيل الأمالي والنوادر، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان٠

٤٨- القفطي، جمال الدين علي بن يوسف بن ابراهيم بن عبد الوهاب، توفي سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م٠

- اخبار العلماء باخبار الحكماء، نسخة مصورة بالأوفست عن طبعة ليبزج ١٩٠٣م، مكتبة المثني، بغداد.

٤٩- القلقشندي، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي المصري، توفي سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م.
- صبح الأعشي في صناعة الانشا، في ١٤جزءاً، طبع دار الكتب المصرية، ١٩١٣-١٩١٩ نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، القاهرة ١٩٦٥.
- نهاية الأرب في معرفة انساب العرب، تحقيق إبراهيم الابياري القاهرة ١٩٥٩.

٥٠- الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف ، توفي سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م.
- كتاب الولاة والقضاة، نشرر فن جست، طبعة بيروت ١٩٠٨.

٥١- الماوردي، ابو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري، توفي سنة ٤٥٠هـ/١٠٥١م.
- الاحكام السلطانية، طبع القاهرة ١٢٩٧هـ.
- ادب الوزير ، طبع بيروت
- ادب الوزير، طبع بيروت.
- أدب الدنيا والدين، طبع القاهرة.

مجهول:

٥٢- العيون والحدائق في أخبار الحقائق، النسخة المصورة بالأوفست، المثني بغداد، عن طبعة بريل ١٨٦٩.

٥٣- مجهول،
- اخبار الدولة العباسية وفيه اخبار العباس وولده، تحقيق الدكتور عبد العزيز الدوري والدكتور عبد الجبار المطلبي، طبع بيروت سنة ١٩٧١.

مجهول:

٥٤- اخبار مجموعة في فتح الاندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم، مدريد ١٨٦٧م.

٥٥- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، توفي سنة ٣٤٥هـ/٩٥٦م
مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ٤ أجزاء، طبع التجارية ١٩٥٨ وطبعة بريه دي مينار روباليه دي كرتاي، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية، بيروت ١٩٧٣.

٥٦- مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، توفي سنة ٢٦١هـ/٨٧٥م.
- الجامع الصحيح، ٨أجزاء، طبع القاهرة ١٣٢٩-١٣٣٢.

٥٧- محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، طبع القاهرة سنة ١٩٥٦.

٥٨- المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد، توفي ٣٨٨هـ/٩٩٧م.
- أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، طبع دجويه ليدن ١٩٠٦م.

٥٩- المقريزي تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي المقريزي، توفي سنة ٨٤٥هـ/١٤٤١م.
- كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جزءان، النسخة المصورة بالاوفست مكتبة المثني، بغداد [عن طبعة بولاق].

٦٠- النوبختي، أبو محمد الحسن بن موسي، توفي سنة ٢٣٢هـ/٨١٧م.

- كتاب فرق الشيعة، طبع المطبعة الحيدرية، النجف، سنة ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م.

٦١- النويري، أبو العباس احمد بن عبد الوهاب بن محمد شهاب الدين، توفي سنة ٧٣٢هـ/١٣٣٢م.
نهاية الأرب في فنون الأدب، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة.

٦٢- الهمداني، أبومحمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف بن داود، توفي سنة ٣٣٤هـ/٩٤٦م.
- صفة جزيرة العرب، جزءان، طبعة دافيد ميلر، ليدن ١٨٩١.

٦٣- الواقدي، ابو عبد الله محمد بن عمر، توفي سنة ٢٠٧هـ/٨٢٣م.

- كتاب المغازي، ٣ أجزاء تحقيق الدكتور مارسدن جونس، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ، لبنان.

٦٤- ياقوت، شهاب الدين ياقوت من عبد الله الرومي، توفي سنة ٦٢٧هـ/١٢٢٩م.
- معجم البلدان، في ٦ أجزاء نشر وستنفلد، ليبزج ١٨٦٦-١٨٧٣.
- ونشره محمد الخانجي، القاهرة ١٩٠٦-١٩٠٧، ١٠ أجزاء.

٦٥- اليعقوبي، احمد بن ابي يعقوب بن جعفر بن وهب، توفي سنة ٢٧٨هـ/٨٩١م.
- كتاب البلدان نشر دجويه ليدن ١٨٩٢.
- تاريخ اليعقوبي، في جزئين، طبع بيروت ١٩٦٠.

الفهرســــت

Bibliotheca Alexandrina
02204092